سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الأول



سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الأول

الليالي كلّها

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الأول: الليالي كلّها**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

في قراءة الأرض

في هذا المساء الرطب، مساء باريس الرصاص، وفي الخامس من كانون الثاني ١٩٩٢، أُفكر بالأعوام الأربعين التي أعقبت أول نص شعري نشرته، كنت لا أزال في أيام الطلب، استدنت من عم لي عشرة دنانير لأطبع قصيدة طويلة في كراس، أعدت المبلغ إلى عمي، لا ورقة «واحدة» أو ورقتين كما تسلمته، بل كيساً من معادن مختلفة الشيات والأصوات، ومن تلك القصيدة كسبت الكثير: حزاماً جلداً، وكرسياً في سينما.

اليوم، يؤنسني الشعور ذاته: إنني أتحزم، أحزم أمري، وأذهب إلى الفن.

كيف قدر لي، أنا ابن القرية الفقيرة كأهلها، أن أذهب إلى الفن، وأمضي في الذهاب، حتى هذا المساء، حتى هذه اللحظة؟

كيف قدر لي، أن أقطع القفار والبحار، واستبدل بالمصر أمصاراً، وبمنزل الجد شققاً نصف مفروشة، وغرفات فنادق رخيصة، وبالمكتبة الأولى رفوفاً صفيقة تطوى وتنشر كالحقائب؟

كيف قدر لي أن أقطع القنطرة بين مسجد قرية حمدان والطريق العام، ذلك الحبل السُّرِّي الذي هو الميلاد والموت؟

كيف قدر لي أن أحمل النصب والشظف، وأتحملهما، وأحاورهما، حتى وإن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً؟

الأيام دُولة، والسنون تمضي عقوداً، لا صوى في السبيل ولا نيران في رأس الجبل.

سلاماً. . إذاً

سلاماً أيها الأبد المخبأ في القميص.

أكتب عن الناس. أحبهم، وأُدافع عنهم لكن، لا نيران في رأس الجبل.

أتذكر، مرة، القبض علي: أُخذت من المنزل، إلى مركز الشرطة، وبعد ليال هناك، ذهب بي شرطي، وأنا مغلول، إلى محطة القطار، القطار الصاعد من البصرة إلى بغداد حيث سأُحاكم.

كنا راجلين، أنا والشرطي، والطريق بين مركز الشرطة ومحطة القطار يمر بكل الأماكن التي أعرفها، ويعرفني الناس فيها: السوق، المقاهي، المكتبة، كان الناس يضطربون مضطربهم اليومي، وأنا أسير بينهم مغلولاً، لم يقل لي أحد: سلاماً، لم تطرف لمرآي عينان، كان الناس مشغولين بشؤونهم، وما أنا من هذه الشؤون، يا لوحشة المسعى! لكني في الانعطافة الأخيرة نحو محطة القطار، أبصرت فتى أسرتني عيناه بأنه سيحكي للمدينة حكايتي.

عن هذا الفتى كتبت.

الفنان يكتشف ناره، ويعلي جبله، حيث تتوقد الشعلة.

في بيروت ١٩٨٢، في الأيام الأولى، ومنذ الرابع من حزيران، أخذت أكتب قصائد شخصية، جاءت الغارة الأولى على المدينة الرياضية، وأنا أكتب قصيدة، أتتبع فيها مريم العذراء عند ريلكة، مع

الأيام بدأت تحولات مريم التي بلغت تجليها الأخير في قصيدة «مريم تأتي» التي كتبتها يوم الخامس والعشرين من تموز.

كيف كنت التقط مادة القصائد؟

كنت كثير الحركة، قبل أن تغدو الغارات الجوية بتلك الكثافة الوحشية، أزور المواقع المجاورة، أتحدث مع المقاتلين، أذهب إلى مناطق خطرة، أبيت الليل أحياناً مع المقاتلين الشبان في ملاجئ مظلمة، أدور على الأجهزة الإعلامية، أتسقط الأنباء هنا وهناك، كنت أشعر بأن حياتي هي من التدفق بحيث إن الموت لن يكون سوى تتويج لها إذا جاء. الفنان يكتشف واقعه، ينقيه، وينتقيه، يرفع واقعه ذاته ناراً في رأس الجبل.

كثيراً ما يرد تعبير الدهشة، توصيفاً للشعر أو لما يثيره، وقد استوقفني التعبير طويلاً، وجعلت أتمثل بيت المرقش الأصغر:

تحلّين ياقوتاً وشذراً وصنعةً
وجوعاً ظفارياً ودراً توائما

نساء المرقش الأصغر، هؤلاء الحلوات المتحليات، كيف برزن إلينا، في هالة الفن البهية؟ نساء سان جون بيرس وريلكة، كيف أتيننا؟

لم يقل المرقش الأصغر غير أشياء سمّاها، إنها أشياء نعرفها، لكن الشاعر وضعها أمامنا بحيث نراها للمرة الأولى، لقد منحنا اللون والشكل، أعطانا الملمس المتقري والعيون الواسعة، ودعانا عبر الملمس والعين إلى الدخول في عالم من التصور والتخيل لم نكن لندخله لولاه، لولا هذا المدهش المنهمر أمامنا كمطر ملون.

الحواس، إذن، هي هدف موجة الشاعر، هي المستهدفة لأنها

المستقبلة، ولأن عناصر التصور والتخيل تمر عبرها أولاً، لتواصل مسيرتها نحو التركيبة، الفنية اللاحقة، أعني النصف الثاني من التركيبة، المتعلق بالقارئ، هذا القارئ الذي سيلتقط العناصر، ويعيد تركيبها، حسب هواه ومستواه.

أين الدهشة في هذا؟

أحسب أن الدهشة هي في أن عناصر الواقع وأشياءه التي ينتقيها الشاعر، مادة خاماً، تخاطب (أعني العناصر والأشياء) الحواس، إشارة، لا دلالة، أي أن العلاقة بين المرء والعالم تعاد إلى بدايتها، إلى بداءتها، إلى بداهتها المفاجئة، إنها تثير استجابات لا أجوبة، إنها تحرك، وقد اطلعت على دراسة تتعلق بالاستجابة الجسدية لنصوص شعرية معينة، مثل اختلاج عضلات الوجه، ورفيف الأجفان، ووقوف الشعر، ووتيرة التنفس.

وليس ارتباط الأشعار الأولى بالرقص سوى مثل في السياق ذاته.

لكن الأمور، ليست بهذا اليسر المتوهم في التأويل النظري، إنك في العملية الإبداعية، ستجدك إزاء احتكامات تطبيقية خطيرة، تدفع بك في قوة طاردة عجيبة، خارج المتداول السائد، مثلاً: ما دامت الأشياء مادتك الخام، وما دامت اللغة رموزاً للأشياء، وليست الأشياء، فماذا أنت صانع باللغة؟

ومثلاً: إن كان الفعل والاسم الجامد هما الأقرب إلى توصيف المادة الخام، فماذا أنت صانع بالمصدر والمشتق؟

ومثلاً: إن كنت رأيت أخلاقية العملية الفنية متلازمة، ومادتها الأُولى، الأولية، وهي فيما توافر لديك: اللغة في لحظتها الأُولى، فماذا أنت صانع بالذاكرة؟ أبمقدورك أن تقدم الكأس هكذا، حرة،

بين يديك . . بينما الذاكرة مكتظة بالكؤوس: سقراط، الخيام، أم كلثوم؟ ومثلاً: إن كان الشعر إعادة نظر في العالم ونقداً، وما دامت الصورة وسيلته في إعادة النظر، وفي النقد، فإي مكان يظل للفكرة؟ بمعنى، هل الفكرة تسبق العملية الإبداعية أم تتلوها؟

هل الشاعر هو الذي يتوصل إلى الفكرة أم القارئ؟

أسئلة كهذه، لن تجد جوابها إلاّ في التطبيق، أي في الكتابة، وإلاّ بعد زمن يمر، وسعي يتراكم، وستظل هكذا، ما دام الطريق إلى الفن أطول من حياة.

على الطاولة أمامي، ورقة، علبة كبريت، منفضة، ولفافة تبغ، الأشياء أمامي أربعة، وعليَّ أن ألعب، للأشياء الأربعة نظامها المعروف المألوف، تنسى الورقة، تشعل اللفافة المتقدة في المنفضة، هكذا نفعل كل اليوم، لكن عليَّ أن ألعب، أن أغير النظام المعروف المألوف، أن تكون قصيدتي مخالفة، مختلفة، وفي الوقت نفسه، عليَّ أن أحتفظ بمفاتيح لي وللقارئ، مفاتيحي هي الأشياء، هكذا سأخرج اللفافة من علبتها، وأشعلها بعود كبريت، لكنني لن أضعها وهي متقدة في المنفضة، سأدخل الورقة في المشهد، أضع اللفافة المتقدة على الورقة، وأترك الأشياء تتفاعل، خارج السياق المألوف، أتركها تتفاعل في كيمياء الشعر.

السابع من كانون الثاني ١٩٩٢.

صباح باريسي آخر، مطر، وسماء رصاص، الساعة الثامنة والنصف، والعتمة لا تزال شاملة، النوافذ وحدها تضيء الصباح البهيم، في هذه الضاحية العمالية حيث أُقيم، هدير سيارات وحافلات يخترق الزجاج المزدوج، الناس يمضون إلى معاملهم ومصالحهم،

بينما أوراقي التي تنتظر لا تزال بيضاً.

لِـمَ أنا في باريس؟ لِـمَ أنا هنا وهناك، هناك وهنا، في هجرات بدأت منذ خمسة وثلاثين عاماً؟

موسكو ـ دمشق ـ الكويت ـ بيروت ـ الجزائر ـ دمشق ـ بيروت ـ قبرص ـ بيروت ـ دمشق ـ عدن ـ قبرص ـ بلجراد ـ تونس ـ وأخيراً: باريس.

ماذا أفعل في باريس؟

ماذا أفعل في أرضٍ غير عربية؟

يتضمن المنفى فكرة الإلغاء، إلغاء علاقة الفرد بالسماء والأرض والمجتمع، ثمة خط عمودي يصل بين السماء حيث المعبود والأرض حيث الأسلاف في هدأة الموت الطويلة.

وثمة خط أُفقي ينتظم القرية أو البلدة، حيث المنازل والذكرى وملاعب الطفولة.

وفي نقطة تقاطع الخطين يقف الفرد.

هول المنفى هو في اقتلاع الفرد من نقطة التقاطع هذه، وازدراعه، في بقعة أخرى لن تكون نقطة التقاطع فيها، فلا السماء أولى، ولا الأسلاف أسلاف، ولا منازل وذكرى وملاعب طفولة.

ماذا يتبقى، إذن؟

الشظف وحده، الكد، والعناء، بغية الحفاظ على التكوين الأول، على السلالة المهددة بالانقراض، على الجذر الذي يجفّ.

لكن شروط العملية الفنية تجعل من هذا الحفاظ مهمة بالغة الصعوبة، فكلما تقدم المرء في طريق الفن خطوة زاد احتياجه إلى جذور أكثر غوراً، أكثر غوراً في نقطة التقاطع تلك، لا في تراب المنفى.

أفكر بالأرض العربية، بأهلها الجميلين، ولغتها الأجمل، أفكر بحضاراتها وثرواتها، وأفكر في الوقت عينه بالحال الذي نحن فيه، بالزمن المغلق الذي أطبق علينا، وأقول: لسنا الوحيدين بين الأُمم في معاناة الزمن المغلق، أُمم عديدة، سوانا، مرت وتمر بأزمنة مغلقة، ولقد خرجت منها، وتخرج، لأنها احتفظت بالجمرة، كابية أو لاهبة، وما هذه الجمرة إلاّ الجوهر، إلاّ الثقافة المخالفة، القادرة وحدها على أن تغذو كل جيل يجد، بمبرر تسميته جديداً.

ترى، ماذا كنا فاعلين بلا طه حسين؟ إن رايته لَتَقْدُمنا في الزمن الأعمى؟

باريس ـ ١٩٩٢

الساعة الأخيرة

(١٩٧٧)

الحالم

في زاويةٍ،
تحلُمُ . .
ينفضُّ الهتّافونْ
عنكَ،
وينهشك البيروقراطيون السفلةْ.
لكنّ عليَّ بنَ محمّدْ
بكتائبه الزنجيةِ
ينهضُ بين العِرق وبين العرقِ
قرنفلةً مشتعلةْ.

١٩٧٦/٩/١٦

استقصاء

بيتُ مَن في الجناح المداهَم بالريحِ؟
في الورق المتساقط عن سروةٍ؟
في ثياب البنات التي بدأتْ تتقاصرُ؟
في منزل السهرورديّ؟
في نظرة الحيوان الجريحْ؟
بيتُ مَن في ضلوع الصبيّ المشاكسْ؟
بيتُ مَن في يدي؟

*

إنَّه اليانسونُ الطريّ
أرضُنا القرويةُ، أسنانُ أطفالنا
والذهولُ البهيّ.
أيَّ جذرٍ سنقضمُ؟
والموتُ واليانسون الطريّ
قريةٌ للطفولةِ
أو جرعةٌ للذهولْ.
يا لهَذا الفتى. . .
هل رأى اليوم أيضاً

كيف نحزم أشياءنا ثم نرحلُ؟
أين التقينا بهذا الفتى؟
أيَّ ماءٍ سقانا . . .
أيَّ خبزٍ أكلنا معاً . . .
أيُّ عشب يعلّمنا كيف نحزم أشياءنا ثم نرحلُ؟
من أين هذا الفتى؟

*

في المياه التي لا تمسُّ التويجاتِ
سافرتُ عشرين عاماً
كنتُ أرقبُ ما يصلُ الريشَ بالقلبِ
والطيرَ باللؤلؤةْ
غير أن المياه التي كنتُ سافرتُ فيها
غادرتْ
والتويجاتِ
والريشَ
والقلبَ
والطيرَ
واللؤلؤةْ

*

للهدوء المبارك هذي الخطى الملكيةُ
والشرفةُ العاليةْ
حيث أبصر في نبضات الحديقةْ

دورةَ النملِ
أو ذرّةَ الجلّنارْ
غير أني إذا ما تولّى النهارْ
أرتقي بالنعاس الذي لا يفاجئُ
أو بالنعاس الذي أنتقي ـ
شرفةً عاليةْ.

❋

عبثاً يستريح المحاربْ

١٩٧٦/٩/٨

الساعة الأخيرة

فلسطينية كانت

تبدو المنائرُ غير ما أَلِفَ الهواءُ:
أهلّةٌ في الأرض أنشبتِ النهاياتِ الدقيقةَ. . .
والسلالمُ. . . دربُها الحلزونُ يحمل رجفةَ الأصواتِ
نحو القاع، منكفئاً. . .
وأيُّ مؤذنٍ بالاختباء، يقولُ:
أرملةٌ حمامةُ غارنا المنسيّ
أرملُ هجسُنا
والعشبُ في الطرقات أرملُ. . .
أيها الساعون كالحيّات، جاءت ساعة الصلواتِ
فاختبئوا. . .
وفي سجداتنا اختبئوا
وتحت نجوم من قادوكم اختبئوا
وفي الصحف التي سطرتم اختبئوا
وفي الكتب / المقاهي / المشرب / المبغى /
ألاعيبِ السياسة / سقطةِ الشعراء / نادي
النخبةِ / البترولِ / أردافِ النساءِ /
وشقّةِ اللواطيِّ / قاعاتِ الفنادق / موعدِ الحزبيِّ /

مدرسةِ التجسسِ / غرفةِ الإعدامِ /
في كلِّ الذي أحببتمُ. . .
اختبئوا. . .
لئلا تبصروا وجه التي اغتُصبتْ
وقُطّع جسمها قِطعا
وفُرِّق ـ وهو يقطر ـ مالئاً عشرين مقبرةً. . .
وآلافاً من الثكناتِ
مرفوعاً على الأرماح حين يُدرَّب الفرسانُ
مرفوعاً على راياتنا العشرينَ
مرفوعاً على الألواح قربَ مدارسِ الطيرانِ
منقوشاً بكل رصاصة قتلت فتى منّا
وكلِّ حجارةٍ، في كل دارٍ حُوّلت سجنا
أقولُ:
لأجلها اختبئوا
وخوفَ بهائها اختبئوا
وخوفَ مَعادها اختبئوا
فلسطينيةً كانت
وصارت لعبةً دوّارةً في ساحة العشرين.

تل الزعتر

تُحشرج طفلةٌ في المخبأ ـ الخيمةْ
وتأكلُ ثديَها. . .
وتُقاسمُ الأمّةْ.

تلفزيون

يتحدثُ عن تل الزعترْ
ويغنّي للفتياتِ الشبقاتْ
وللغلمان بحانات النهرْ.

مجنّد

لم يُؤسرْ في حربٍ طبقيةْ
أو حربٍ أخرى
لكن جُزّتْ ناصيتُهْ.

دولة

مُذ سمعتْ آخرَ صوتٍ في تل الزعترْ
دخلتْ في مصرفها
دخلتْ... لكن لم تخرجْ حتى الآنْ.

المدينة

يسقطُ تلُّ الزعترْ
في جرعات العرق الثلجيّ
وينهض تل الزعترْ
في الشبقِ الباحث عن شقّة عاهرةٍ
في آخرة الليلْ.

أشخاص

بدلاً من رايات الثورةْ
رفعوا راياتِ ذكورتهمْ.

رقيم بابليّ

تحت الأسوار ولدْنا
وعلى الأسوار نموتْ.
لم نعرف في بابل
غيرَ القتل لأجل القوتْ.

الأسئلة

للقادمِ من تل الزعترِ منخوباً بالزخّاتْ
للمتلثّمِ في الليل العربيّ... ضمادَ الأمواتْ
للقادمِ من نهر البارِدْ
والقادمِ من أيلول العام السادس والسبعينْ
للمتقدم قائمةَ القتلى
للناشر ألبسةَ الأطفالِ المذبوحينْ
للباحث عن عذراءِ فلسطينْ
للصوت الصارخِ في البرّيةْ
للمُطعم غدّارتَهُ لحمَ ذراعيهِ:
نقدم هذا الحَمَأَ المسنونَ
نقدم بلداناً عارية إلا من بدلات جاهزةٍ
ونشيداً للمنتصرينَ على أطفالِ اللّه
وناعوراً من دمِ هذا الشعبِ
وقنبلةً للأسماكِ
ورايات تتغير كلَّ ثلاثِ سنينْ...

عمَّ يُسائلنا هذا الصوتُ الصارخ في البرّيةْ؟
عمَّ يُسائلنا القادمُ من تل الزعترْ؟
والقادمُ من نهر الباردْ؟
والقادمُ من أيلولْ؟
عمَّ يُسائلُنا الصوتُ الباحثُ عن عذراءِ فلسطينْ؟
أوَلم نعرفْ بعضاً؟
أوَلم نولم لطيور الاردن لحومَ «الوحداتِ»
وأطفالَ الزرقاءْ؟
أوَلم نأكلْ فوق جسومِ القتلى خبزهمو مرشوشاً بالماءْ؟
أوَلم نجلسْ في قاعةِ مشرحةٍ حول فلسطينْ؟
أوَما مزّقْنا جثتَها . . . مِزَقا
لنسلّمها، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
أوَلم نعرفْ بعضاً؟
حسناً . . .
وإذنْ . . .
عمَّ يُسائلْنا هذا الصوتُ الصارخ في البرّيةْ؟
عمَّ يُسائلنا القادمُ من تلّ الزعترْ؟
عمَّ يُسائلُنا الصوتُ الباحثُ عن عذراءِ فلسطينْ؟

هاجس

لكأنني ألقى الحقيقةَ في يديَّ.. بسيطةً كالعشبِ:
أمتُنا تشيخُ. وبين مكاتبِ الحكّامِ والعقداءِ
تفقدُ آخرَ أرضِها: القبرَ المهيأ. أمةً بُعثتْ
ولكنْ منذ آلافِ السنين. وما الذي يأتي؟
الشرارةُ قد تجيءُ. وليس بعد الموت من موتٍ.
وأخرُ أرضنا: القبرُ المهيأُ كان عند التلِّ...
والحكّامُ والعقداءُ ينتظرون ساعتَها الأخيرةْ

١٩٧٦/٨/٢٠

الجيكولو العجوز

تتعثر كسرةُ خبزٍ في فمه الأدردْ
عُودُ الثقّاب يغور بكهفٍ في اللثّةِ. . .
ما أوحشَ هذي الليلةَ
ما أوحشَ هذا الكرسيَ
وما أوحشَ رائحةَ الأخشابِ وقد نخرتْها الأرَضةْ.
لم يبقَ من البيت سوى غرفتهِ
لم يبقَ من الشعر المسترسل غيرُ تراب القطنِ
ومن سُرُرِ الماضي غيرُ سريرِ حديدٍ وملاءاتٍ صوفْ
لم يبقَ من الجيكولو غيرُ الخد المنتوفْ
ونظرتهِ الذئبيةْ
أحياناً ينظر من غرفتهِ
فيرى الكالبتوسةَ في الشارعْ. . .
كم كانتْ خضراءَ
وكم كانت ناعمةً
كم كانت باردةَ الأغصانْ. . .
لكنَّ الأعوامَ الخمسينْ
جعلتْها خشباً أبرصَ مهجوراً

خشباً منخورا
ما أوحشَ هذي الليلةَ . .
تمتدّ يدُ الجيكولو .
يختلط الماءُ ورائحةُ العرقِ المغشوشِ
ورائحةُ الكالبتوسةِ
والشيبِ
وخبزُ الجيكولو .

١٩٧٦/٩/٩

البستاني

منذ أن كان طفلاً تعلّمَ سرَّ المطرْ
وعلاماتِهِ:
الغيمُ يهبط في راحةِ الكفِّ
والأرض تقنطّ
والنملُ كيف يخطّطُ أرضَ الحديقةِ...
والجذرُ يهتز في سرهِ...
والشجرْ.

....

منذُ أن كان طفلاً، تعلّمَ أن المطرْ
حين يأتي رذاذاً...
فلا برقَ في آخرِ الأفقِ
لا رعدَ في القلبِ... لا موجةٌ في نَهِرْ

....

غير أنكَ تعلمُ أن الحياةَ التي اتسعتْ
كالعباءةِ في الريحِ
سوفَ تسوقُ المطرْ
ليلةً، هائجاً كالجواميسِ...

لا يتحدث مع فلسطينَ إلا نائماً
وأحيانا، يسير إليها بلا نجمْ
الأصدقاءُ الذين أحبَّهمْ يفتحون له
الأبواب
من القنيطرةِ إلى القنطرةْ
إنه لا يحبّ البرتقالَ،
لكنه يحبّ أشجارَهْ.

في «سِيدي بلعباس» مقبرةٌ بيضاءْ
وفي الأعياد ترتدي الأبيضَ
والأخضرْ:
عباءاتِ النساءِ
والصنوبرْ.
كثيراً ما فكّرَ أنه سَيُدفَنُ فيها.

أيَّ قصيدة يكتب؟
الهواءُ مختومٌ في زجاجة
واللسانُ خشبةٌ جفّفَها الكحول.

سوفَ يجيءُ المطرْ
ولا برقَ في آخرِ الأُفُقِ
لا رعدَ في القلبِ. . .
لا موجةٌ في النَهَرْ.
. . . .

هكذا نتعلّمُ
أو نتكلْمُ

أو ننتمي للشجرْ

١٧/ ٤/ ١٩٧٦

تنويع على ثلاثة أبيات

بين منزله في «المعرة» والسوق، دربٌ يظلله شَجَرٌ مُترِبٌ
وشناشيلُ بيضاءُ ـ بُنّيةٌ، كلُّ بابٍ رَتاجٌ، وكلُّ الكُوى
تستدقُّ نهاياتُها مغلقاتٍ عن النورِ. كلبٌ وحيدٌ،
تكادُ الرطوبةُ أن ترتمي حَجَراً في الرئاتِ،
الظهيرةُ واقفةٌ. يُعْوِلُ الكلبُ. يهدأُ. من غُصُنٍ
سقطتْ وَرْقَةٌ كالحجرْ.
أرى الأشياءَ ليس لها ثباتُ وما أجسادُنا إلاّ نباتُ
يتحسسُ «أحمدُ» عينيهِ، قد كانتا منذ لا يتذكّر بئرينِ
مطويّتينِ جدارينِ في محبسٍ. كم تحسَّسَها منذُ لا يتذكرُ. . .
بل كم تراءى له أنه سائرٌ في الظلامِ: الرواحلُ تسرعُ
بين النجوم العريضةِ، والرملُ تحت المناسمِ كان المجرّةَ،
تلك الأسودُ البعيدةُ تزأرُ، والسيفُ في غِمدهِ سالَ. . .
من آخرِ الشرقِ يخطفُ عينيه برقٌ. . .
هَلا. . . لا. . . ا. . . ا. . . ا. . .
أيامَ آملُ أن أمسَّ الفرقدينِ براحتيْا
أمسِ، في سجدةٍ للتأملِ، أرهقَهُ هاجسٌ: هَبْ عروقَ الدمِ
المتجلدِ عادت عروقاً من النور في حفرتين بوجهكَ. . . هَبْ

كلَّ هذا الظلامِ استحالَ ضياءً. . تُرى كيف تصنعُ؟ كيفَ تُعيدُ القراءةَ؟ هل يستوي النظرُ المحضُ والبصرُ المحضُ؟ بَرْدٌ من الأرضِ. . . بردٌ تغلغلَ في جبهةِ المتأملِ. «أحمدُ» في
سجدةٍ للتأملْ

تـــمـــنـــيـــتُ أنـــي بـــيـــن روضٍ ومـــنـــهـــلٍ
مـع الـوحـشِ، لا مِـصـراً أحـلُّ ولا كَـفْـرا

للبلاد التي قتلتْ ملكاً، ثم نامتْ، يسافر «أحمدُ»، منزلُهُ
في «المعرة» غادرهُ آخرُ المشترينَ، وها هو «أحمدُ»
في الدربِ. كلُّ الكُوى مغلقاتٌ، وكلبٌ وحيدٌ يرافقه، والغصونُ
التي مُسِختْ حَجَراً تتساقطُ أوراقُها. . .
البرقُ يُقبلُ من آخرِ الشرقِ. . .
«أحمدُ» لم يلتفتْ. . .
والبلادُ التي قتلتْ ملكاً، ثم نامتْ. . . بعيدةْ

١٩٧٦/٥/٢

ملابس

فكّرتُ يوماً بالملابسِ. . .
قلتُ: إني مثل كل الناسِ، ذو عينينِ
أُبصرُ فيهما شيئاً
وأخطئ فيهما شيئاً
ولكنْ، مثل كلِّ الناسِ، لستُ أريدُ أربعَ أعينٍ
عيناي كافيتان لي.
بل. . . ربما أبصرتُ عن شخصٍ ينام الآنَ
أو يخشى انفتاحةَ مقلتيهِ. . .
أقولُ:
قد فكّرتُ يوماً بالملابسِ
إذ تكونُ جديدةً يوماً
وإذْ تتجددُ الألوانُ بالأصباغِ يوماً. . .
ثم تبهتُ
ثم تنسلُّ الخيوطُ. . .
غريبةٌ هذي الملابسُ. . .
زهرةُ الصبّيرِ؟
حتى زهرةُ الصبّيرِ تملكُ زهوةَ الموتِ الأخيرةَ. . .

بذرةُ الرمّانِ إذ نلقي بها للأرضِ؟
تنبتُ بذرةُ الرمانِ. . .
ماءُ النهرِ حين يعود مُنْسرَباً؟
نواةُ التمرِ؟
أعشابُ الحدائقِ؟
للملابس أن تكون وريقةً في الريحِ
طائرةً قليلاً
ثم ملقاةً. . .
أفكّرُ:
نبعةُ الريحان تملك سرَّ نبعتها
وماءُ النهر يملك دورةَ الأشياءِ
والفقراءُ يمتلكون أن يضعوا الضمائرَ في ملابسهم
ويبقى كيف نختارُ
البذورَ أو الملابسْ؟

١٩٧٦/٤/٢٧

روبرتو

قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنُّ، يرن، يرنُ. . .
امرأةٌ تنتظرُ. انتبه المارونَ. . .
انتبهَ النارنجُ
وقيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرن، يرنُ. . .
وتنتظرُ امرأةٌ في الحانةْ.
كانت الحانةُ غريبةً عن حاناتِ «تورّيه مولينوس»، التي
تبعدُ قليلاً عن مدينةِ «مالقا»، إنها في الواقع دكانٌ صغيرٌ
ذو دكّتين طويلتين واربعةِ كراسيّ، دكانٌ تدخله بعد أن
تصعدَ درجاتٍ أربعاً من الشارعِ. أحدُ الكراسيّ الأربعةِ لعازفِ القيثار.
عَبْرَ الكوّةِ تنتصبُ امرأةٌ بملابسَ سوداءَ
نعدُّ زجاجاتِ البيرةِ، واحدةً، واحدةً
تمسّدُ شعراً أبيضْ.
عَبْرَ الكوّةِ تمتدُّ يدٌ معروفةْ
عبر الكوة تمتدُّ امرأةٌ بملابسَ سوداءَ
وأكمام مشقوقةْ
هذه اللّيلةَ، دخلتُ الحانةَ الغريبةَ، كما لو أنني أدخلُ بيتي.

ففي ضحى أمسِ، شربتُ القهوةَ مع عازفِ القيثارِ في مقهى
المحلّةِ. النسوةُ المتّشحاتُ بالسواد يبعن الخبزَ
وأوراقَ اليانصيبِ والدانتيلَ اليدويَّ. أيُّ نسوةٍ هؤلاء. . .
يا روبرتو؟
ـ أراملُ الحربِ الأهلية.
أمي. . . . . . .
أمي تسأل في الحانةْ
أمي تسهر في الحانةْ
قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةْ
كلَّ ليلةٍ. . . وقبلَ أن تُغمضَ السيدةُ عينيها المجهدتين. . .
يدخل فتىً مثل روبرتو. نشرب نحن الثلاثةُ، ثلاثْ
زجاجاتٍ أخيرةٍ، من بيرة النارنجاتِ الثلاثِ، ومن بينِ أناملِ
روبرتو. . تَدْرُجُ الأغنيةُ. . . هادئةً أولاً، لكنها
تحملُ كلَّ الغضبِ المختزَنِ في ثلاثِ لغات.
قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرنّ، يرنُ. . .
امرأةٌ تنتظرُ. انتبهَ المارونَ. . .
انتبهَ النارنجُ
وقيثارٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرنُ، يرنُ
يرنّ، يرنُ
يرنّ

١٩٧٦/٤/٢١

كيف كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة؟

مرتْ عليه سبعةُ أيامٍ، وهو لا يكتبُ. كان يقرأُ حتى توجعه عيناهُ. يتمشى ظهراً في الحديقةِ.

وليلاً. . . يتمشى على رمالِ وهرانَ البحريةِ.

قالت له صديقتهُ: إنك لم تنمْ منذ ستةِ أيامٍ.

قال لها: لم يبقَ من الأصدقاءِ غيرُكِ.

إنه ـ على أيّ حالٍ ـ شخصٌ غيرُ متزنٍ، وإن بدا شديدَ الهدوءِ. ولأنه غيرُ متزنٍ، ولأنه مشتتُ الذهنِ، ولأنه لم ينم منذ ستةِ أيام. . . لم يستطع أن يكتبَ قصيدةً. إلا أنه دوّن هذه الملحوظات، خَشيةَ أن ينساها:

ملحوظات*

❋ لا تقلبْ سترتَكَ الأولى حتى لو بَلِيَتْ.
❋ فَلْتبحثْ بين ترابِ الوطنِ الغالبِ عن خاتمكَ المغلوبْ
❋ لا تسكنْ في كلماتِ المنفى حين يضيقُ البيتْ.
❋ لا تأكلْ لحمَ عدوّ.
❋ لا تشربْ ماءَ جبينْ.
❋ لا تنهشْ راحةَ مَن يُطعمكَ الأزهارْ.
❋ للضيفِ الدارُ، ولكنْ ليس له أهلُ الدارْ.
❋ مَنْ يسأل يُعْطَ... سوى الحبّ.
❋ في الشيخوخةِ قد يبدو الشعرُ الأبيضُ أسودْ.
❋ يبتدئُ الخائنُ بالمرأةْ.

حسناً. ها هوذا الأخضرُ بنُ يوسفَ أمامَ مَهَمَّةٍ أكثرَ تعقيداً مما كان يظنُّ. صحيحٌ أنه حينَ يكتبُ القصيدةَ يفكر قليلاً بمصيرها... إلاّ أنَّ الكتابةَ تصبحُ يسيرةً عندما يستطيعُ التركيزَ على شيءٍ، لحظةٍ، رجفةٍ، ورقةِ عشبٍ...

أما الآن فهو أمامَ وصايا عشرٍ. لا يدري أيَّها يختار...

والأهمُّ من هذا كلهِ: كيف يبتدئُ؟

النهاياتُ مفتوحةٌ دائماً، والبداياتُ مغلقةٌ.

لا تسكن في كلمات المنفى حين يضيق البيت

تتدافعُ الأمواجُ بين يديهِ. . .
يُمسكُ، بغتةً. حَجَراً، ويبرؤُهُ محارةْ
ويظلُّ ينصتُ:
هَبّةٌ للريح ثابتةٌ، تهبُّ، تهبُّ. . . ثابتةً
سيدخلُ في العناصرِ
كلُّ ما في البحرِ يُصبحُ موجةً كُبرى
وما في الأرضِ يُصبحُ موجةً كبرى
ويدخلُ في العناصرِ
قبضةً مشدودةً
حَجَراً
ووجهاً ناتئ القسماتِ. . .
ها هو في شوارعه الأليفةِ، ماثلٌ
خُطواتُهُ عَجلى
وفي يده محارةْ.

أهيَ أنفاسُكَ أكثرُ هدوءاً؟ ربما شعرتَ بأنكَ لا تزال قادراً على الكتابةِ. كثيراً ما أحسستَ، حتى منذ عشرينَ عاماً، بحالةِ الخطرِ، وأنتَ تبتدئُ القصيدةَ.

لكنكَ حين تُتمُّ المقطعَ الأولَ تجدُ في نفسِكَ قوةً لا تعلم مصدرَها. . . مثلَ نبع خفيَّ التدفقِ. الهديرُ المكتومُ وحدَهُ.
أنتَ، إذنْ، تعتقد، أيها الأخضرُ بنُ يوسفَ، بأنكَ ما زلتَ تنتسبُ إلى الفئةِ الضالةِ؟

لا تقلب سترتك الأولى حتى لو بليت

في الدكانْ
ألبسةٌ مستعملةٌ. . .
وفتاةٌ تدخل في الدكانْ
ناحلةً كانتْ
عيناها تتسعانْ
كما تتسعُ التنّورةُ في الريحِ
وتتسعانْ
كي تريا سترةَ عاشِقها المقلوبةْ
سترتَهُ الحمراءَ ـ السوداءَ
وازرارَ الصدرِ المثقوبةْ.

لقد استخدمَ وزناً جديداً، أو اللاوزنَ. الأمرُ لا يهمُّ كثيراً. وعندما يبتعد الأخضرُ بنُ يوسفَ عن الأرضِ يفقدُ قواهُ. هكذا يظلُّ جناحُهُ مشدوداً بخيطٍ سائبٍ. . . خيطٍ يمسحُ وجهَ الأرضِ.

فلتبحث بين تراب الوطن الغالب
عن خاتمك المغلوب

لا غالبَ في آخرةِ الليلِ ولا مغلوبْ
الكلُّ يُغالبُ عثرتَهُ
والكلُّ يُعاتبُ سكرتَهُ
والكلُّ يسيرُ إلى مسلخِهِ، أحمقَ كاليعسوبْ
فلتبحثْ بين ترابِ الوطنِ الغالبِ عن خاتمكَ المغلوبْ
فلعلَّ النجمَ الضائعَ
تلقاهْ
ولعلكَ إذ تلقاهْ
تُطْلقهُ في آخرةِ الليلْ.

أخيراً، تذكرَ المتنبي... وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتمه. في الدنيا صاغةٌ، وفيها فنانونَ. البِساطُ الجزائريُّ يتوازى فيه الأسودُ والأحمرُ، وما بينهما رمادٌ.

والأصفرُ... لماذا؟ أصفرُ... jaune, jaune آرثر رامبو أو تريستان تزارا؟ ما أقربَ الأصفرَ إلى الأخضرِ. البحرُ وحدَهُ. كان كامو يحبُّ إصفرارَ القمحِ في الحقولِ القبائليةِ المطلةِ على البحرِ في «تيبازا».

تيبازا، آهِ... تيبازا...

في الشيخوخة قد يبدو الشعر الأبيض أسود

شيخٌ في الخمسينْ
يقبعُ في غرفتهِ، يحترفُ الكِذْبةَ والتدخينْ.
مَن يُرجعُ للأدردِ أسنانَ صباهْ
مَن يُرجع للرأسِ الأشيبِ شعرَ فتاهْ؟
مَن يملأُ هذا الرأسَ الفارغْ؟
لكنْ. . .
في الشيخوخةِ، قد يبدو الشَعرُ الأبيضُ أسودْ
قد تبدو الكِذْبةُ، قولةَ حقّ
وسحابُ التدخينِ. . . سماءً تمطرُ
قد تَنبتُ في لثتهِ الدرداءِ نُيوبُ الطينْ
لكنْ. . .
في الشيخوخةِ أيضاً. . .
يسقط شيخٌ في الخمسينْ
في غرفته ميْتاً. . .
ثَوباه: الكِذْبةُ والتدخينْ.
الأخضرُ بنُ يوسفَ، ما زال غيرَ متزنٍ. . . ما زالَ مشتتَ الذهنِ،
لأنه:

١ ـ لم يَنَمْ منذ ستةِ أيامٍ.
٢ ـ لم يستطع أن يكتبَ قصيدةً.
٣ ـ لم يترددْ في نشرِ ما كتبَ.

١٩٧٦/٦/١٩

الأوراق

الورقهْ
في السطحِ، تمرّ بها الريحُ.
الورقهْ
في السطح الصيفيّ تلوذُ بظلِّ الحائطِ. . .
والورقهْ
ـ كيسُ التغليفِ المفتوحُ ـ
اتحفظُ اسمَ الورقهْ
وهي على السطحِ تمرّ بها الريحُ؟
أتبقى ورقهْ
بين الحائطِ والظلِّ وصمتِ الورقهْ؟
طفلٌ خارجَ أسوارِ البيتِ
وحيطانِ السطحِ
تُطاردُ عيناه الورقهْ
إذ تهبطُ نحو ترابِ الدربِ. . .
فتلتصقُ الورقهْ
بالأرضِ. . .
وتنطبقُ الورقهْ

كالزهرةِ، أو كالحَدَقهْ.
الطفلُ الآتي بالقصبهْ
والخيطِ
سيصنع من هذي الورقهْ
طائرةً...
أعلى من أسوارِ البيتِ
ومن سطحِ الصيفِ...
وأطولَ من ظِلِّ الحائطِ.
يُطلقها أبعدَ من نظرتهِ القلقهْ.

١٩٧٦/٦/٥

قصيدة حب

أعرفُ، إذ أنظرُ في عينيك، مسافةَ ما بين السافلِ والنجمةِ
أعرفُ أن خطىً واحدةً قد تغرقُ
لكن لا تتفرقُ. . .
أعرفُ أن ذراعاً أتوسدها تُحكم إغلاقَ مدينتنا
حين يدورُ السافلُ، أشيبَ، تحت الأسوارِ
وأعرفُ انكِ حينَ نثرتِ رصاصاتي اخترتِ
المسمومةَ منها. . .
أعرفُ أن عدوّي قتلتهْ امرأةٌ. . .
أنَّ الكلبَ الأدردَ لا ينهشُ، حين يجوعُ، سوى ذيلهْ.
سيدةً ستظلينَ
وناصعةً ستظلينَ
وساخنةً بين ذراعيَّ تظلينَ. . .
أحبّكِ. . .
يكفي أن تمتدَّ أصابعُنا، كي نمسكَ بالحقِ
ويكفي أن نتنفسَ، كي نتفرّسَ في الأفقِ المفتوحِ
ويكفي أن نضفرَ غصناً، كي يتجرجرَ كلبٌ أدردُ. . .

يكفينا أنَّا حينَ نكونُ معاً
ينطمرُ السافلُ، أشيبَ، تحت الأسوارْ.

١٩٧٦/٧/١٩

من أين تأتي القصيدة؟

فَجأةً، تُصبح القصائدُ أحجاراً. . . هو الصحوُ
في زمان التردي / الارتداد / الدريئةِ /
الأملِ المهصورِ. . .
من أطلقَ النسورَ على لحمِ الفتاةِ الوديعةِ؟
انتبهَ الحلاجُ. . .
بيتٌ على الذرى كان مسكوناً بأشباحنا
زماناً طويلاً.
واتّركناهُ، مسرعين إلى السوقِ
اشتَرينا شقائقاً
واشتُرينا ذمّةً
مَن يبيعُ ديناً بدُنيا؟
ربما كان للتعاملِ وجهاهُ، ولكننا رضِينا
بأن نُخدعَ. . .
حُبّاً لكلِ مَن كان في السوقِ؟
غباءً؟
ترفُّعاً؟
هل سمعنا للمعريّ؟

بيتُنا واتّركناهُ. . .
وأحجارُه العزيزةُ؟
هل ننقلُ أحجارَه العزيزةَ شِلواً بعد شلوٍ
لنبتني في ليالي السرِّ. . . . في القهرِ
صورةً؟
سورةً؟
أرضاً؟
بلاداً؟
هي الحقيقةُ أحجارٌ
ولكنْ. . . من أين تأتي القصيدةْ؟

١٩٧٦/٩/٢٠

السياج

بيتُه، كان منكشفاً لغبار الشوارعِ
كانت حديقتُه ـ وهي مزهوّةٌ بالقرنفلِ أحمرَ ـ
مفتوحةً للكلابِ
وللحشراتِ الغريبةِ. . .
مفتوحةً للسنانيرِ ذاتِ المخالبِ،
كانت زهورْ القرنفلِ إذ تتفتّحُ يومينِ ـ
مائدةً للكلابِ
وللحشراتِ الغريبةِ
مائدةً للسنانيرِ ذاتِ المخالبِ. . . .
كان غبارُ الشوارعِ يقتحمُ الورق الغضَّ:
مِلحٌ على الزهرِ
مِلحٌ على الشَعرِ
مِلحٌ على قمرٍ يستدير بأثوابهِ
. . . .
. . . .
. . . .

ذاتَ يومٍ تذكّرَ كيفَ بنى جدُّهُ
المنزلَ العائليّ.

١٩٧٦/٩/٢١

لازمة

مِن الصعب أن ينتهيْ. . . .
كلُّ ما علّمْتهُ الطفولةُ مستوَرٌ في أصابعهِ:
شجرُ الراحلين
انحناءُ الكتابةِ بالفارسيّ
السفينةُ مائلةٌ في الخليجِ الصغير

❋

من الصعبِ أن ينتهيْ. . .
في بلادٍ تُديرُ تواريخَها حولَ أعوادِها
أيُّ شيءٍ سيبدأُ
أيُّ امرئٍ ينتهيْ؟

❋

من الصعبِ أن ينتهيْ. . .
كتلةٌ من زجاجٍ يُعالجها في كوابيسهِ
كتلةٌ من زجاجِ السفينةْ
كتلةٌ من زجاجِ النوافذْ
كتلةٌ من زجاجِ المصابيحِ
أو كتلةٌ من زجاجِ النبيذْ. . .

زجاجُ السُّمومِ المظللُ في آخرِ الصيدليةِ
هذا الزجاجُ ـ الكوابيسُ
هذا الزجاجُ الذي ظلَّ منذ الطفولةِ ينمو على رملةٍ /
يتكوّر / يشتدّ / يقتاتُ سرَّ الصبي / ارتعاشاتهِ
في البلوغِ المبكّرِ / أسفارَه / خطوَهُ المتوجسَ /
أوهامَهُ في الوصولْ. . .

*

من الصعبِ أن ينتهيْ.

١٩٧٦/١٠/٣

ليلية

«١»

في شارع ضاعتْ ملامحهُ، ستخمدُ آخرُ الشعلِ الصغيرةِ، تُغْلَقُ الأبوابُ سرّاً بالسلاسلِ، أيُّ نجمٍ في السماءِ يغيبُ دوماً؟ أيُّ أغنيةٍ نكتّمها؟

الشموعُ تُقطّر البستانَ حيثُ الطفلُ كان يسفّ طينَ النهر. . .

طيري يا حمامةُ. . . برهةً ويغيبُ غصنُكِ، شمعةٌ سقطتْ. تعبتُ من ارتداءِ ملامحيْ. وجهٌ من الصِخريج كان يدورُ. . . يبهتُ شارعٌ ضاعتْ ملامحهُ، ويبهتُ. . . يختفي في غُبرةٍ، ويغيمُ في عينيّ، أرصفُ فوق ذاكرتي حجارَتهُ الهشيمةْ.

«٢»

في قبرهِ، كانتْ مياهُ السيلِ ملحاً ليّناً، كان الصبيُّ يراقبُ الشهُبَ المضيئةَ فرقعاتٍ، نسوةٌ يبكينَ، والطفلُ اليتيمُ يطيرُ في سيارةٍ أولى. لماذا تَذْكُرُ الفيتاتُ اسمَ أبيهِ: يوسفُ. . . يوسفُ؟ انتبهتْ امرأةٌ، وقبَّلَ خدَّها. كانتْ مياهُ السيلِ ملحاً ليّناً، والنخلُ أبيضُ، والصبيُّ يراقبُ الشهبَ المضيئةَ فرقعاتٍ. ساحرُ الفتياتِ عَمُّكَ، كان يُطلقُ من يديهِ الشهبَ، والفتياتُ يصرخْنَ الظهيرةَ باسم يوسفَ. . . قبرُه

الطينيُّ يهبطُ في مياهِ السيلِ، والصرخاتِ، والشهُبِ المضيئةْ.

«٣»

لو كان لي برجٌ لعشتُ به وحيدا
لو كان لي قصرٌ لأسكنتُ الكلابَ به، لتحرسني وحيدا
لو كان لي امرأتان، لاستصفيتُ واحدةً، وعشتُ لها وحيدا
لو مرّةً كانت خطايَ على المياهِ ـ
لسرتُ حتى آخرِ الدنيا وحيدا. . .

١٩٧٦/١٠/٥

الشخص السادس

خمسةُ أشخاصٍ في الغرفةِ كانوا يتحكمونَ إلى شخصٍ سادسْ.

- بدأَ الشخصُ الأولُ لعبتهُ
  فتسلّقَ بالحبلِ
  إلى كرسيٍّ في السقفْ.
- والثاني أخرج كلباً أسودَ
  من جهةِ الصدرِ اليسرى.
- والثالثُ أخرجَ «تأريخَ البشريةِ» من مكتبةِ الغرفهْ
  وتَحاملَ فوق السلّم
  حتى أوصلَ «تأريخَ البشريةِ» فوقَ الرفّ.
- أما الرابعُ فاستلّ عصا مغمدةً
  وتناولَ «تأريخَ البشريةِ»
  يَجْلدهُ ألفا . . .
- لكنْ الخامسَ إذْ جاءتْ نوبتهُ استخفى.
- ضحكَ الشخصُ السادس.
  تَرَكَ الغرفهْ
  أغلقَ بابَ الغرفةِ بالمفتاحْ.
  ثم مشى في طرقاتِ الناسْ.

١٩٧٦/٩/٩

الليالي كلها

(١٩٧٦)

محاولة استبطان

تكونُ المقاهيْ
كما شئتَ، فارغةً، تعلنُ الساعةَ الواحدةْ
كراسيُّها، والهدوءُ على نبضكَ...
الآنَ، ضوءُ الشجيراتِ مِلْكٌ لعينيكَ
مِلْكٌ لعينين لم تبصرا وطناً هادئاً، كالمقاهي
ولم تعبرا غير قنطرةٍ بين قرنينِ فاتا.
فتاةُ النعاسْ
أتتْ... يَقرعُ الشارعَ الحجريَّ جناحا الحمامةِ
دارتْ قليلاً، وحطّتْ...
فتاةُ النعاسْ
تُحاور كرسيَّها، تحت أشجارِ مقهى
فتاةُ النعاسْ.
تُغادرُ كرسيَّها، تحت أشجارِ مقهىْ
تغادرْ.
على النبضِ تمرقُ خشخاشةٌ
والأصابعُ إذ تتهدّلُ... إذ تتلقّى جذورُ الكراسي
مفاصلَها المستدقّةَ ـ

هذي الأصابعُ. . . هل حملتْ للحجرْ
سرَّ نبضكَ؟
هل لجأتْ للحجرْ؟
والبرودةُ. . . أهيَ التي وصلتْ بين عينيكَ والأرضِ؟
أهي التي أوصلتكَ إلى الأرض؟
والنبض؟
خشخاشةٌ. . . أم شجرْ؟
تُرى. . . من يكون السجينَ الذي يلتوي في الأصابعِ. . .
في اللمسةِ الباردةْ؟
ومن جاء، في غفلةٍ، ليصُفَّ الكراسي، ويرصفَ داخلها المائدةْ؟
اجئنا معاً. . . من قلاع السجون القديمةِ
نحمل ازهارَنا
والرصاصَ الذي ظل في دمنا دائراً
واليدَ العامدهْ؟

١٩٧٥/٩/٢٢

قصيدة إلى وائل زعيتر

مرت العجلاتُ بِطاءً على الرملِ
مرت يداكَ على الرملِ
مرت يدايَ على الرملِ
ها نحن نسأل أشجارَنا. . .
أنت تسألُ زيتونةً
وأنا. . . نخلةً:
هل تركْنا على الرملِ غصنا؟
. . . .
مرت العجلاتُ بطاءً على الرملِ. . . .
هل مرت العجلاتُ بطاءً علينا؟
. . . .
. . . .
وجهُكَ المتطامنُ بين الوجوه التي كنتُ أعرفها
والبلادِ التي قد وُلدنا بعيدينَ عنها
أترانا البعيدينَ عنها؟
. . . .
. . . .

مرت العجلاتُ بطاءً على الرملِ. . .
هل مرت العجلاتُ بطاءً عليها؟
تفتح اللاذقيةُ أحجارَها
تتفتّح أحجارُها
للنحاسِ المبلّلِ فيروزةٌ. . .
ليت وجهَكَ إذ يتطامنُ في البحرِ يذكرني
مرةً، إذ مررنا بتاريخنا
بالموانئ مفتوحةً
بالقبائلِ ـ
آويتَني
وترفقتَ بي
وانتظرت وصولي إلى القدس في راحتيك.
. . . .

. . . .
تُرى، حينما تفتح اللاذقية أحجارَها
والنحاسُ المبللُ ينشفُ في النارِ
والبحرُ فيروزةٌ. . .
هل تقولُ: تذكرتُ؟
أيامَ كنا نمر بتاريخنا
بالموانئ مفتوحةً. . .
قل: سمعنا معاً رجفةَ العشبِ
حتى عرفنا البلادَ المقيمةَ في راحتيكَ

بلاداً نُحاورها بالبنادقِ

. . . .

. . . .

لو تهمسُ الآنَ:

إني تذكرتُ أيامَ كنا نمرُّ بتاريخنا. . .

عنباً لفلسطينَ، خبزاً لأطفالها. . . كنتَ

في غرفةٍ بأزقةِ روما،

وفي شرفةٍ بالكتاب الذي كنتَ تقرأُ. . .

أيَّ العذوبة كنتَ

وأيَّ العذابِ. . .

وأيُّ بلادٍ تخيّرتَ حبك فيها؟

. . . .

. . . .

هكذا؟

ألبغدادَ متَّ؟

أللقدس؟

أم للكويت التي كنتَ تكرهُ؟

كم يتطامن وجهُكَ بين الوجوهِ التي كنتُ أعرفُها. . .

مرةً. . . إذ مررنا بتاريخنا

بالموانئ مفتوحةً،

بالقبائل ـ

آويتَني

وترفقتَ بي
وانتظرتُ وصولي إلى القدس في راحتيك. . .
لماذا تراقبني؟
منذ عشرين عاماً تراقبني
نحن كنا صغيرين: نقرأ أشياءَنا،
نتهجّى، فنعرف أسماءَنا. . .
منذ عشرين عاماً تراقبني. . .

١٩٧٥/٥/٢١

ثلاث قصائد عن الأشجار

١ ـ معرفة

أيكونُ للأوراقِ أن تنمو بلا شجرٍ؟
أو أنّ وريقةً تلتمُّ حولَ خطوطها
سريّةً أولى؟
أيكون يوماً، للأنامل أن تُلامسَ قطرةً
في النهر واحدةً، وتسألَها:
أكان ضميرُها بالماء مغسولا؟
أهجستَ في الطرقاتِ
بين البيتِ والمقهى
وبين البارِ والجدرانِ ـ
نبضةَ خطوةٍ أولى؟
كنْ، مرةً، مَن كنتَ:
للأوراق ملتمساً
وللقطرات ملتمساً
وفي الطرقات ملتبساً
وإلاّ فلتكنْ كالجمرِ مبلولا . . .

١٩٧٥/١٠/١٧

٢ ـ أغصان

قرّبتُ غصناً لِصْقَ آخرَ،
ثم قلتُ: أموت بينهما.
وقلتُ: لعلّ غصناً ثالثاً ينمو
فيضفرَ كلَّ أوراقِ الغصونِ شُجيرةً. . .
ولعلَّ. . .
لكنّ الخريفَ يُباعدُ الأغصانَ
والأوراقَ
والموتَ الجميلْ.

١٦/١١/١٩٧٥

٣ ـ الخطوات العجلى

لي سِدرةٌ في بيت جَدِّي
كنتُ قد أنبتُّها من غصن مقبرةٍ. . .
وكنتُ أجيئُها بالماء والأسماكِ
والأملِ ـ الخرافةِ.
هكذا ارتفعتْ، ودارت خُضرةً أولى
وملتجَأً نلوذُ بهِ
ويأكلُ منه حتى الطيرُ. . .
يا شجرَ الطفولةِ
أيها الأملُ ـ الخرافةُ

أيها الشجرُ الذي حين اجتمعنا عندهُ
بعدَ الطفولةِ ـ
مزَّقت خطواتُنا العجِلاتُ مشتبَكَ الجذورْ

١٩٧٥/١١/١٦

خطوات

اكتفي من مرايا الحدائقِ بالمرأةِ الناحلهْ
والغليلِ الذي كان عندي
والقليلِ الذي صار عندي
والحوارِ الذي يتجانسُ في امرأةٍ ناحلهْ
كم رأيتكِ خلفَ الزجاجِ، وعَبْرَ الزجاجةِ. . .
كادتْ يدي تتحول باباً ويُفتَحُ، سيارةً وبطاقةَ
ملهىً صغيرٍ بأعلى العمارةِ، أو أسفلَ القبو،
ها أنت هادئةٌ تستكينين للشاي ينحلُّ شَيئاً
فشيئاً. . . ويأتيكِ، يدفأُ فيكِ. . انتظرتُ
ولكن شايكِ ما زال ينحلُّ، يحمرُّ، يَدفأُ فيك.
لم يَعدْ ملمسُ العشبِ مثلَ زهورِ القماشْ
إن في الشجرات القديمةِ رائحةً للحنينْ
ورائحةً لاحتراقٍ دفينْ
إن في الشجراتِ القديمةِ رائحةً للفراشْ
هل أرى وجهكِ اليومَ في ساحة السوقِ؟
إن الكنائسَ إذ تنحني وهي تُعلنُ ساعاتِها
كلَّ رُبعٍ، تناديكِ، والحارسَ التتريّ الذي

ظلَّ يُطلق بوقاتِهِ منذ ألفٍ يناديكِ، هل
أنتِ مثقلةٌ بالصفاتِ التي تجهلينَ؟ انتظرتُكِ
في ساحة الصوقِ، كل اللواتي يجئنَ،
أيُدنينَ لي صورةً منكِ؟ ها أنتِ خلفَ الزجاجِ،
وعبرَ الزجاجةِ، للعُنق المشرئبِّ تهاويلُ
وحشيتي النوادي الغريبهْ.
في النبيذِ الذي تشربينْ
كنتُ استفُّ طعمَكِ، أو أُمْسِكُ الفاختهْ
كنتُ بالنظرة الثابتهْ
أتحصَّنُ، أو أمسحُ الراقصينْ
غادر الراقصونَ الموائدَ، ضوءُ الصباحِ الشفيفُ،
على الشجر المتطاولِ والأعينِ المجهداتِ. الشوارعُ
تمتصُّ إقدامَنا والحديثَ الأخيرَ، تجيئين أنتِ معي؟
بل تجيءُ إلى شقتي. أين معطفكَ؟ البردُ
يمضي بنا مسرعينَ، تلوكينَ كلَّ الحديثِ المشاعِ،
وتنسَينَ أنّا انتهينا، وأنّا بدأنا، وأنّا
نسير إلى شقّةٍ في الضواحي.

١٩٧٥

حجر

كان صخراً، وكلّمتُهُ
حجراً مهملاً، بين بيتي وبابِ السماءِ الأليفهْ
حجراً لم يُلامس يدا
حجراً كان بين الندى والشموسِ الأليفهْ
حجرٌ
للنبيّ الذي كان يلعبُ
أو للصبيّ الذي كان يتعبُ
للنجمِ إذ ينطفي
حجرٌ
والمطارَدِ إذ يختفي
حجرٌ
للبلاد التي كرهتني... حجرْ
أيها المتطامنُ بين الندى والشموسِ الأليفهْ
هل تظل السماءُ الأليفهْ
مثلما جئتَها
حجراً أزرقا
حجراً أزرقَ الشفتينْ
شفةً من حجرْ؟

١٩٧٥

قصيدة مديح إلى مؤرخ مغربي

هكذا نغرقُ،
بين السفن اللائي تراءينَ، ورملِ الأنظمهْ
ربما، في لحظةٍ مستحكمهْ
يولَدُ الضباطُ، أو يهجرنا نسرٌ إلى الريفِ
ولكنا سنبقى دائرينْ
في زجاج «البلدِ المخزنِ». . . نحن المائلينْ
ـ كلما استُنفدَ بيتُ المالِ ـ أوراقَ الدواوينِ
وأوراقَ مرورِ الجندِ.
قالت في الحَريق الشجرهْ:
هذه النارُ التي امتدتْ إلى البذرةِ. . .
هل تنبتُ منها شجرهْ؟
كان في «سبتةَ» هذا الطفلُ. . .
لم يحملْ إلى الشاطئ، والبحرِ الذي يُغرقه وهماً
وما كان نبيَّ القهوة المغتربهْ
كان بين الأتربهْ
يفصلُ الصخرَ عن الرملِ، ويُقصي الأجوبهْ.
يُمطر الوحلُ على أسوارِ مرّاكشَ

تلك الوردةُ الطينيةُ الأوراقِ. . . أيامَ شممناها، تعلّقنا بها
ثم انكسرنا
مثلَها. . .
أيّانَ يأتينا زمانُ النظرةِ الأولى
وأيانَ ترانا قرطبةْ؟
نحن خلفَ العربهْ
قد تعلَّقنا وعُلّقنا قناديلَ
ولكنْ من زجاج «البلدِ المخزنِ». . . حيث المأدُبهْ:
حلْقةٌ من رؤساء البدوِ
في خانٍ على النهرِ. . .
سكارى
يحكمون الساعةَ المنقلبهْ.
هكذا نغرقُ بين السفنِ اللائي تراءينَ، ورملِ الأنظمهْ
ربما في لحظةٍ مستحكمهْ
يولَدُ الضباطُ
أو يهجونا نسرٌ إلى الريفِ. . .
ولكنا، سنبقى، دائرينْ.

٢١/ ١/ ١٩٧٥

الغابات

مرتين انتهيتُ إلى غابةٍ. . .
مرةً، كنتُ مستسلماً لرفاق الطفولهْ
للعيون التي كنتُ أقرأُ في عمقها السرَّ، والعمرَ، والسعفاتِ النحيلهْ
للأكفِّ التي كنتُ لاعبتُها
والثيابِ النديةِ بالطينِ، والأغنياتِ القليلهْ
غير أني انتهيتُ إلى غابةٍ. . .
ورأيتُ العيونَ التي كنت أقرأُ، مغلقةً عن سماءِ الطفولهْ
والأكفَّ التي كنتُ لاعبتُها. . . تحمل الخيزرانَ أنابيبَ موجِعةً
والغصونَ. . . بنادقَ
أين الثيابُ النديةُ بالطينِ؟
هل غادرتْنا الأغاني، وقد هاجمتْنا الأناشيدُ؟
يا غابةً للطفولةِ:
كيف أتيناكِ مستسلمينَ
وكيف انتهينا وحيدينَ
نبحث بين الأصابع عن موضعٍ للشجارِ
وعن موقعٍ للشجرْ؟
. . . .

. . . .

مرتين انتهيتُ إلى غابةٍ
مرةً: كنتُ مستسلماً لرفاق الطفولهْ
وأخرى: لنفسي

١٦/ ١٢/ ١٩٧٥

الغيم

يُقبل بين الشجر الناتئِ، والشوكِ الذي يخضرّ.
الغيمْ
يهبط مبتلاً، وفي هدأتِهِ يظمأ قلبُ الصخرْ.
الغيمْ
يسقط مرآةً نسينا وجهِها المغبرْ
الغيمْ
يلقي بنا فُجاءةً في القفرْ.
هذا الوريدُ المرتخي، بين المُدى والكفْ
هذا الردى الملتفْ
هذا الذي في لحظةِ الأَشباهْ
يفتح عينيَّ على مَرآهْ
ماذا رأى مني؟
ماذا رأى في غيمةٍ بين يدي والخوفْ؟
نمرقُ في حديقةِ الشارعِ، أو في الغابة الأولى؟
نغرسُ أزهاراً على كفٍّ
ومسماراً على كفٍّ
ويأتي الغيمُ مبلولا . . .

٦/ ٨/ ١٩٧٥

انتهاءات

تركْنا على رملةٍ بين وهرانَ والمغربِ البربريِّ
بَرانسَنا، وارتحلْنا إلى زمنٍ لائذٍ بالنخيلِ،
الطيورُ ترافقنا، والسفينةُ تندى من المطرِ
المتدافعِ والموجِ، هذا الصباحُ الأخيرُ، وهذي
الصنوبرةُ المستقيمةُ، أغطيةُ النوم منثورةٌ
في مخادع مَن ودَّعونا، وفي غرفة الفندق الساحليِّ
تمهَّدُ أغطيةٌ لعشيقينِ. وهرانُ تهبطُ
بيضاءَ زرقاءَ خضراءَ للبحرِ، طيرٌ وحيدٌ
يرافقنا، وصنوبرةٌ، ومحارٌ. نسافرُ. . .
أم ننثني نحن في زمنٍ لائذٍ بالنخيلِ؟
بلادي التي بين وهرانَ والمغربِ البربريّ:
لماذا تركتِ السفينةَ في ليلة الأربعاءِ؟
انتظرنا ارتباكاتِ أحداقنا إذ تجيئينَ
محلولةَ الشعرِ. نحن انتظرنا ارتباكاتِ
أقدامِنا في حبالِ السلالم، والسقطةَ
المستحبةَ في الماءِ. ليلٌ يطوّقنا ورصاصٌ.
بلادي التي بين وهرانَ والمغربِ البربريّ:

سمعْنا الرياحَ البعيدةَ بين نخيلِ الطفولةِ
مرهفةً بالأغاني، ولكننا ما سمعنا
أناشيدَ أعدائنا. خائبٌ سَمْعُ من لا يرى
في الظلام... السفينةُ تهتزُّ، وهرانُ
حاضرةٌ، ونخيلُ الطفولة تنصُلُ ألوانُهُ
في موانئَ مقرورةٍ. يختفي في فراش المحاربِ
سيفٌ قديمٌ...
ووهرانُ حاضرةٌ
والنخيلُ وريقاتُ مكتبةٍ
والسفينةُ تهتزُّ
تهتزُّ
تهتزُ
بين الرياح القديمهْ...

١٩٧٦/١/٥

حالة

شيخٌ في العشرينْ
يستيقظ، دوماً، في ساعات الصبح الأولى
يمشطُ شعراً مبلولا
ويُدير المذياعَ. ويُنصتُ للباكينْ
يختار قميصاً ورديّا
وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ، وكتاباً أبيضْ
يقرأ شيئاً منه، وإذ ينهضْ
يصنع ما يقرأُ كرسيّا
في غرفته، حيثُ العملُ المأجورُ
ثلاثةُ أطفالٍ بُدَناءْ:
أولُهم: لا يقرأُ حتى نفسَهْ
ثانيهم: ضيَّعَ في مزبلةٍ رأسَهْ
ثالثهُم: يحلم بالفقراءْ.
كلَّ مساءٍ، يغلق شيخٌ في العشرينْ
شقتَهُ، وينام وحيداً
أمس، استيقظَ في منتصفِ الليلِ
تناول موساهُ

وحزَّ بيسراهُ وريدا
وأدارَ المذياعَ
وانصتَ للآتينْ.

١٩٧٥

حوار مع الأخضر بن يوسف

أتذكرُ؟
(إذ يُصبح الفعلُ ذكرى يضيعُ التساؤلُ)
يا سيدي... أيُّ طعمٍ لهذا المساءْ؟
وفي حانةٍ بالرباط رأينا الزجاجاتِ فارغةً...
والزجاجاتُ عشرون، فارغةٌ في المساءْ
وفارغةٌ في عيون النساءْ
وفارغة كلُّ تلك الزجاجاتِ
حتى التي قبعتْ في اليسار المؤطَّرِ بالزخرف العربيّ
وتلك التي غلّفتْني
وتلك التي خلّفتني على البار في حانةٍ...
سيدي
سيدي
سيدي الأخصرَ المرَّ
يا سيدي يابنَ يوسفَ
من لي سواك إذا أُغلقتْ حانةٌ بالرباطِ؟
ومن لي سواك إذا أُغلقتْ بالعراقِ النوافذُ؟
خلّفتَني في التعاملِ:

في أن تكون الرئيسيَّ والثانويَّ
وفي أن أرى الثورةَ المرحليَّةَ
والطبقاتِ الحليفةَ،
في أن تكونَ الرباطُ الحيادَ،
وفي أن يكونَ المحيطُ الخليجَ. . .
لماذا التقينا إذن؟

❊ ❊ ❊

بأطراف تطوانَ أدركَنا الليلُ والبندقيةُ،
عبدُ اللطيفِ الذي لم يكن بعدُ في السجن أدركَنا
والجبالُ الشقية بالماء ما أدركتْنا
ولم يأتنا البربرُ المستريبون حتى بكأسٍ من العشبِ. . .
كنّا يتامى إذن!
آه من أمّةٍ لم تجدْ بعدُ ما يفصلُ الليلَ والبندقيةَ،
أو يَصلُ الليلَ والبندقيةْ

❊ ❊ ❊

رأيتكَ في قرطبةْ
وكنتَ تبيعُ الجلودَ التي حملتْ رسمَنا
والجلودَ التي حملتْ وسمنا
والجلودَ التي نرتديها.

❊ ❊ ❊

في الدار البيضاء
لم أسألْ عنكَ الماءَ ولا الميناءْ

كان الشرطيُّ دليلي
والبارُ الخامسُ في شارعِ سِيدي محمدٍ الخامسْ

❋ ❋ ❋

سنجلس ـ إن شئتَ ـ حِينا
نفكّرُ في أمرنا مرةً
نفكّرُ في أمرنا مرتين
وننسى ثلاثا.

❋ ❋ ❋

نسافر بين الجوازِ المزوّرِ والثورةِ المستحيلةْ
ونأسى، لأن القناعاتِ أكبرُ منا
وأصغرُ منا،
وأن الجبالَ التي ناولتْنا التشردَ كانت جبالَ القبيلةْ

❋ ❋ ❋

ولكننا بين هذا الجوازِ المزورِ والثورةِ المستحيلةْ
وبين الجبالِ ـ القبيلةِ... كنا غريبينِ:
لم نأكلِ القمحَ أخضرَ
والوردَ أخضرَ...
لم نعرفِ الورقَ المتساقطَ...
هذا البذارَ البعيدَ، وتلك النجومَ القليلةْ
غريبينِ كنا عن الصخر تحت المياهْ
عن الماء تحت الصخورْ...
أكنا ضحايا الجوازِ المزورِ والثورةِ المستحيلةْ؟

❋ ❋ ❋

فلنفتحْ أبوابَ الخشبِ الحصراويةَ. . .
أبوابَ الأكواخ القصديرِ،
وأبوابَ الكتبِ الممنوعةِ في غرفاتِ «القرويينَ». . .
لنفتحْ بابَ الموتِ
وبابَ الصمتِ
وأبوابَ القصرِ الملكيِّ. . .
لننسفْها بالحجرِ الطالعِ من أشجارِ الريفِ. . .
لِنَبْنِ العالمَ أجملَ. . .
أجملَ
أجملَ
وليرفضْنا العالمْ

* * *

هدأْنا، إذن، يابن يوسفَ؟
فليهدأ البحرُ. . .
للكلمات
ولي
ولكَ الآنَ. . . أن نستريحْ.

* * *

ويا سيدي الأخضرَ المرَّ. . .
يا سيدي
يابن يوسفَ:
من قال إنّا شقِينا؟

ومن قال إنّا لقِينا
ومن قال إنّا حُكمنا معاً. . . بالتداخلِ؟
ها نحن نشقى
وها نحن نلقى
وعبدُ اللطيف على ساحة السجن ملقى

٣/ ٣/ ١٩٧٤

ظهيرة

بين أن نتشهّى
وأن نتمشى معاً
ساحةٌ للترددِ
أو للتأملِ
أو للملالْ.
فكّري أنتِ:
هل نستطيع التحدثَ في مطعمٍ
أو نراودُ نهراً، فنغمسَ راحاتنا فيهِ. . .
أم نكتفي بالتنفسِ
أم ننطفي في سؤالْ؟
غير أني سأبقى إذا ما رأيتكِ
مضطرباً
خجِلاً
ممسكاً أولَ الخيطِ
منتظراً في الظِلال.

١٩٧٥

عن الأخضر أيضاً

مرةً سألوا نجمتينْ
كيف لا تمسيانْ
نجمةً واحدةْ؟
مرةً سألوا نجمة واحدةْ
كي لا تُصبحينْ
نجمتينْ؟
حينَ يضغطُ هذا الحديدُ الثقيلْ
على موضعِ الشنقِ في عنُقي
موضعِ العقدةِ الناتئةْ
خلفَ عنْقي
أيها الأخضرُ المتطاولُ. . .
أين تكون المدينةُ؟
تلك التي كانت «القروينَ؟»
تلك الأزقةَ. . .
و«العَدْوة» القرطبيةْ؟
قل للطاهرِ بِنْ جَلّون
لِلُّعبيّ

لعلي يعتهَ
للصحف الموبوءةِ
Le petit marocain
هل أسبح في ميناءِ الصيدْ؟
أو أسبحُ في الشاطيءِ
حيث العلويون يقيمون منازلهم
ومباذلهم
تأتيني أنتَ
وجهُكَ يُصبحُ لي القانون. . .
تحبُّ مليكةَ؟
فاطمةَ؟
الهيبياتِ اللائي يسألنَ بمرّاكشَ؟
تحمل في الريفِ الغدّاراتِ؟
فرنسياً كالن سلاحكَ؟
اسبانيّاً؟
روسيّاً؟
أم حجراً في الصحراء يتيماً؟
قل: إن البربرَ يبنون حضارتَنا
قل: إن الثورةَ في قومية «س»
ستأتي من قومية «ص»
قل: إن الأوغاد
والنسوةَ والضباطَ يجيئون إلى الدار البيضاء

بالأنباء عن السفنِ المملوءةِ سوّاحاً
تبغاً أشقرَ
قنيناتٍ لا يشربها أحدٌ
قل: إن المصعدَ قد عُطّل
قل: إن فتاةَ البارِ تراقبنا
قل: إن محدثَكَ الليلةَ يرسمُ في السرِّ محاكمةَ الزهرةِ. . .
لكنْ. . .
ماذا ستقول عن القتلى؟
ماذا ستقول عن المشنوقين. . .
عن امرأةٍ بثياب العرس يُراقصها حبلٌ. . .
عن كل الجبل المخلوقِ وأرضَكَ؟
هل تملك تلك القنبلةَ الذريةَ كي تهدأَ؟
كي تجعلَه صحراءَ يهيم بها البدُو،
تغادره الحربُ أقانيمَ موطّأةً؟
قل. . .
فالنجمةُ كانت واحدةً
النجمةُ عادت واحدةً. . .
والناسُ سواسيةً
والثورةُ ناجحةً
والعمالُ لهم نادي الشغّالين
لهم رجلٌ يعرف كيف يصوغ الكَلِمَ المطلوبَ
ويكسرُ اضراباتِ العمالْ. . .

لقادتهم عشراتُ السياراتْ
لقادتهم عشراتُ الرشواتْ
أأخطأْنا العدَّ؟
إذن . . . فَلْنَعُدِ الليلةَ للشعر الصافي
للأدب المأبونْ :
للأدب المأبونْ :
مرةً سألوا نجمتينْ .
لم لا تمسيانْ
نجمةً واحدةْ؟
مرةً سألوا نجمةً واحدةْ
لم لا تصبحينْ
نجمتينْ؟

١٩٧٤/٦/٢١

تقسيم

حين كانت تجيءْ
خطواتُ الصنوبر، رائحةً للمياه التي سكنتْ شجراً
وغيوماً تضيءْ
كانتِ الأرضُ بيتاً، وكانت يداها يديكْ
وأغصانُها ساعديكْ
حين كان المساءْ
نجمةً حاصرتْها المرايا
خطوةً في الطريقِ المعاكسِ، أو جهشةً في الخلايا
كنتَ تعرفُ أن المساءَ المحاصَرَ بين المرايا وبين الخلايا
قادمٌ في المساءْ.
حين أدركتَ أن الصباحْ
ما يزال بعيداً. . .
وأنْ على الأرض أن تبتدئْ
كنتَ أقربَ أن تبتدئْ

١٩٧٤/٩/٢٠

منزل المسرات

آه، لقد غدا صاحبي الذي أحببت
ترابا.
وأنا، سأضطجع مثله
فلا أقوم أبد الآبدين.
فيا صاحبة الحانة:
ـ وأنا أنظر إلى وجهك ـ
أيكون في وسعي الاّ أرى الموت
الذي أخشاه
وأرهبه؟

كَلكَامش

تُزهر أشجارُ الكافورِ
عصافيرَ،
وتُزهرُ أشجار الكافورِ
روائحَ مشتبهاتٍ
إذ يختلطُ الشارعُ، والأمسيةُ الرطبةُ، والأشجارْ.
الجدرانُ غصونٌ
والإسفلتُ طريقٌ ريفيٌّ يلمعُ فيه النهرُ
ولوحاتُ السياراتِ،

وثوبُ فتاةٍ تسرعُ. . .
كان المنزل في زاويةِ الشارعِ
يُخفي عبرَ نوافذِهِ سهرَ الليلِ الفائتِ
أو سهرَ الليلِ القادمِ
أو ثوبَ فتاةٍ يُنزعُ
في سهَرِ الليلِ الفائتِ
أو سهَرِ الليلِ القادمِ
أو في مقعدِ سيارَهْ
. . . .
. . . .
أشجارُ الكافورْ
مصباحٌ أخضرُ في بابِ المنزلْ
وسراويلُ نساءٍ في الأغصانْ
أشجار الدُّفلى
تندسُّ، مع الليلِ الثابتِ
والأوراقِ الماليةِ
والصفقاتْ.
أشجارُ السدرِ تراقب كلَّ خريفِ الشارعْ
تتشبّثُ بالأوراقِ المصفرّةْ
بلحاءِ الشجرِ المتشققِ. . .
أشجارُ السدرِ تؤرجحُ في السرِّ مقابرَها
تفتح للبومِ عيوناً ماكرةً. . .

أشجارُ السِدرِ تراقبُ بابَ المنزلِ:
تأتي الفتياتُ
وتمضي.
تأتي السياراتُ
وتمضي.
يأتي الليلْ...
وعيونُ الفتياتِ، غبارٌ ليليٌّ
ومياهٌ يثقلها الملحُ...
وتنقلُها عجلاتُ السياراتْ.
....
....
....
في المنزل، يدخل سادةُ منتصفِ الليلِ
ووحشةُ بردِ الليلِ
وآخرُ غدّاراتِ الليلِ
وازهارُ الدُّفلى.

١٣/ ١/ ١٩٧٥

وحدة

ذاتَ صباحٍ لاحظتُهما مسرعتينِ
تسيرانِ معاً. . .
في الشارع شيءٌ من رائحةِ اللوزِ. . .
أأختان هما؟
لاحظتُ قليلاً خطواتِ القططِ اللائي هذّبها التدريبُ. . .
لماذا أحسستُ بأن اللوز يلاحقني
وبأني أعرف شيئاً عن أختينِ. . .
تسيران صباحاً مسرعتينْ؟
كلَّ صباحٍ. . .
حين الساعةُ عاشرةٌ أقلقُ. . .
هل ستمرانِ؟
تمرانِ. . .
وألمسُ رائحةَ اللوزِ
وباطنَ كفِ القطةِ. . .
ثم تغيبان مع الأشجارِ
وفي منعطَفِ الشارعِ. . .
في آخر زاويةٍ من نافذتي.

أحياناً تلتفتان
فأرى خيطاً يصلُ الغرفةَ
والأشياءْ.

١٩٧٥/١/١٥

سقوط فندق النهرين

لا تَبعُدُ الصحراءُ عنهُ.
وإذ يدورُ النخلُ في غرفاتِه، يغبرُّ مثل الماءِ
في النهر القريبِ، وفي الأنابيبِ القديمهْ
كانت طوابقُه الثلاثهْ
مبنيةً بالجصّ والآجرّ، ينفتح الزجاجُ الإنجليزي الثخين بها على بار الحديقة والزوارقْ
ولربما كان الطريقُ إليه أقصرَ حين تختار اليمينْ،
ولربما فكرتَ: ما أبهى الحدائقْ.
في فندق النهرين
عاشرْنا، وقامرْنا
تعلمْنا مراوغةَ الكحولِ ـ السمّ،
في غرفاته... يوماً تزوجنا
وجئنا بعد أن دارتْ بنا السنواتُ
جئناه نجرّ صغارَنا، يتعرفون على حدائقهِ...
وكنا مرهقينَ بما تحمّلْنا.
لم ندر أنَّ الجصَّ والآجرَّ...
لم نشعر بأن الماءَ كان يسيلُ...

أن السقفَ. . .
آهٍ. . . بعد أن دارتْ بنا السنواتُ
جئناه، نجرُّ صغارَنا، يتعرفون على حدائقهِ
وكنا مرهَقينَ بما تحمّلْنا.

١٩٧٤/٦/٢٥

تلمس

يرتدي في المساء المخطط، ثوباً من الخوص والقطنِ. . .
كان الطريقُ إلى القصر يمتدُّ. . .
يمتدُ. . .
يمتدُ. . .
حتى يضيقْ.
والمساطرُ تهبط من قمم النخلِ
ماثلةً في التراب المعلّقِ
ما بين أردانهِ والطريقْ.
فزَّ في نخلةٍ طائرٌ
ـ ربما كان فاختةً ـ
ثم أرخى جناحيه، واختبأ العنقُ البضُ في ريشهِ
والمساءُ المخططُ يفقد أشكالَه الهندسيةَ
والثوبُ يفقدُ تنويعةَ الخوصِ،
مستغرقاً في المساء العميقْ
والطريقُ إلى القصر يعرضُ. . .
يعرضُ. . .
يعرضُ. . .

حتى يضيعْ
كان يرسمُ في خوفهِ سِدْرةً
كان يرسم قبراً... وعينين جوّالتينِ
وفي صوبه... فَجأةً... كان قلبٌ يدقُ...
يدقُ...
يدقُ...
وفي شفتيه رمادُ الغريقْ.

١٩٧٤ ـ ١٩٧٥

الرسائل

من الصخر تأتي الرسائلُ، في الليل تأتي، تدور
على لمسات الأصابعِ، حاملةً ملمسَ الحجرِ الخشنَ
والبهجةَ الناعمةْ.
أبقيتَ لي ما لا يخونُ الرأيَ، أبقيتَ التفرُّسَ...
ثم ماذا ارتجي لو قلتَ لي يوماً: منعتُكَ
نظرةً أولى، ولو أسررتَني يوماً: منحتُكَ
أن تقرَّ العينُ راضيةً؟ هي الأعشابُ تحفرُ
في عروقِ الصخرِ... تحضرُ في سماءٍ كلما
استترتْ أرَتْ، يا بِضعةً من وردةِ الشهداءِ،
شمسٌ أنتَ: بارقةٌ وظلٌّ.
ومن أول الريح تأتي الرسائلُ، في الفجر تأتي،
لتحملَ لي لهفةً من عيونٍ أُحِبُّ استداراتِها لهجةً
للعواصفِ إذ تتكوّرُ، والمدنِ العاصمةْ.
أيامَ فكَّرْنا بأنَّ العالم الحجريَّ حِرفتُنا، وأنَّ
هواءَهُ الموبوءَ يُبْلغُنا الأقاليمَ البعيدةَ...
إن طيراً واحداً للنار يشعلُ كلَّ أحجارِ الخليقةِ...
فلنفكّرْ مرةً أخرى: تكون الريحُ اهدأَ حينَ

نرفعُ رايةً في وجهها، وتكون أوضحَ. . .
أيَّ بيتٍ للعواصف تسكنُ الراياتُ!
أيُّ مدينةٍ في واجهاتِ الريحِ تسألُنا وتغلو. . .
وفي موجةٍ من جداولَ لم نستعدْها، تجيء الرسائلُ. . .
أيُّ اختلاف أمام المياه القديمةِ؟ هل طوّقتْ
ساعديَّ الجداولُ؟ لو طوّقتْ ساعداي الجداولَ. . .
لو كنتُ في السِّرِ أجراسَها النائمةْ.
للماء حين يغورُ رائحةٌ. . . أيخطئ طائرٌ أسماءها؟
للماء حين يفور مملكةٌ مقدسةٌ، وجوقةُ منشدينَ
وفرقةٌ بيضاءُ. . .
يمضي فارسٌ في الليل نحو النبع، أين تريدُ
يا ملكَ التفرّسِ؟ إنه يمضي، وإثْر خطاهُ
نجمُ الشرق، عند النبعِ تغتسلُ الحوافرُ
مرهفاتٍ. . . إنه في النبع يدخلُ. . .
كان ماءُ الليل أسودَ
كان أزرقَ
كان أبيضَ
كان ماءُ النبعِ يعلو. . .

١٩٧٦/٢/٩

السكون

الرياحُ التي لا تهبُّ العشيّةْ
والرياحُ التي لا تهبُّ الصباحْ
حمّلتْني كتابَ الغصونْ:
أن أرى صيحتي في السكونْ.
يهبط الليلُ، أزرقَ، بين الخطى والنجومِ. . . أرى
شجراً أزرقاً، وشوارعَ مهجورةً، وبلاداً
من الرملِ، لي وطنٌ. . . ثم ضيعتُهُ، لي بلادٌ. . .
وهاجرتُها. . . كم أحسُ النجومَ القريباتِ
ملصقةً بالخطى، أيها الشجرُ الأزرقُ، الخشبُ
الأزرقُ. . . الليلُ. . . إنّا انتهينا إلى عالمٍ
يتراكمُ، أو يبتدي، أو يموتْ.
شجرٌ للأكفّ التي قُطعتْ. شجرٌ للعيون التي
سُملتْ. شجرٌ للقلوب التي مُسختْ حجراً. . .
في المدينة، تدنو الحدائقُ زرقاءَ من وسط المقبرةْ.
والأكفُّ التي قُطعتْ لا تميلُ، العيون التي
سُملتْ لا تميلُ، القلوبُ التي مُسختْ
حجراً. . . لا تميلُ. . .، إذن. . . هل تجيءُ

الرياحُ الغريبةُ؟ أن الحدائقَ مسكونةٌ بالسكونْ.
للمآذنِ لونُ المياهِ القديمةِ. للناسِ لونُ الخيولِ
المسنَّة. للكتبِ التتريةِ ختمُ الرقابةِ...
أيَّ بلادٍ أتيتَ؟ هنا: سوف تدخلُ باباً،
ومختبراً للعذابِ، وسوف ترى في الحدائقِ يوماً
ذراعَكَ، عينيكَ، أو قلبكَ المتسارعَ...
لكنك اليومَ أقوى، فقلْ كلماتِكَ... قُلْها...
فبعدَ غدٍ تبتدي، أو، تموتْ.
الرياحُ التي لا تهبُّ العشيَّةْ
والرياحُ التي لا تهبُّ الصباحْ
حمَّلتْني كتابَ الغصونْ:
أن أرى صيحتي في العيونْ.

٣/ ١١/ ١٩٧٤

هواجس

أحياناً، أخطو في الظُّلمهْ
اتتبَّعُ شطآناً ومشاهدَ من ورق الرسم
ومن مدنٍ أفريقيهْ
هكذا، يتنأى عن الرجسِ، يحملُ تعميدَهُ في
زجاجةِ خمرٍ، ويَهدمُ أشكالَهُ. مدنٌ من جنودٍ
تمرُّ، قرىً للحراسةِ. يا غُصناً مثقلاً بالثمارِ. . .
لماذا تظلُ الرياحِ جنوبيةً؟ إنه يستعيرُ
الوجوهَ التي غادرتْ، والبلادَ التي قد أَحَبَّ،
وأصواتَها الناحلةْ.
أحياناً، أهبطُ في (السلمان) على حبة رملٍ
أبحثُ فيها عن يومياتٍ مدفونهْ
عن لمسةِ كفٍّ، ما زالت تنبضُ تحت الرملِ
بأرضٍ أخرى
في المساء يودّعنا دائماً، ثم يُصبح ذكرى. . .
بأيّ قرارٍ هوى؟ تحتَ أيّ جدارٍ تدحرجَ
مختَرماً بالرصاصِ؟ وماذا نقول له لو أتى
في الزيارةِ سريةً؟ كيف نُخفي شواهدَهُ

الشجريةَ عمّن يجيئونَ؟ يا وطناً للشواهدِ
والنظرةِ الغافلةْ؟
أحياناً، أصغي في الليل إلى نَفَسي
أحصي الطلقاتِ المكتومهْ
وخطوطَ الهْجسِ. . . وأسألُ عن حَرَسي.

١٩٧٦/١/٤

الليالي كلها

في زمن الفتنةْ
والقتلِ، سأغمض عينيَّ... وانظرُ للقتلِ
أحاصرهُ حيناً
وأحاوره حيناً
أو أرضى حيناً بالقتلْ.
تسقطُ في الماءِ الشمسُ الريفيةُ...
عمالٌ يضعون على الماءِ رصاصَ ملابسِهمْ
ويصلُّون ليومٍ لا يأتي
عمالٌ يفدون إلى بيتي
كلَّ مساءٍ، حين تغيمُ الطرقاتُ
وتُغلَقُ أبوابُ الكتبِ الأولى
عمالٌ أمواتْ
عمالٌ قتلى
عمالٌ حملوا الراياتْ.
....
افتحُ أرشيفاً للثوراتْ.
يسألني الأول: هل تعرف عنّا؟

يسألني الثاني: هل تخجل منّا؟
يسألني الثالثُ: هل تسأل عنا؟
ينتصفُ الليلُ على الكتبِ المفتوحةْ
ويغادرني العمال
العمال الأموات
العمال القتلى
العمال الرايات
لتظلَّ الكتبُ المفتوحةْ
أرشيفاً للثورات
وسماءً تعبرُ منتصفَ الليلِ
وتمتصُّ رصاصَ اللون الأزرقِ
والعشبَ،
وأوردةَ الكفِ المرخاةْ
في الصبح أُحَصّنُ بابي

١٩٧٤/٨/٢٨

بغداد الجديدة

تأتيني حين تحاصرني أبخرةُ العَرَقِ المغشوشِ. . .
بصحنِ حساءْ
تأتيني في الهاجرةِ المغبّرةْ
تأتيني كلَّ مساءٍ يخطفه الليلُ. . .
بنجمِ مساءْ
في المقهى، تجلس حول الشاي المرِّ
وفي السوق تبيع الجبنَ
وأكبادَ الجاموسِ،
وتنفضُ كلَّ دكاكينِ ملابسِها المستعملةِ المكويّهْ
باحثةً عن عظمٍ في صحنِ حساءْ
وحليبٍ في شفتي طفلٍ
وبريقٍ في عينينِ
وشيء لا تعرفه امرأةٌ
وشوارعَ لا يخضوضرُ فيها الماءْ
في الليلِ
تطوّفُ بين بيوتٍ هاجَرَها الفقراءُ
وبين كنائسَ يَرْهَفُ فيها القدّاسُ

وبين منازلَ تُغْشى فيها فتياتُ الفقراءْ
في منتصف الليلِ
تعود إلى المختَبإِ المسحورِ، وراءَ شوارعِها الطينيةِ.
حاملةً خبزَ الموتى
وزهورَ الآسِ
وشيئاً من كبدِ الجاموسِ
وعظمينِ لصحنِ حساءْ
في الفجرِ تدورُ على كلِّ منازِلها
توقظ كلَّ بنيها
تدفعُهم في وسطِ الشارعِ. . .
آلافاً، ينتظرون السيرَ إلى بغدادْ

١٩٧٥/٤/٨

تحت جدارية فائق حسن

(١٩٧٤)

قصيدتان

نحن لم نحتكم

لم تَضِـعْ، أو تُضيِّعْ، فأنتَ الحقيقةُ منثورةً في الترابِ الذي نتنفسُ أو نجتلي، أنتَ عبرَ العراقِ: المسافةُ، تاريخُه القرمزيُّ وأطفالُه القادمونْ.

❋

في خلاياكَ ـ هل نتذكر سرَّ التناسخِ؟ ـ آخيتَ بين الحجارةِ والمستحيلِ، إذنْ، نحن في السرّ ننهضَ... كلُّ الوجوهِ التي اخترقتْ حاجزَ السيفِ تأتيكَ في ورقٍ قد يكونُ الجريدةَ، أو غَسَقٍ قد يكونُ الغصونْ.

❋

منذ كنا صغاراً عرفناكَ، في وطنٍ، أنتَ سميتَه... في رجالٍ تخيرتَهم، كالبداهةِ... كالمنتهى... نحن لم نحتكمْ، والبنادقُ والعشبُ لم تحتكمْ مرةً، والطريقُ التي جئتَها لم تمِلْ... إِنها السالكون.

قصيدة

حين صافحتَني . . .
صار كلُّ اغترابي
هاجساً للجذور

١٢/ ٢/ ١٩٧٤

في تلك الأيام

١

في أول أيارَ دخلتُ السجنَ الرسميَّ،
وسجّلني الضباطُ الملكيونَ شيوعياً،
حوكمتُ ـ كما يلزم في تلك الأيامِ ـ وكانَ
قميصي أسودَ، ذا ربطةِ عنقٍ صفراءَ،
خرجتُ من القاعةِ تتبعني صفعاتُ
الحراسِ، وسخريةُ الحاكمِ. لي امرأةٌ
أعشقُها، وكتابٌ من ورقِ النخلِ، قرأتُ به الأسماءَ الأولى.
شاهدتُ مراكزَ توقيفٍ
يملؤها القملُ، وأخرى يملؤها الرملُ،
وأخرى فارغةً إلاّ من وجهي.

* * *

يومَ انتهينا إلى السجن الذي ما انتهى
وصّيتُ نفسي وقلتُ المشتهى ما انتهى
يا واصلَ الأهلِ خبِّرهم وقلْ ما انتهى
الليلَ بتنا هنا، والصبح في بغدادْ

٢

أحتفلُ الليلةَ بالقمر الزائرِ من خلفِ
القضبانِ، لقد رقد الشرطيُّ، وأنفاسُ
«السيبةِ» مثقلةٌ برطوبةِ شطِّ العربِ،
التفتَ القمرُ الزائرُ ناحيتي، كنتُ أدندنُ
في ركنِ المواقفِ. . ماذا تحملُ لي في
عينيكَ؟ هواءً ألمسهُ؟ وسلاماً منها؟
كان القمرِ الزائرُ يدخل من بين القضبانِ
ويجلسُ في ركن الموقف. مفترشاً بطانيتيَ
السوداءَ، تناولَ كفي: محظوظٌ أنتَ.
وغادرني. . أبصرتُ بكفي مفتاحاً من فضةْ.

* * *

كلُّ الأغاني انتهتْ إلاّ أغاني الناسْ
والصوتُ لو يُشترى، ما تشتريه الناسْ
عمداً نسيتُ الذي بيني وبين الناسْ
منهم أنا، مثلهم، والصوت منهم عادْ

٣

في الثالث من أيار، رأيت الجدران الستةَ
تنشقُّ، ويخرجُ منها رجلٌ أعرفهُ، يلبسُ
سروالاً عمالياً، وقلنسوةً من جلدٍ أسودَ،
قلتُ له: كنتُ أظنكَ سافرتَ. . أما كانَ

اسمُكَ بين الأسماء الأولى؟
أو لم تتطوعْ في مدريدَ؟ أما قاتلتَ وراءَ
متاريسِ الثورةِ في بتروغرادَ، ألم تُقتلْ في
أضرابِ النفطِ؟ أما شاهدتُكَ بين البرديّ
تعبِّئُ رشّاشاً؟ أَوَلم ترفعْ للكومونةِ رايتَها
الحمراءَ؟ أما كنتَ منظّمَ جيشِ الشعبِ
بسومطرةَ؟
خذْ بيدي. فالجدرانُ الستةُ قد تُطبق بين
اللحظةِ والأخرى... خذْ بيدي.

* * *

يا جارُ آمنتُ بالنجم الغريب الدارْ
يا جارُ نادتْ ليالي العمرِ: أنتَ الدارْ
ياما ارتحلنا وظلَّ القلبُ صوبَ الدارْ
يا جارُ لا تبتعدْ... دربي على بغدادْ

١٩٧٣/٣/٣١

خاطرة غير متشنجة

أقولُ: صباحاً لدجلة..
إن الصباحَ الذي كان مغتسِلاً هو والعشبَ يقتادني
من يديَّ، ويجلسني قبلَهُ:
هذه المصطبةْ
تضمُّكَ والناسَ...
قد ترتأي أنكَ المتفضلُ...
من يُوقف النفسَ (إذ تتواطأُ والنفسَ) قُدّامَ مفرزةٍ؟
ربما كانت المصطبةْ
كما شئتَها، بين مرسى الزوارقِ والجسرِ، مشغولةَ...
هل ترى تفقدُ الأجوبةْ؟
وهذا الصباحُ الذي جئتَهُ أنتَ؟
كان الصباحُ جديداً على العشبِ...
فكّرتَ: إن الحياةَ الجميلةْ
تظل ضروريةً كالزوارقِ والجسرِ...
ها أنت تخدعُ حتى العبارةَ،
تستلُّ ـ مثلَ خبيرِ القنابلِ ـ كلَّ الفحولةْ
وتلقي بها: زهرةً في حياةٍ جميلةْ

إذن. . . أنت تقنع بالجلسةِ الهادئةْ
على ضفة النهرِ:
تمضي المياهُ
أمامكَ، والنخلُ يمضي، وتمضي الحياهْ
ولكنّه جاءَ. . .
ها أنت تُصغي إلى خطوةٍ منه مكتومةٍ،
كنتَ تُصغي
إلى هاجسِ العشبِ تحت الحذاءِ الممزّقِ،
إلى دورةِ الخبزِ في دمه. . . البارحةْ
يسارَ الذي يجلس الآن قربكَ:
يبتدئُ الجسرُ،
يبتدئُ الباصُ أحمرَ رحلتَهُ،
تتبعُه أنتَ. . .
يبدو لك الباصُ في وسطِ الجسرِ مرتجفاً ثابتاً،
لحظةً. . . ثم يمضي
إلى آخرِ الجسرِ. . . أحمرَ، مندفعاً في السماءِ العريضةْ.

بغداد ٧/ ٦/ ١٩٧٣

أوراق من ملف المهدي بن بركة

١

يتبادلُ والمغربَ العربيَّ الرسائلَ، كلُّ الطوابعِ
صورتُه، والخطوطُ التي يدرسُ الخبراءُ اندفاعاتِها
خطّهُ. كان يحفظ تاريخَ مولدِهِ... قال للمخبرِ
اليومَ: هل نتعشى معاً؟ مَرَّ بالمطبعةْ.
في الصباح تأخّرَ عن شُربِ قهوتِه، ظلّتِ الغرفةُ
الجانبيةُ مغمورةً بالضياء إلى الفجرِ... هل كان
يقرأُ؟ باريسُ تفتحُها شاحناتُ الأقاليمِ بالجَزَر
المتوردِ والخضرةِ المشبعةْ.
جاءه رجلٌ يرتدي معطفاً مطرياً... تلفّتَ واجتازَ
بابَ العمارةِ... ماذا يخبّئُ هذا الذي جاءهُ
أمسِ
أيضاً: أفي المعطفِ الخبزُ والجبنُ والبرتقالةُ؟
ها هو ذا خارجٌ
خارجٌ
خارجٌ...
بين بابِ العمارةِ

والسلّمِ المتطامنِ أدركتُه . . حينَ أبصرتُ عينيهِ
قررتُ أن أتبعَهْ

* * *

تبدين شاحبةً، رأى قسماتِكِ الفقراءُ في صيفِ الرباطِ
أكنتِ خلفَ السورِ زهرةْ؟
إني مددتُ يدي إليكِ. . . لمستُ وجهَكِ
كنتِ ساخنةً. . . فلم أقْبلْ سواكِ، ولم أعانقْ
ها هم جياعُ المغربِ العربيّ، مثلي،
يمنحون بهاءَكِ السريَّ سِرَّهْ
ها هم جياعُ المغربِ العربيّ ينتشرون باسمكِ
ينتشرون على اسمِكِ الممنوعِ أوراقَ الخلايا والحدائقْ
هل تذهبين معي؟
سندخلُ عَتمةَ الحاناتِ
ندخل عَتمةَ الأكواخِ
ندخل عَتمةَ الثُكناتِ
ندخل عَتمةَ الوطنِ

٢

آه. . . بِنْ بركةَ الجالسَ اليومَ بين الرصيفِ
وبين الرصافةِ، في مشربٍ للمغاربةِ اللاجئينَ:
انتظرتُكَ يومينِ، أتعبني الانتظارُ، فغادرتُ
حَيطتيَ المستمرةَ، حتى سألتُ الصحافيَّ

ذا اللحيةِ الفوضويةِ، لكنه لم يجبني
قال لي مخبرٌ: «عاد من رحلةٍ في الضواحي».
إذن كنتَ في حارةٍ بالحزام الشيوعيّ
حيثُ الأفارقةُ القادمونَ من المدنِ المتسولةِ النورَ،
أو من مساجدِ تلك القرى وهي تنهار في ليلها المطمئنِّ.
إنه الشخصُ ذو المعطفِ المطريِّ... الذي كنتُ
فاجأتُه مرةً... يدخلُ المشربَ الآنَ... يجلس قُدّامَ
بِنْ بركةَ المتحدثِ... يُحكمُ نظارتيهِ، ويُنزل
حافةَ قبعةِ الجوخِ، يشربُ قهوتَهُ: رشفةً
رشفةً... كان ضابطَ أمنٍ.

❊ ❊ ❊

إذ ألمحُ القرميدَ في البيت الذي غادرتُه زمناً،
أحسُّ المخبرين على جبيني
يتحسسون غضونيَ الأولى
ورعشةَ هُدبيَ الأولى،
ورائحةَ الشرايينِ الغريبةْ.
إني أحسُّ بهم: أصابعُهم تجسُّ بريقَ عيني وهي تبحثُ
عن معادلةِ السجينِ
إني أحسُّ بهم: على ورقِ الكتابةِ يتركون أوائلَ البصماتِ،
يغتصبون أزهارَ الحبيبةْ
إني أحسُّ بهم: يجالسني على كرسيّ مكتبتي فتىً منهم
يوشرحُ لي شؤوني

حاولت أن أترصّدَ البابَ الوحيدةْ
غيّرتُ مفتاحي
وضعتُ جهازَ إنذارٍ بذاكرتي
هجرتُ موائدَ الباراتِ
حصّنتُ النوافذَ بالنحاسِ
وإذا هدأتُ دخلتُ مكتبتي :
هنالك عشرةٌ يتناولون شرابَهم فيها .

٣

في المطار تلبثتُ بين رجالِ الجماركِ . . . كنتُ أراقبُ
كلَّ الذين يجيئون من ساحلِ المتوسطِ أيقظَني رجلٌ
من رتابةِ تلكَ الوجوهِ التي تقطعُ المعبرَ الضيقَ
الصدرِ، شاخصةً نحو ما تحملُ العرباتُ، وما تفعلُ
الفتياتُ، وما تشتريهِ المغاورْ
كان شخصاً طويلاً، طويلَ الخطى، ربما كان
في الجيشِ حتى عشيةِ أمسِ . . . اجترأتُ فساءلتُه عن مناخِ
الرباطِ . . . ولكنه لم يُعرني انتباهاً، ولم يلتفتْ لي . . . .
ترى . . . هل تعمّدَ إخفاءَ عينيه وسْطَ الحقيبةِ، وهوَ
يحاولُ أن ينتهي مسرعاً من قناعِ المسافرْ؟
عدتُ ثانيةً : مشربُ اللاجئينَ المقاربةِ . ارتحتُ
حين وجدتُ الذي كان في الجيشِ حتى عشيةِ أمسِ . . .
فها هو ذا هادئٌ وحدَهُ، يشرب الشايَ ـ هل كنتُ

شخصاً ذكياً؟ ـ لقد دخلَ الشخصُ ذو المعطفِ المطريِّ، تلفّتَ، ثم استدارَ إلى حيث يجلس ذاك. تركتُهما واتجهتُ إلى حيثُ يسكنُ بِنْ بركةَ المتأخرُ. أحسستُ أني بنفسي أغامرْ.

❊ ❊ ❊

القتلُ يلبسُ خُفَّ راقصةٍ تراودني. . .
ترى المدنَ الغريبةَ قاعةً للرقص ضيقةً،
لماذا تنظرين إليّ هادئةً؟
أتنتظرين خطواتيَ الأخيرةْ؟
أنا لا أجيدُ الرقصَ. . .
أحملُ في الشوارع رايتي، لم أُخفها يوماً
وربتما انتهيتِ إليّ عن خطأٍ،
وربما لمحتُكِ في بداياتِ المسيرةْ
لكنّ أغنيةَ الشوارعِ لم تضقْ يوماً كما ضاقتْ هنا. .
ها أنتِ تقتربين مني
تُلصقين بأضلعي كفاً من الفولاذِ مرهفةً. . .
رأيت دمي ينثُّ على ثيابكِ. .
وهو يصبغُ قاعةَ الرقصِ الصغيرةْ

٤

عند باب العمارة هاجمني رجلٌ كنتُ شاهدتُ عينيهِ، يومَ المطارِ. . . يدٌ ترتدي خنجراً مغربياً تهاجمني. . .

لم يكن لي سوى الصمتِ. . . خنجرهُ المغربيُّ يشقُّ الطريقَ
إلى صخرِ حنجرتي. . . وهو يُجلسني في مؤخّرِ سيارةٍ
داكنةْ
ليلتين تُركتُ وحيداً. . . أضمُّ الظلامَ على جسميَ المتشنجِ،
فكرتُ: في أيّ ضاحيةٍ كنتُ ملقى؟ لقد غادروني
ولم يتركوا غير ميسمهم في ضلوعي وبقيا سجائرهم. . .
إن منزلَ بِنْ بركةَ الآنَ منكشفٌ. . . تلمسُ الريحُ
والغرباءُ نوافذَه الساكنةْ.
تحاملتُ. . . حاولتُ أن أبلغَ البابَ. . . أفتحَهُ. . . يُفتحُ
البابُ. كان شميمُ الصنوبرِ في رئتي بارداً، والضياءُ
الذي يبهر العينَ يمتدّ عبر الحقولِ كما كان دوماً. . .
جلستُ على عتْبةِ البيتِ منكسراً ذابلاً. . . حاملاً وجهَ
بِنْ بركةَ المتأرجحَ بين الحزام الشيوعيّ، والبيتِ والقهوةِ الساخنةْ.

❊ ❊ ❊

فتّحتُ عينيَّ اللتين تحوِّم الأسماكُ حولهما. . .
رأيتُ العالَمَ السفليَّ ماءً
مترقرقاً بين انكسارِ الضوءِ والحجرِ القديمِ
يداي موثقتانِ خلفي
دارتِ الأسماكُ حولي
كنتُ ألمح في التماعهما السماءَ
وأحسُّ بالأمواه تحملني وراء «السين». . .
إني أعبر البحرَ المحيطَ. . .

يداي موثقتان خلفي
والرباطُ قريبةٌ :
أسوارُها الرمليةُ الصفراءُ تدنو وهي تهبطُ
ثم تدنو وهي تهبطُ
ثم تدنو وهي تهبطُ
كانت الأسوارُ أشجاراً وأطفالاً وماءَ

بغداد، ٥/ ٣/ ١٩٧٣

ثلاث حالات لامرأة واحدة

حالة

لماذا يُلحُّ عليّ اسمُكِ الآنَ؟
ـ في السجن تُنسى الحروفُ وتبقى المعاني ـ
أحاولُ أن أتذكرَها حرفاً . .
أعيدُ اصطفافَ الحروفِ التي أتذكّر:
كلَّ الحروف
وكلَّ المعاني
ولكنه
عامضٌ: مثل عينيكِ، سيدتي . .
غائبٌ: مثلما تتركين الزيارةْ
شاحبٌ: مثلَ كلِ النعومةِ في وجهكِ البيضويِّ الصغيرْ
أتأتينَ أنتِ . . مدللةٌ، مشتهاة، غريرةْ
وبين ثيابكِ يأتي الربيعُ الأخيرْ . .
وأنسى اسمكِ المتأرجحَ . . .
بين الذهولِ وبين التداني

١٩٧٣/٤/٢٦

حالة

في المحطة
كان القطارُ الأخيرُ إلى برشلونةْ
يُطْلقُ الصفراتِ الأخيرةْ
كنتِ شاحبةً في غصونِ الصباحِ التي تشربُ البردَ والريحَ
والتمتماتِ الأخيرةْ
ترحلين إذن؟
تبحثين عن العمل المنزليّ
بمملكةٍ في بلاد الشمالْ؟
أنتِ. . سيدةُ المطعم الغجريِّ. . .
ألم تبصري كيف طاف المغنون حولكِ؟
كيف رأونا عروسينِ، بين زهورِ النحاسِ وأطباقه وغصونِ الظلالْ؟
ليلةً. . .
ثم تمضينَ. . .
شاحبةً. . .
في القطارِ الأخيرِ إلى برشلونةْ

٣١/ ٥/ ١٩٧٣

حالة

كأنك لم تسكني نُزُل الساحةِ الضيقةْ
ولم تتركني فوق كرسيّ غرفتِكِ: الثوبَ والرملَ والزنبقةْ
كأنكِ ما كنتِ بالملح مُشْرَبةً. . .
طعمُكِ البحرُ. . .
والموجةُ الضيقةْ
كأنكِ ما كنتِ ـ حين نزلنا سراعاً إلى قهوة الفجرِ ـ مرهقةً
مرهقةْ

١٩٧٣/٦/٢

المسافة

قبل عشرينَ عاماً، أتيتُ مساءً إلى نُزُل بالمدينةِ. . .
كان دمي مثلَ ماءِ الينابيعِ أبيضَ. . . هل كنتُ أسمعُ
بين عروقي وبين النقاباتِ حين تُحطِّم أبوابُها
جدولاً؟ إنه الماءُ يبدأ، والمدُّ يعلو. . . وتبدو
جذورُ النخيلْ.
قبل عشرين عاماً، تملّصتُ مما اصطفاني له الساحرُ
الطبقيُّ. . . تعلّمتُ أنّ الحقيقةَ أبعدُ من منزلي
بين مسجدِ «حمدانَ» والجسرِ، أَنَّ الحقيقةَ قادمةٌ
في المناشيرِ: زرقاءَ، مستنسخاتٍ بأيدي الذينَ
يظلون لا يحملون من الأرض إلاّ ثراها الثقيلْ.
قد تراني الصبيةُ لا أُحسنُ الكلماتِ التي يُتقنُ الشعراءُ. . .
وربما استغربتْ أنني أكتب الكلماتِ. . . اقتربتِ. . .
فلستُ أرى ما يباعدُ بيني وبين التهامي كيانَكِ،
اني من الجائعين طويلاً، وأنتِ البهيةُ سيدةً كنتِ
منذ اقتسامِ البساتينِ والنخلِ. . . سيدةً كنتِ منذُ سوادِ الأصيلْ.
لي عليكِ الشبابُ الذي مرّ منطوياً، والطفولةُ
دونَ رُواءِ الطفولةِ، والواجبُ المدرسيُّ الذي كنتُ

أكتبه في بقايا الدفاترِ. . . تلكَ
الثيابُ التي يسخر الفتيةُ الجامعيون منها، ولكنني
كنتُ أعرف أنكِ حين تمرينَ مسرعةً، لا ترينَ
ثيابي، ولا الواجبَ المدرسيَّ، وإنكِ خلفَ الجدارِ،
الذي لم تقيميه أنتِ: جدارِ الصراعِ الطويلْ.
في الوجوهِ التي أتوجّسُ منها، بلادي التي أتوجّسُ منها
رأيتُ القطارَ القديمَ، القطارَ المغادرَ بغدادَ، يوصلني
مرةً للمياهِ، ويوصلني مرةً للمحاكمِ. . . أن تقضيَ
العمرَ مغترباً. . حرفةٌ ترتضيها ولا ترتضيها. . . ولكنكَ
اليومَ تلمسُ بين اغترابكَ والنخلِ خطوتَكَ الملكيةَ. . .
معناكَ. . . رايتَكَ المستدقةَ. . . خُذْ جرعةً للمسافةِ. . .
هل يملكُ الطيرُ غيرَ مسافاتِهِ واضطرابِ الغليلْ؟

١٩٧٣/١٠/٧

تحت جدارية فائق حسن

١

تطير الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. البنادقُ تتبعُها،
وتطيرُ الحماماتُ. تسقطُ دافئةً فوقَ أذرعِ مَن جلسوا
في الرصيفِ يبيعون أذرعَهم. للحمامةِ وجهانِ:
وجهُ الصبيِّ الذي ليس يؤكل ميْتاً، ووجهُ النبيِّ
الذي تتأكّله خطوةٌ في السماء الغريبةْ.
وإذ يقف الناسُ في ساحةِ الطيرانِ جلوساً، يبيعون
أذرعَهم: سيدي قد بنيتُ العماراتِ... أعرفُ
كلَّ مداخِلها، وصبغتُ الملاهيَ... أعرفُ ما يجذبُ الراقصينَ
إليها. ورمّمتُ مستشفياتِ المدينةِ... أعرفُ
حتى مشارحَها، سيدي... لم لا تشتري؟ إن كفي
غريبةْ.
ـ أجسُّ ذراعك؟
ـ يا سيدي جسَّها...
ـ أمس... أين اشتغلتَ؟
تطيرُ الحماماتُ في ساحة الطيرانِ.. وعينا المقاولِ
تتجهان إلى الأذرع المستفزةِ. يدخل شخصانِ

سيارةَ النقلِ. . ثم يدور المحركُ، ينفثُ في ساحةِ
الطيرانِ دخاناً ثقيلاً. . ويتركُ بين الحمائمِ والشجر
المتيبسِ رائحةً من شواءٍ غريبةْ.

* * *

يقول المقاولُ: نرجع بعد الغروبْ.
تقول الحمامةُ: أهجع بعد الغروبْ.
يقول المغني: بلادي. . . لماذا يظل الغروبْ؟

٢

تطير الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. تريد جداراً لها
ليس تبلغ منه البنادقُ، أو شجراً للهديلِ القديمِ. . .
ارتفعنا معاً في سماءِ الحمائمِ صُغنا من الحجرِ
المتألقِ وجهَ الجدارِ، انتقيناه جزاً فجزءاً،
وقلنا لسعفِ النخيل وللسنبلِ الرطبِ: هذا أوانُ
الدموعِ التي تضحكُ الشمسُ فيها، وهذا أوانُ
الرحيلِ إلى المدنِ المقبلةْ.
ولكننا يا بلادَ البنادقِ كنا صغاراً، فلم نلتفتْ
لإله الجنودِ، ولم نلتفتْ للحقائبِ مثقلةً. . . نحن
كنا صغاراً. . . أقمنا جداراً ونمنا على مضضٍ،
والحماماتُ خافقةٌ في الهزيعِ الأخيرِ. لماذا تظلينَ
خافقةً؟ قد بنينا ملاذاً لنا، وغصوناً تنامين فيها، ونحن هنا في
الرصيفِ ـ المقاولُ يأتي. .

ويأتي إلهُ الجنودِ. . وتهوي على الوطنِ المقصلةْ.
تطيرُ الحماماتُ مذبوحةً، دمُها الأسودُ النزْرُ يسقطُ
فوقَ الجدارِ الذي قد بنيناه. يسقطُ مختلطاً بالرصاصِ.
وفي ساحةِ الطيرانِ تدورُ المدافعُ محمولةً. . . شاحناتُ
المقاولِ كانت تطاردنا والمدافعُ محمولةً. . يا بلادَ البنادقِ
إن الحماماتِ مذبوحةٌ، والجدارَ الذي قد بنيناه
بيتاً وغصناً، ينزُّ دماً أسودا، ويهزُّ يداً مثقلةْ.

* * *

يقول المقاولُ: جئنا لنبقى
تقول الحمامةُ: هل قال حقاً؟
يقول النقابيُّ: إن السواعدَ أبقى

٣

تعبنا: زماناً نلمُّ دماءَ الحمائم، نرسُمُ في السرِّ أجنحةً،
ثم نطلقها في القرى. . يا زمانَ الجذورِ الذي ما انقطعتَ
وما انقطعتْ عنك تلك الجذورُ هنا نحن في ساحةِ الطيرانِ وقوفٌ
أمام الجدارِ، نرمّمهُ قطعةً قطعةً، حجراً حجراً
ونمسّدُ أذرعَنا. . يا زمانَ الجذورِ انتظرنا طويلاً،
وها نحن نبني على هاجسِ الروحِ مملكةً فاضلةْ.
ويبقى لنا أن نحبَّ وأن لا نحبَّ. كرهنا كثيراً، كرهنا حقيقتَنا
والوجوهَ الأليفةَ. . حتى الجدارُ الذي قد بنيناه يوماً كرهناهُ،
يبقى لنا أن نحبَّ وأن لا نحبَّ. انتهينا إلى البدءِ، يا وطناً

ظلَّ ينزف أبناءَهُ بين قَصْرِ النهاية والماءِ والعجلاتِ السريعةِ
يا وطني. . لم يعد لي سوى أن أحبَّ، وأن لا أحبَّ، وبينهما
الطلقةُ الماثلةْ.
تباركتَ يا وطني. . إن كلَّ الوجوه التي غيبتْ بين قَصْرِ النهاية
والماءِ والعجلات السريعةِ. . ما غادرتْكَ، وما غادرتْ
منكَ غيرَ عذاباتِها. . وطني: زهرةً للقتيلِ، وأخرى
لطفلِ القتيلِ، وثالثةً للمقيمينَ تحتَ الجدارِ. .
تطيرُ الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. ارتفعْنا معاً. .
في سماءِ الحمائمِ. قلنا لسعفِ النخيلِ وللسنبلِ الرطب:
هذا أوانُ الدموعِ التي تضحكُ الشمسُ فيها، وهذا
أوانُ الرحلِ إلى المدنِ الفاضلةْ.

* * *

يقول المناضلُ: انا سنبني المدينةْ.
تقول الحمامةُ: لكنني في المدينةْ.
تقول المسيرةُ: دربي إلى شرفاتِ المدينةْ.

١٩٧٣/٧/١٧

ست قصائد

(١)

للأشجارِ المسقيةْ
للباراتِ المهجورةِ في ليلٍ هادئْ
لصديقٍ أفهمهُ
لفتاةٍ تعرفُ غيرَ الجنسِ، وغيرَ اللونِ الهادئْ
أرسلتُ بطاقاتِ بريدٍ لم تَبلغْ أحداً

(٢)

أحياناً، أسألُ: هل يأتي النسيانْ
بالرحمةِ، أو يأتي باللعنةْ؟

(٣)

في بغدادَ أرى ساحاتٍ تُسْلمني
لأزقّةْ
لكني لم أرَ في بغدادَ أزقّةْ
تُسْلم لي الساحاتْ.

(٤)

كلُّ القتلى أعرفهمْ
هل يعرفني الليلةْ
أحدٌ منهم؟

(٥)

بائعةُ الحلوى تضحكُ:
موعدُها الأولْ
قد فاتَ. . .
وموعدُها الثاني
مقترَحٌ قبلَ دقيقةْ. . .
أرأتْ في صوتكَ موعدَكَ الأولْ؟

(٦)

من سُومَرْ سِتْ مُومْ
أتذكّرُ رباناً أعمى
ظلَّ يقودُ سفينةَ شحنٍ
عبرَ ممراتِ الجزرِ الشرقيةِ أعواماً. . .

١٩٧٢/١١/٢٤

مزرعة الزاهي محمد

لكِ يا قُبَّعةً من أزهار الفلفلِ تَزيَّنُ بالأوراقْ
لكِ يا رائحةَ الأوراقْ
لكِ يا أولى الأزرارِ على الداليةِ الأرضيةِ
يا أولى الأوراقْ
أرفعُ كأسَ الوحلِ وأشربُ نخبكِ. . .
قولي: ملتجئاً كنتُ
وقولي: منتبذاً جئتُ. . .
وقولي أيتها الأوراقْ. . .
فحديقةُ بيتي تُنبتُ أغصانَ العنبِ الذئبيّ
وتُسكتُ قمصانَ العشاقْ.

❋

في مزرعةِ الزاهي بنِ محمدٍ استيقظتُ
رأيتُ الأشياءَ: فُجاءَتَها. . .
هذا الجرحَ المدهشَ في أن يُصبحَ شيءٌ ما
حقاً ليس يناقشُ. . .
قانوناً للعشبِ، وللعنبِ الأحمرِ،
والمدرسةِ الريفيةِ، والأجرِ الأسبوعيِّ. . .

إلى آخرهِ. . .
أن تُدْهَشَ حين ترى الواحدَ والواحدَ، اثنين
لماذا؟
مزرعةُ الزاهي بنِ محمدٍ امتدّتْ
بين طريقِ «تلمسان» و«وجدةَ»
بين الحقِ الفادحِ
والخطأِ الفادحِ. . .
بين الأسيجةِ الشرقيةِ، والأسوارْ

*

أيتها الأرضُ العربيةُ، يا من تصطدمين بنفسكِ
يا من تُلقين بنادقَ ثواركِ
في مستنقعِ أغواركِ. . .
يا من ترتجفين لأنكِ ما خنتِ
ولكنَّ مَزارعَ خانتْ. . .
لكِ مزرعةُ الزاهي بنِ محمدْ:
فلاحٌ في حربِ التحريرْ
قاتَلَ في الصحراءِ، وفي الجبل الغربيِّ. . .
وفي مدنِ الريفِ
وأُعدِمْ. .

٤/ ٢/ ١٩٧٤

نجمة سبارتاكوس

خمسون رايةً حمراءَ على بواباتِ قصرِ الشتاء
خمسون قطاراً مصفحاً من بتروغراد حتى فلاديفوستوك
خمسون سفينةَ قمحٍ من الفولكا إلى أطفالِ المدنِ الجائعة
خمسون وردةً لقومسارِ الشعب
خمسون مليونَ عاملٍ حول لينينَ الجريح
خمسون اطلاقةَ كاتيوشا لسبارتاكوس المنتصر
خمسون
خمسون
خمسون
خمسون مركبةَ فضاءٍ لأبناء الحرسِ الأحمر
لفتيانِ الطلائع . . .
وفتياتِ الكومسومول
مرةً، في القطارِ المسافرِ بين القرى والعواصمِ
أبصرتُها نجمةً . . . لم تكنْ كالنجومِ التي وَهبتْ
يوليسيسَ ارتحالَ التمزقِ، أو وَهبتْ
سندبادَ العراقِ اندهاشاتِهِ والمرافئَ، إذْ
يشحبُ الضوءُ فيها .

لم تكن نجمةً للمجوس الثلاثةِ، حينَ
الولادةُ والموتُ معتنقانِ، وحينَ العناقُ انهيارْ.
ثم أبصرتُها في كتابٍ نخبئه عن خطى الشُرطّي
الخفيّةِ، كان الكتابُ المخبأُ ينشر أسماءنا في الرياحِ
الجديدةِ، يُطبع في «موسكفا» مرةً، ثم يُطبع في القلبِ أخرى،.
ويُطبع فوقَ السلاسلِ
نافذةً وغداً أحمرَ الأفقِ... يمتدُّ هذا الكتابُ
يصيرُ جناحينِ... يغدو عواصمَ تسكنها
النجمةُ الساهرةْ.
نجمةٌ في خطى الفقراءْ
نجمةٌ في الخلايا التي لم تزل بعدُ سريةً
نجمةٌ في جبينِ المناضلْ
نجمةٌ فوق خوذاتِ من قاتلوا عند أبوابِ موسكو
ومن قُتلوا في شوارعَ مجهولةٍ... هبر قاراتِنا الخمسِ
من أجلِ نجْمةْ...
خمسون اطلاقةَ كاتيوشا لسبارتاكوس المنتصر!
خمسون
خمسون
خمسون
خمسون مركبةَ فضاءٍ لأبناء الحرسِ الأحمر
لفتياتنِ الطلائع..
وفتياتِ الكومسومول!

ثلاث قصائد

بداية مقترحة إلى جورج سيمنون

كان يجلس في مشربٍ... هو والكلبُ
والشمسُ تلمعُ في الكأسِ،
في عيني الكلبِ
في مفرِقِ الرجلِ المتعدّي الثلاثينَ...
كان الثلاثةُ:
الرجلُ المتعدي الثلاثينَ
والكلبُ
والكأسُ
لا يبصرون الغصونَ الأخيرةْ
وهي تُسقط أوراقَها في الرصيفِ المقابلِ،
لا يبصرون الموائدَ تُقفزُ...
ها هو ذا الباصُ يأتي...
ويتركهم وحدَهم في جزيرةْ

١٤/ ١/ ١٩٧٣

حديث يومي

حينَ قال «انتهينا ولم نبتدئْ»
سقطتْ في فراغِ المعاني يداهُ
يومَها، كنتُ منتظراً أن أراهُ
أن أرى العشبَ في صوته والجبلْ
أن أرى ما يراهُ
غير أنّا انتهينا ولم نبتدئْ
وامتهنّا ولم نبتدئْ
واتّركْنا بذاكرةِ العشبِ كلَّ مراقي الجبلْ

*

هل تكون النهايةُ أن نشتري ورقاً
للسقوفِ التي تسترُ الخاتمةْ؟
هل تكون النهايةُ أن نحذقَ الكلماتِ
التي لا تغادرُ بسمتَنا الدائمةْ؟
هل تكون النهايةُ فينا؟
هل تكون المراثي أغاني المهودِ التي ترتضينا؟

*

كم أقول: انتظرتُكَ

ها انتذا جئتَ. . .
قلتَ انتهينا ولم نبتدئْ
ـ حسناً، فلنغادرْ معاً. . .
غير أني سأبحثُ في حانتي عنكَ،
أو عن سواكْ
في الليالي التي لا تراكْ
والليالي التي طعمُها أولُ.

١٥/ ١/ ١٩٧٣

البرج

كلما ضقتُ بالسهل، واجَهَني عالياً. . .
كان صخرُ الجبالِ القريبةِ ينمو عليه، وتنمو على
الصخرِ أعشابهُ. . .

كان برجاً قديماً.
منه أُبصرُ حتى القلاعَ مُوَطّأةً، والسماءَ التي يحتويها
سديما

كان برجاً قديماً
مائلاً لليسار قليلاً، ومنهدمَ البابِ
يدخلُه الصاعدونْ
ويخرجُ منه الذين يرون النجومَ القريبةْ.
ولقد يأخذُ السائحونْ
في حقائبهم بعضَ أحجارِه. . للمعارضِ والكتْبِ
والمدنِ المستريبةْ.

وهو يسخر، في صمته، عالياً. . .
مُشْرِعاً بابَهُ المنهدمْ

مائلاً لليسار قليلاً
ماثلاً في المعارض والكُتْبِ والمدنِ المستريبةِ همّاً مقيماً
كان برجاً قديماً .

١٩٧٣/١/١٦

أغنية للشعر الطويل

في العشبِ الماثلِ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ راقبتُكِ
يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
بيديك عناصرُ أربعةٌ، صورٌ أربعُ ظلّتْ تلعبُ بي
منذ فتوّتيَ الأولى
منذ كتابي الأولْ.
لا أسألكِ اليومَ قراركِ
لا أملكُ أن أسألكِ اليومَ قراركِ
لا أملكُ غيرَ النظرِ الأولْ.
سيدتي. . . سيدةَ الزمنِ المثقلْ
أهجسُ أحياناً أنكِ مثلي. . .
أن يديكِ تشدهما الصورُ الأربعُ. . .
أن الحلّ ـ
سيظل الليلةَ مرتهناً بالعشبِ الماثلِ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ. . .
سيدةَ الزمنِ المثقلْ
لكِ أن تمتنعي عني
لكِ أن تبتعدي عني.
لكِ أن تغتسلي مني

لكن ليس لكِ اليومَ، ولا الغدوةَ
أن تقترحي سني
فأنا بين عناصركِ الأربعةِ. . . الأولْ
وأنا. . . يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
حاورتُ الصورَ الأربعَ، حتى كدتُ أحاولُها
حاولتُ الصورَ الأربعَ، حتى كدتُ أحاورُها
عبثاً. .
يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
فالعشبُ الماثلُ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ. . . طالْ
والليلُ المتطاولُ طالْ
والشَعر على الناصيةِ الثوريةِ طالْ
يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ. . . .
فلمن اقرأ حتى الآن كتاباً أولْ؟

٢٨/ ١١/ ١٩٧٣

الأخضر بن يوسف ومشاغله

(١٩٧٢)

سيدة النهر

توهمتُ إنكِ زاويتي، والمدارُ الذي يقفُ النجمُ فيهِ
توهمتُ نخلَ السماوةِ، نخلَ السماواتِ
حتى حسبتُكِ عاشقةً،
فانتظرتُ النهارَ الذي يطلُعُ النجمُ فيهِ
توهمتُ
أَوهمتُ
لكن أرضيّةَ الوهمِ يغسلُها ضابطٌ ملكيٌّ تَلَبَّسَ عينيكِ
سيدةَ النهرِ!
هم يعشقونَ، ولا يملكونْ
ولكنهم حينما تغرقينْ
يمدّون كلَّ الخيوطِ التي قطّعتْها احتراقاتُهم
إن كلَّ الزنابقِ في الماءِ لم تنتظرْ مثلَ عرسِكِ
طافيةٌ أنتِ
بين الخيوطِ التي قُطّعتْ، وانتظارِ المدارْ

بغداد، ١١/ ٥/ ١٩٧٢

الأخضر بن يوسف ومشاغله

نبيٌّ يقاسمني شقّتي
يسكن الغرفةَ المستطيلةْ
وكلَّ صباحٍ يشاركني قهوتي والحليبَ، وسرَّ الليالي الطويلةْ
وحين يجالسني،
وهو يبحث عن موضعِ الكوبِ في المائدةْ
ـ وكانت فرنسيةٍ من زجاجٍ ومعدِنْ ـ
أرى حولَ عينيهِ دائرتينِ من الزرقةِ الكامدةْ
وكانت ملابسنا في الخزانةِ واحدةً:
كان يلبسُ يوماً قميصي
وألبس يوماً قميصَهْ
ولكنه حين يحتدُّ. . .
يرفضُ أن يرتدي غيرَ بُرنُسهِ الصوفِ. . .
يرفضني دفعةً واحدةْ
ويدخلُ كلَّ المزارعِ:
يحرثُ
أو يشتري سكّراً
أو يقولُ العلامةْ
ولما التقينا على حافةِ البارِ

أخرجَ من جيبه زهرةً، وانحنى
هامساً: إنها لي. . . أتيتُ بها
عبْرَ أسوارِ «وَجدَةَ» حيثُ الحدودُ
التي ما تزال معاركَ. . . لكنها
ـ ويقدّمُ لي زهرةَ الآس ـ ملْكٌ
لكَ الآنَ. . . إفعلْ بها ما تشاءُ
سوى أن أراها بجيبكَ ذابلةً. . .
آهِ؛ وجدةُ، وجدةُ. . . إن طريقَ «الصخيراتِ»
يغلقه الحرسُ الملكيُّ. . . أتيتُ بها
من هناكَ، وخبّأتها بين جِلدي وأحذيةِ
الحرسِ الملكيِّ التي أثقلتْها المساميرُ
ـ يكشف لي صدرَه مسرعاً، ثم
يُغمضُ عينيه ـ وجدةُ. . . وجدةُ. . .
كيف تكونين لو جئتِ عندي!
يرافقني في زيارة محبوبتي. . .
ثم يدخل قبلي
يقبّلها في الجبينْ
وينظر في مقلتيها طويلاً، ويجلسُ في آخرِ الحجرةِ المعتمهْ
وإذ أرسُمُ الرغبةَ المبهمهْ
وسائدَ، أو منزلاً
يرسمُ الرغبةَ المفعمهْ
نسوراً ـ طباشيرَ، فوق الجدار الذي يحمل النافذهْ

ويدنو. . .

لِيأخذَ كفَّ الفتاةِ (أنا جالسٌ لِصْقَها)

ثم يمضي بها خارجَ الحجرةِ المعتمهْ

على باب سبتةَ كان رجالُ الجوازاتِ خلفَ مكاتبهم

يحتسون النبيذ الرديءْ

وفي البعدِ. . .

حيث المدينةُ في ليلة العيدِ

تخترق الشهبُ الاصطناعيةُ الأفقَ المتلبدَ

كانت تضيءُ

تضيءُ

تضيءُ

وظل رجالُ الجوازات خلفَ مكاتبهمْ

يعلكون النبيذَ الرديءْ

تتبّعتُهُ، خجلاً، ما يزالُ الذراعانِ معتنقينِ،

انتظرتُ قليلاً أمام التقاطعِ، كانت

فتاتي تشير إلى واجهاتِ المخازنِ ضاحكةً. . .

كان يسخر منها، مشيراً إلى الشجرِ المتطاولِ

في مدخلِ المسبحِ البلديّ. . . استدارا،

فأسرعتُ خطوي وراءهما. . . ها هما

يدخلان الحديقةَ: هل تبصرينَ الغصونَ الصغيرةَ؟

هل تلمسينَ بها الخضرةَ البِكرَ؟ هل تسمعينَ

بها النبضَ مندفعاً؟ قرّبي ذلك الغصنَ

منكِ. . . اجعليه لصيقَ ذراعِكِ. . . كوني
له نُسْغَهُ، وليكن في ذراعيكِ منهُ
ارتسامُ الوريقاتِ. . . حريةُ الطفلِ حينَ
يلامسُ أهدابَهُ في المرايا.
وقبّلَ زندَ الفتاةْ!
سأستخدمُ اسمَكَ. . .
معذرةً
ثم وجهَكَ. . .
أنت ترى أن وجهكَ في الصفحةِ الثانيةْ
قناعٌ لوجهي
وأنت ترى أنني أرتدي الربطةَ القانيةْ
أتذْكُرها؟
يوم كنا معاً في «الحسيمَةِ»،
حيثُ اهتدينا إليها
ويومَ قصدتَ المصوّرَ، قبلَ جوازِ السفرْ
وقبلَ السفرْ
وقد كنتُ ألححتُ أن ترتديها
رجالُ الجوازاتِ خلفَ مكاتبهم
يعلكونَ النبيذَ الرديءْ
وكان جوازُ السفرْ
يُطالعهم، واحداً، واحداً. . .
بين أختامهم والنبيذِ الرديءْ

بغداد، ٢٥/ ٥/ ١٩٧٢

كابوس

١٠ شارعُ لامورْ سِيَّير
الجزائرْ.
فندق رطبُ البابِ. . .
دقَّ الجرسْ
لحظةً. . .
كان من مطرِ الليلِ شيءٌ على الشارعِ الضيقِ
وعلى الشرفات الصغيرةِ كان يئنّ الجيرانيوم.
دقَّ الجرسْ
لحظةً. . .
إن بين المطاراتِ والأرضِ ما بيننا والجذورْ.
هدأَ الصوتُ تحت القميصِ السويسريّ. . .
دقَّ الجرسْ
لحظةً. . .
كانت العتمةُ المستسرهْ
ما تزال غيوماً، روائحَ تبغٍ، وخُضرهْ
كانت العتمةُ المستسرةُ جلْدَ الحقيبةِ، مطروحةً في الندى،
وثيابَ الحبيبةِ. . .
دقَّ الجرسْ

فجأةً. . . يُفتَح البابُ وحدَهْ:
الممرُّ يدورُ على نفسه، في الظلامِ القديمِ.
الممرُّ يدور على نفسهِ نصفَ دورهْ.
ثم يرقى على درجاتٍ تآكلَ فيها الحجرْ
والرطوبةُ تُلصق بالجلدِ هذا القميصَ السويسريَّ.
تُلصقُ بالخوفِ وجهَ المسافرِ، تلصق بالسلَّم الحجريِّ
خطاه الغريباتِ، تلصق بالأرضِ جلدَ الحقيبهْ.
سقطتْ في الظلام الحقيبهْ
وأمامَ ارتعاشِ المسافرْ
وأمامَ الظلامِ القديمْ
كان جسمُ القتيلْ
يتأرجحُ. . .
كان اتساعُ العبادهْ
يتأرجحُ. . .
عن قدميه اللتين تنوسانِ
عن قدميه اللتين تنوشان، مشقوقتينِ،
حجارَ السلالمْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس ١١/ ٥/ ١٩٧١

عبور الوادي الكبير

بَعُدنا عن النخلِ. . .
ها هي شمسُ القرى تمنحُ النخلَ غاباً من الريشِ أحمرَ
ها هي أكواخُنا:
ـ سعفةٌ نستظلُّ بها أو وَقودٌ لبغضائنا ـ
كلُّها تهبطُ الأرضَ، كوخاً فكوخاً، وتلقي بها الأرضُ
للماءِ. .
كنا نمدُّ لها شعرَ أطفالنا:
سروةٌ شَعرُ أطفالنا
أمسكيها
أمسكينا بها. . .
غير أن المنازلَ مثل الطباشير تُمحى
من الأرض تُمحى
وفي الماء تُمحى
وها نحن بين المُدى والسماءِ وحيدينَ
يا أرضَنا المشتراةَ المباعةَ، والمشتراةَ المباعةَ، ثانيةً
أنتِ يا وجهَ من يتذكّر منها شهادةَ ميلادهِ:
بَعُدنا عن النخلِ

ها هي شمسُ القرى تمنحُ النخلَ غاباً من الريشِ أحمرَ
ها هي شمسُ القرى تمنح النخلَ غاباً
وها هي شمسُ القرى
ها هي. .
ها هي. .
ها. . .
هي. . .
كواكبُ مائيةٌ في السماءِ التي تعرفُ الصيفَ والسفنَ
الأمريكيةَ الصنعِ،
* في المتوسط لا تستحم الكواسجُ
* هل تذكرين المنازلَ؟
* تلك التي غادرتْها السفنيةُ؟
* لا.
* حانةَ البحرِ في أورَ؟
* لا.
* دارتي في سمرقندَ!
** لا.
إن كلَّ المنازلِ مغلقةٌ، فأمامَ الوجوهِ
الشريدةِ لا يفتحُ الناسُ أبوابَهمْ
قد نسِينا بقرطبةَ، الشرفةَ الأمويةَ،
والطفلَ. . حينَ نسافرُ ننسى الحقائبَ،
أو نتناسى متاعبَنا وكتابَ القصائدِ
يا أيها الفارسُ المستحيلُ: تظل المسافاتُ

تنأى، وفي مقلتيكَ تغورُ الشواطئُ،
لا تكتئبْ فالحوافزُ فيها الشرارُ، وهذا
السبيلُ الحجارُ. . .
* ولكننا قد بَعُدْنا عن النخلِ. . .
* آخرُ راياتِ كولمبسَ المستدقةِ تُبحر من برشلونهْ
* وآخرُ أبراجِ غرناطةَ اقتحمتْهُ خيولُ الشمال.
تصيرُ المسافاتُ لي رايةً. . أن أهلي بعيدونَ
لا تحملُ الطيرُ أخبارَهم لي، ولا تحملُ الطيرُ
أخبارَنا
لهمو. . يا جناحَ الليالي الطويلةِ، كُنْ موطني
والكتابَ الذي ليس يُطبع. . كنْ في مقاهي
المحبينَ
دورةَ شايٍ. وفي شفتَي من أُحبُّ: الشقائقَ
والرجفةَ المستسرةَ. . كنْ يا جناحَ الليالي
الطويلةِ نجمي. . لقد ضيَّعَ القطبُ
نجمَ الهداةِ. . ولكن أهلي البعيدينَ ما برحوا
بانتظاري. . .
* إلى أين تذهبُ يا فارسَ الليلِ؟
* أهلي بعيدونَ سيدتي. . .
* إنني بانتظارِكَ منذُ ليالٍ ثلاثٍ. . . علمتُ بأنكَ آتٍ. .
أتنزلُ؟
* سيدتي. . . حين أنزِلُ أُقتَلُ
* تُقتَلُ في منزلي؟

* آهِ سيدتي. . . إنني متعبٌ. . غير أني. .
وداعاً
وداعاً

* * *

وغادرتُ منزلَها. . كان في بابه القرطبيّ صنوبرةٌ
كنتُ أسمعُ نبضَ العصافيرِ إذ تتنفسُ نائمةً
بين أفنانها والنجومِ الخفيضةِ. ، أحسستُ
أن العصافيرَ سوف تموتُ صباحاً.

* * *

حين ناديتُهُ: فارسَ الليلِ! شدَّ العنانَ
قليلاً. كثيرونَ مرّوا ببابي، ولكنني
لم أجدْ مثلَهُ. . . شاحباً كانَ، ضمآنَ،
لكنه رفضَ الماءَ من جرتي. . . لم يقفْ
مثلَ فرسانِ قرطبةَ الآخرينَ يغازلني. . .
قال شيئاً، وسارْ. . .

* * *

على باب جَيَّانَ في قرطبةْ
رآه الندى يدخلُ المسجدَ المتوحدَ، في آخرِ الليلِ،
كان الندى خُصَلاً في جبينِ المسافرِ، والليلُ
إغماضةً في عيونِ الجوادِ، وكانت نوافذُ
قرطبةَ المشرئبةُ بالوردِ تنتظرُ الخطوةَ الملكيةَ،
ألقتْ نوافذُ قرطبةَ الوردَ. . غطّتْ به غبرةَ السفرِ
المستديمةَ فوق قِباءِ المسافرِ، والتعبَ المرَّ

في لفتاتِ الجوادْ.
وفي لحظتينِ رأيناهُ يخرجُ من بابِ مسجدِنا
أغلقَ البابَ. سمَّرها، دوننا، تحتَ إغضاءِ عينيهِ،
ثم اعتلى صهوةَ الفرسِ المتمايلِ بين غصونِ الصباحِ
المبكرةِ الطيرِ، والنسوةِ المسرعاتْ..
وكانت ورودُ المسافرِ تهطلُ... والنسوةُ المسرعاتُ
يخبئنها في صدورِ الصبايا.
ذهبتُ إلى السوق، كنتُ غريباً به، متعباً، والتّجار
يدورون حولي...
يقولون لي: نشتري منكَ هذا القميصْ
وكانوا يمدُّون أيديَهم نحوهُ:
نشتري منكَ هذا القميصَ الملطّخْ
ولكنه رايةٌ لبسْتني غَداةَ الهزيمةْ.
جوادي على الوادي الكبير، ورايتي
بغرناطةِ الأبراجِ، يكنزُها الصخرُ
فلا تسألوا عني وعنها، فإننا
لها آخرُ العشاقِ، والهاتفُ السرُّ
لقد كان لي فيها أنيسٌ، وإن لي
أنيساً بها، حتى لو اجتاحَها العصرُ
وغُيّبَ ما بين القلاعِ وسهلِها
كتائبُها العشرونَ والسامرُ البدرُ
«إذا عَلَمٌ خلّفتُهُ يُهتدى به

بـــدا عَـــلَـــمٌ فـــي الآلِ» أشـــقـــرُ مـــفـــتـــرُّ
فـــشـــدَّ عـــلـــى كـــفّـــي، وأطْـــلَـــعَ زهـــرةً
من الصدرِ
عندَ القلبِ. . .
وانهمر الزهرُ

قميصي. . لكل المشترين أبيعهُ
وسيفي
وعينا جوادي.
أنا الآنَ منجردٌ بينكمْ
فاحملوا كلَّ ما يُشترى
ـ هل خسرتُ سوى عبءِ أغلالِكم؟ ـ
علِّقوا فوقَ جدرانِ قاعاتِكم غِمدَ سيفي
وعينيَ جوادي الجميلْ
اجعلوا من قميصي حديثَ اجتماعاتِكم
ـ هل خسرتُ سوى عبءِ أغلالِكم؟ ـ
واتركوني وحيداً
دعوني أقلْ ما أشاء
دعوني أكنْ من أشاء
دعوني أمتْ، أو أعشْ نجمةً
فغرناطةُ العشقِ عريانةٌ، وحدَها
إن غرناطةَ العشق عريانةٌ وحدَها

بغداد، ١٣/ ٣/ ١٩٧٢

وأنا أنظر إلى الجبال

في الجبالِ تكونُ الغيومُ رماديةً،
والجبالُ رماديةً، لو عرفتُ الطريقَ
إليها، ولو جئتُ ألمس أهدابَها
بحفيفِ الصنوبرِ، أفتضُّ أثوابَها
بدموعِ الصنوبرِ،
لكنني مثقلٌ بقميصي
مثقلٌ بخطايَ الأليفهْ
مثقلٌ بالوجوه التي ترتديني.
مثقلٌ بالصفاتِ
قد تجيئين عبرَ البنادقِ، أو عبرَ صَمْتِ الخلايا
قد تجيئين عبرَ انقلابِ المرايا
ولأني أرى في امتلاءِ الشفاهِ، امتلاءَ الينابيعِ
عندي،
لأني أرى في خفوتي بذورَ الأناشيدِ
عندكِ،
يا امرأةً في ثيابِ المحاربِ،
فالليلُ يفرشُ غصنين: لي، ولكِ، الليلُ

يعرف أنا نحبُّ، وأنّا نهبُّ،
وأن انتظارَ الخلايا
يطولُ
وأن انقلابَ المرايا
يطولُ
وأن عيونَ البنادقِ قد أُطفئتْ في البيادقِ،
والليلُ يعرف أنكِ عندي
تعيشين في ليلةً
وتدورين بي ليلتين
وأنك يا امرأةً في ثياب المحارب سوف تعودين لي كل ليلهْ
وليكنْ!
كان غيمٌ من المتوسط، يبيضُّ، فوق جبال الجزائر
فوق الشقائقِ والنرجسِ المتوحشِ،
كانت صواري السفنْ:
* ناقلاتِ النبيذْ.
* ناقلاتِ الحديدْ.
* ناقلاتِ الوقودْ.
* ناقلاتِ البطالةِ
كانت صواري السفنْ
وحدَها، الضوءَ فوق جبالِ الجزائرْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس، ٢٦/ ٥/ ١٩٧١

الشارة

لجنود المظلاّتِ فيوطني أمنحُ الشارةَ القرمزيةَ،
للعَلَمِ الفردِ فوق الربيئةِ
للحارس المتلفّعِ في أولِ الجسرِ. . .
للمدفعيةِ. . .
أمنحُها للعريفِ الذي يرصدُ الطائراتِ المغيرهْ.
ولكنْ. . . لمن أمنحُ الشارةَ القرمزيةَ غيرهمو؟
أن تكون المكاتبُ جسري
وأن أرفعَ الختمَ لي رايةً؟
إنني داخلٌ بالحقائبِ في أرض «دارينَ»، فارغةٌ كلُّ هذي
الحقائبْ.
إنني خارجٌ بالحقائب من أرضِ «دارينَ»، فارغةٌ كلُّ
هذي الحقائبْ.
ـ تَعجبون لأن العصافيرَ قد عقدتْ أمسِ
مؤتمراً ثانياً ناقشتْ فيه أكلَ الذُّرهْ!
نَقْرةً
نَقْرةً
نقرتين اثنتين معاً

نقرةً واحدةً
هكذا علمتني العصافيرُ أسرارَها، منحتْني
مفاتيحَ أهراءِ «دارينَ»، لكنني ـ وأرى
أنكم تَعجبون ـ أكلتُ لساني القصيرَ،
وأطعمتُ أطفالَ «دارينَ» منهُ. . .
نَقْرةً
نَقْرةً
نقرتين اثنتين معاً
نقرةً واحدةً
كلُّ أطفالِ «دارينَ» جاءوا. . .
أيها المقبلون على أرض «دارينَ»
إن لنا إخوةً
حينما يخطئون نموتُ
وحين نراهم يصيبون نُشتَمُ
يا وطني: صفقةً!
نتبادل فيكَ المواقعَ
كن مرةً حَكَماً، لا تكن حاكماً!
ها هم المقبلون على أرض «دارينَ»،
بين الحقائبِ والقبّعاتِ يديرون أعناقَهمْ:
ـ انظروا في كتابِ التعاليمِ:
* لا تشربوا الكأسَ دون الثمالهْ
* لا تمطوا الشفاهَ التي لم تعدْ تقبلُ المطَّ. . .

❋ لا تصبغوا الأحذيةْ.

لم يروا منكَ يا وطني غيرَ أوراقِهم ونساءِ المعارضِ...
أنتَ لهم مكةُ السائحِ الأجنبيِّ
وكُحلُ العيونِ التي لا ترى
أيها الوطنُ المنتهي بانتهاءِ حروفِ الهجاءِ وتاريخِ أسمائهمْ
آهٍ... قفْ لحظةً لي
كم وقفنا لأجلكَ... نحن الذين رأيناكَ في لحظةِ الروعِ أبهى
آهٍ... قفْ لحظةً لي
لكَ عندي السماءُ التي تشتهي، والهواءُ الذي هو أبهى
ضيّقٌ أيها المتداركْ!.
أكورُ من يديكَ حمامتينِ؛ وأطلقُ الدنيا
وراءهما...
ـ تعالَ
تعالَ...
يا زمنَ الخنادقِ
نحن نرجفُ في العراءِ...
ـ تعالَ...
يا زمنَ البنادقِ
نحن نبكي طلقةً حتى ولو صَدِئَتْ.
نريد نحاسَها يخضرُّ تحتَ جلودِنا،
ورصاصَها يسودُّ بين عروقنا، والأرضِ...
ينبت في مضاجعنا لتنبو، يستفزّ مواطئَ العشاقِ

مثلَ الجمرِ، يُزهرُ في مزارعنا . . . سياجاً للحدودِ،
وللغدِ المتزاوجِ الطبقاتِ . .
نحن نبكي طلقةً حتى ولو صَدِئَتْ!

بغداد، ١٩٧٢

عن المسألة كلها

سـمـوتُ، فـردّتـنـي سـمـاءٌ خـفـيـضـةٌ
وعُـدتُ، فـمـا أشـقـى الـمـعـادَ، ومـا أبـهـى
إذا وَرَدَ الـشُـذّاذُ خُـمْـسـاً وجـدتُـنـي
أرى الـحـقَ، مـحـضَ الـحـقِ، أن أَرِدَ الـرِّفْـهـا
وتـلـكَ عـيـونٌ بـالـرمـيـلـةِ أُوقـدتْ
هـي الـمـنـتـأى، والـدارُ، والـمـأمـلُ الأشـهـى
بغدادُ تسكنُ تحتَ مئذنةٍ، نهارَ الفاتحِ التتريّ. . .
كنتُ أظنُّ وجهَكِ طالعاً لي خلفَ هَفَّةِ سعفةٍ،
وكأنّ آلافَ الأزقةِ يحتويهِ واحدٌ منها؛ غبارُ
الخيلِ والعجلاتِ في وَهَجِ الظهيرةِ كان آلافَ المرايا:
لو تراءتْ عنكِ، واحدةً، فواحدةً، لكنتُ
منحتُها صدري، وكنتُ وهبتُها سري،
وكنتُ ضممتُها. . . فأضمَّ حتى لو خيالاً منكِ. . .
سيدتي الجميلةَ!
إن كلّ الليلِ يهبطُ، والمآذنَ تسكنُ العَتَماتِ
سيدتي الجميلةَ!
أنتِ ضائعةٌ. . . مراياكِ الرهيفةُ ليس فيها غيرُ وجهِ

الفاتحِ التتريّ. . .
سيدتي الجميلةْ!
الليلُ تحتَ الجسرِ يجلسُ.
كان شخصٌ ما يراقبُ في المسنّاةِ النجومْ
حتى إذا ما جئتُ. . .
ـ قفْ!
قفْ!
لا تخفْ!
أغضى قليلاً وهو يرقبُ تحتَ أحجارِ المسنّاةِ النجومْ
ـ هل جئتَ تبحثُ عن حبيبتكَ التي ضيّعتَها بين المدائنِ؟
هل تقاذفتِ التخومْ
أثوابَها، حتى أتيتَ هنا، هنا تُسائِلُ عن مدينتها النجومْ؟
سأقول شيئاً: إنها عبرتْ.
وهذا الجسرُ بينكما. . .
وذاك الحارسُ التتريّ. . .
والأفقُ الذي فَقَدَ الغيومْ
يــقــرّبــنــي مــن آخــرِ الــلــيــلِ أنــنــي
أرى الـوهـمَ أشـجـاراً بـعَـتْـمـتِـهِ تـعـلـو
يُـلامـسُ مـنـهـا الـنـجـمُ لِـيـنَ ارتـواءةٍ
وتـنـهـلُ مـنـهـا الأرضُ مـا غـيـرُهُ الـنـهـلُ
غـصـونٌ بـأطـرافِ الـعـراقِ، ودونَـهـا
ودون الـذي أمّـلْـتُ، مـمـتـنـعٌ سـهـلُ

أسريتُ عبرَ الجسرِ، أقطعُه، قروناً. . . كنتُ أسري،
كانت الأحجارُ تشربُ هاجسَ الظلماتِ، ثم تعيدهُ
لي خفقةً في القلبِ، أو إشراقةً في العينِ،
أو إسراعةً في خطويَ الأبديّ. . . أن الجسرَ
ما بين الرصافةِ والرميلةِ كان أبعدَ. . . كان أبعدَ. . .
كان أبعدَ من يديكِ. . .
حبيبتي!
ضعنا، وضَيَّعْنا. . ولكنّا نتابع هاجساً هو
حبلُنا السُّرِّيّ، رايتُنا الخبيئةُ، والخيارُ الصعبُ. .
سيدتي الجميلةَ!
إن منتصفَ الطريقِ حماقةٌ، والليلُ منتصِفٌ،
وأنتِ هناكَ ما بين المدائنِ والتخومِ. .
حبيبتي!
ضِعنا، وضَيَّعْنا. . . ولكنّا قَطعنا الجسرَ حتى
نصفِهِ الثاني. . .
وخيَّمْنا.
للحارسِ التتريّ وجهُ من شمالِ الأرضِ. وجهٌ من جزيرهْ
يحتاطُها بحرُ الشمالْ
للحارسِ التتريّ مركبةٌ بها أسدٌ ـ جوادْ
قد كنتُ أرقبهُ. . .
رأيتُ أصابعَ الأشجارِ قربَ نهايةِ الجسرِ الأخيرهْ
تمتدُّ. . .

تهبطُ. . .

كان وجهُ الحارسِ التتريّ يشحبُ. . .

كان جسمُ الحارسِ التتريّ بين أصابعِ الأشجارِ،

ملتوياً،

طريحاً بين ضوءِ الفجرِ والأسدِ ـ الجوادْ

ولــمّــا ركــزْنــا بــالــعــراق رمــاحَــنــا

تَــدافَــعَ مــن أدنــى مــنــابــتــهــا الــصــبــحُ

تــعــالَــوا إلــيــنــا: مــتــعَــبــيــنَ ورُمَّــضــاً

تــعــالَــوا إلــيــنــا: إنــه الأمــلُ الــجــرحُ

أقـيـمـوا. . . وكـونـوا الـمـاءَ يـمـنـعُ نـفـسَـهُ

وكــونــوا رمــاحَ الــمــاءِ إن أورقَ الــرمــحُ

لـكـأنَّ وجـهَـكِ فـي يـديَّ سـحـابـةٌ أولـى،

بياضُ منازلِ العمالِ في سفحِ الجزائرِ. . .

لـهـفـةُ الأعـلامِ وسْـطَ الـسـاحـةِ الـحـمـراءِ،

وجــهُــكِ فــي يــديَّ حــمــامــةٌ. . .

حـيـن الـتـقـيـتُـكِ كـانـتِ الآبـارُ طـافـحـةً،

وفـي حـقـلِ الـشـمـالِ أحـبَّـكِ الـعـمـالُ،

ها هم عاشقوكِ يغازلونكِ:

حلوةْ

يا حلوةْ

ركضنا اليوم للجلوةْ

ومن كركوك جيناها

من كركوك والبصرةْ
جينا اليوم للحلوةْ
جينا اليوم للجلوةْ

بغداد، ٢٧/ ٦/ ١٩٧٢

المملكة الثالثة

نحن في الكتبِ الأجنبيةِ نرحلُ،
أو نشتري الشِعرَ،
أو نلمسُ الثورةَ امرأةً. . .
نحن نبني سقوفَ المقاهي التي هبطتْ في المياهِ
نحن نضحكُ:
ـ كأسينِ
ـ أكثرَ
لكننا سوف نبكي
مثلما كان آباؤنا
يضحكونَ ويبكونَ
أو مثلما سوف يصبحُ أبناؤنا.
في الليالي الطويلاتِ نبحث عن وجهها. . .
غادرتْنا مساءً،
وفي جيبها حملتْ كلَّ ما يَهَبُ النفَسَ المحضَ معناهُ.
ها نحن في شهقةِ الفحمِ نعزلُ ما كان منها
نعيش بهِ
أو لهُ. .

غير أنّ التأملَ ليس التعاملَ . .
تلك التي غادرتنا مساءً
إلى المدنِ الساحليةِ . . .
تستقبل الصامتينْ
إنه يصنعُ الوهمَ حلماً
إنه يصنعُ الحلمَ في صمتهِ شجراً
أيها الواقفون على خطوتينِ من الغابةِ المستكنّةِ تحت أصابعِكمْ :
أقبِلوا
أقبِلوا . . .
في زمانِ التحدّي تكونُ الأناشيدُ أيدي .

بغداد، ٢١/ ٥/ ١٩٧٢

العمل اليومي

يهبطُ من مقهىً بغرناطةْ
يهبط من خرائطِ الكرمْ الفرنسيةْ
يهبط بالمظلّةِ الأولى التي أودَعَها نفيَهْ
يهبط في البئرِ الخريفيةْ
في غرفةٍ بالطابقِ الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحةِ التحريرِ
مكتبانْ
يمتلئانِ، الآنَ، بعدَ الآنِ. .
بالغبرةِ والإعلانْ
ويوقفان الأفقَ الأوسعَ والأغصانْ
على حدودِ الحائطِ الأبيضِ حيثُ ارتمتِ العينانْ
وحيثِ أسرابٌ من النوارسِ الميْتةِ ملقاةٌ
على الشطآنْ

أغنية

في النبع غمسْنا الأزهارَ الأولى
فابتلّتْ بالماء أصابعُنا
يا شَعَراً بين الزهرةِ والقطرةِ محلولا
خصلاتٌ منكَ شرائعُنا

يجلسُ بين العشبِ والجنديِّ في مزرعةٍ أخرى
يجلسُ بين صاحبِ الحانةِ والآنسةِ الواثبةِ النظرةْ
يجلسُ بين الماءِ والأسماءْ
يجلس ساعاتٍ إلى عينينِ، أو زهرةْ
يجلس في الأضواءْ
في غرفةٍ بالطابق الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحة التحريرِ...
كرسيّانْ
لا يبعدُ الواحدُ عن صاحبه متراً، رماديانْ
وبين كرسيٍّ وكرسيٍّ... وبين الشيءِ والأسماءْ
أسلاكُ كهرباءْ
أجراسُ كهرباءْ
أجراسُ أزهارٍ من الشايِ، وأوراقٍ من الإعياءْ
(لا يَبعدُ البحرُ عن المقهى كثيراً...
كان صوتُ الريحْ
والملحِ والشيحِ يناديكَ طوالَ الليلِ)
في الغرفة كرسيّانْ
تمسحُ عنهما الستائرُ المعدِنُ طعمَ الشيح والموجةِ والشطآنْ

أغنية

سمّيتُ العشبَ فتىً، والشمسَ «مليكةْ»
وجلستُ على الأحجارْ
فرأيت الأرضَ أريكةْ
ورفاقي الأشجارْ

يَفتحُ باباً مغربياً في سكونِ الصبحْ
يفتح صمتَ الجرحْ
يفتح عينيه على العالم، أو يفتتح العالمْ
يفتح أوراقَ القمارِ الصعبِ. . . أو أوراقَهُ الأولى
يفتح باباً معدنِياً يعزلُ العالمْ
في غرفةٍ بالطابق الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحة التحريرِ. .
دولابانْ
منغلقانِ، اليومَ، بعدَ اليومِ
لا تدري بأسرارهما عينانْ
يكدّسانِ الصيفَ فوقَ الصيفِ والأحقابَ والأحقابْ
وفجأةً. . .
تأتي فتاةٌ:
تفتح الدولابْ
وتفتح الثاني.
وتغلق الدولابْ
وتغلق الثاني
تأتي، ولا زهرٌ، ولا أوراقْ
وتختفي،
فُجاءةً،
عاريةَ الكفّينِ:
لا زهرٌ ولا أوراقْ

أغنية

للقبوِ المعتمِ
رائحةُ العنبِ الصيفيةُ والقدمِ العُريانةْ
ولأهدابي الغابةُ بعد المطرِ
من ضيّع تيجانَهْ
فليسألْني يومَ السفرِ

في غرفةٍ بالطابق الرابعِ
من عمارةٍ في ساحةِ التحريرِ،
يغفو
مبحراً
إنسانْ

بغداد، ٢٠/ ٦/ ١٩٧٢

تنويعات استوائية

ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
كانتْ بلادُ الجزائرِ واسعةً مثلَ. . . إفريقيا
كان في كل مزرعةٍ غابةٌ مثل. . . إفريقيا
كان في كل مفترقٍ نخلةٌ مثل. . . إفريقيا
كان شاطئها ملعباً للأسود الصغيرةْ،
إنه يذكرُ البحرَ. . .
سيدةٌ ساءلتْ عنكَ سُترتها الجلدَ،
ثم اختفتْ في رُواق العمارةِ:
ناحلةً
هشةً
مشتهاةً. . .
ـ أريدكِ:
لم نقتسمْ عالماً، لم نقل للمسيء أسأتَ
ولم نَبلغِ الحبَّ،
لم نُبلغ الحبَّ أسماءنا، والعناوينَ،
كنا نلوذ به، مثلما يختفي وجهكِ الآنَ
خلفَ توازي الضياءِ الذي يُلصقُ السُتُرَ الخشبيةَ

بالليل. . . خارجَ شرفتكِ الضيقةْ

***

ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
محترقٌ وجهُك المغربيُّ. . . الظهيرةَ
عند الظهيرةْ
بدأَ الليلُ يسقطُ. . .
فتَّحتَ عينيكَ ـ كان النبيذُ الجديدُ خفيفاً وحلواً ـ
نظرتَ من النافذةْ
إلى الساحة الجانبيةِ، حيث غبارُ العصورِ
البويهيةِ، امتدَّ، وامتدَّ، حتى اعتلى
وجهَكَ المغربيَّ، وألصَقَ بالبرنسِ الصوفِ
شاراتِهِ. . . من ترى ينفضُ الذلَّ عن
درعِكَ المغربيِّ؟
انتفضْ!
ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
ساومتَ نفسكَ؟
ساومتَ؟
خبزُ الجزائرِ كان الأهلَّةَ في الفجرِ،
كنتَ تظلُّ إلى الفجر مستقبِلاً كلَّ ما يَهَبُ البحرُ،
مسترخياً ترقبُ الشاطئَ ـ الرملَ يُصبحُ
بعضاً من البحرِ، خطّاً، فخطّاً، إلى أن

يلامسَ أضلاعَكَ البحرُ
وحدَكَ
كنتَ المواجه، والموجَ،
كان العدوّ الذي يرتدي كلَّ أسماء من قاتلوا تحت راياتكَ
المعلنهْ
كلَّ أسماء من قاتلوا ضدَّ راياتِكَ المعلنهْ
كلَّ أسماء من قاتلوا
كلَّ أسماء من خاتلوا:
الحنينْ
وها أنتَ منهزمٌ:
تدخل المصعدَ، الساعةَ الثامنهْ
تهبط المصعدَ، الساعةَ الثانيهْ
أيهذا العدوُّ الذي ظلَّ يطردني، ويطاردني... في البلادِ
البعيدهْ
أيهذا العدوُّ الذي كنت ألمحه في الشجرْ
والذي كنت اقتاتُهُ في سطورِ الجريدهْ
وسقوطِ الثمرْ
أيهذا الحنينْ
أيهذا الأنينُ الذي كنتُ اسميتُهُ وطناً،
وادّعيتُ له، واجتزأتُ حماقاتِهِ، واجترأتُ
على ما رأيتُ ـ انتساباً لهُ...

أيها الوطنُ الأولُ
إننا نذبلُ
يدرك الشيبُ أبناءنا. . .
أيها الوطنُ المقبلُ. . .

بغداد، ٢٤/ ٨/ ١٩٧٢

إشـارات

(*) وجدة: مدينة مغربية على حدود الجزائر.
(*) الصخيرات: قصر ملكيّ في المغرب.
(*) الحسيمة: مدينة مغربية.
(*) سبتة: مدينة في المنطقة الإسبانية من المغرب. و«باب سبتة» مركز الحدود بين المغرب والمنطقة الإسبانية.
(*) الجيرانيوم: زهر.
(*) دارين: موضع بالجزيرة.
يقول الشاعر القديم:
يـمرون بـالـدهـنـا خـفـاقـاً عـيـابـهـم ويخرجن من دارين بُجْرَ الحقائبِ
على حين ألهى الناس جُلُّ أُمورهم فـنـدلاً زريـقُ الـمـالَ نَـدْلَ الـثـعـالـبِ
(*) مليكة: من أكثر أسماء الفتيات انتشاراً في بلدان المغرب العربي.

نهايات الشمال الأفريقي

(١٩٧٢)

لا أريد أكثر من أن أتحدثَ ببساطة
وأن أُمنحَ هذا المجد.
فلقد أثقلنا أغنيتَنا بالكثير من الموسيقى
حتى بدأتْ تغرق تدريجاً...
ووشّينا فنَّنا بالكثير
حتى ذهبَ الذهبُ بقسماته.
إن الوقت قد حان
لنقول كلماتنا القليلة
فغداً تنشرُ الروحُ الشراع!

سيفيريس

حانة على البحر المتوسط

أعتمَ البحرُ،
منذُ الظهيرةْ
كان يُعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان بريقُ الثيابِ القصيرةْ
يختفي في العيونْ
يلتقي والعيونْ
يرتقي في ضباب الزوايا سوادَ العيونْ.
والمرايا ـ النبيذُ
المرايا ـ الدخانُ
المرايا ـ المرايا
في غموض الزوايا
أعتمَ النهرُ،
منذ الظهيرةْ
كان يعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان نخيلُ الجزيرةْ
يختفي في سماءٍ من القطنِ مبتلّةٍ
ـ هل تريدين شيئاً من الثلجِ؟
ـ لا . . .
فندقٌ قربَ بابِ المعظّمْ

غرفةٌ قربَ بابِ المعظّمْ
ليلةٌ قربَ بابِ المعظّمْ
كنتُ منكشفاً للرصاصِ الذي جاءني من وراء الفراتِ
للّيالي السياسيةِ المثقلاتِ
للبساتينِ،
حيثُ تئنُّ البنادقْ
ـ وهي مدعونةٌ ـ في الصناديقِ:
غدّارةُ «اسْتِنّ» أو «بور سعيدْ»
ـ أنتِ لا ترقصين!
ـ ربما بعد كأسينِ. . .
ـ شيئاً من الملحِ؟
ـ لا. . .
أعتمَ الوجهُ،
منذ الظهيرةْ
كان يعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان سوادُ العيونِ الصغيرةْ
يختفي في سوادِ القماشْ.
إن كفيهِ مشدودتانْ.
إن عينيهِ معصوبتانْ.
إنه، فوق كرسيهِ. . .
سوف يُعدَمْ.
ـ هل تريدينَ شيئاً من النارِ؟
ـ لا.

. . . .

. . . .

. . . .

أنتِ لا تفهمين.

الجزائر ـ وهران

٢٩/ ٣/ ١٩٧١

نهايات الشمال الأفريقي

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيّةَ السعفا
وأحرقتُ الخرائطَ في مرافئِ مصرَ:
بين الشرقِ والمنفى
وعبرَ دروبِ بنغازي، ودَرْنَةَ، كنتُ أُسألُ عن هويتي
التي مزّقتُها نصفينِ:
أعطيتُ المفوضَ نصفَها، وحبيبتي نصفا

❋

وفي أحياءِ تونسَ، في مقاهيها الشتائيةْ
رأيتُ صبيةً تبكي
بلا حرفٍ، ولا وجهِ
على أبوابِ إفريقيّةَ المفتوحةِ الأفخاذْ
وكان الثلجُ يسقطُ، والصبيةُ تحته تبكي

❋

طوالَ البعدِ، تبتسمينَ:
كان المغربُ الأقصَى
يدور مع ارتخاءِ اليوسفيّ، وحلمِ إشبيليّةَ الوردِ
وكان ضياعُ خطوكِ فيه، بين الظل والظلمةْ

وكنتُ أراكِ، وحدكِ، تحلمينَ، وأرقبُ البسمةْ
تَلَوّنُ ـ وهي تولَدُ ـ بالغروب، وتشربُ الظلمةْ
بأفياءِ الرباطِ، وساحةِ النافورةِ القُزحيةِ الألوانِ،
في إمساءِ غرناطةْ

طوال البعدِ، ترتجفينَ:
كان المغربُ الأقصى
يدورُ ـ كما تدور الأسطوانةُ في الظلامِ ـ وأنتِ مشدودةْ
بكل هنيهةٍ، ويدورُ هذا المغربُ الأقصى
وأنتِ إليه مشدودةْ
وأنتِ إلى إسطوانته المخمسةِ الوجوهِ أراكِ مشدودةْ
ولكنا، ندور، مكبلينَ بعطرهِ، ونعومةِ الرملِ
على صيفِ الشواطئِ، مثقلينَ بخمرهِ الأبيضْ
إلى أن تنتهي تنويمةُ الرملِ
ويحمرَّ النبيذُ، فتشحبَ الصورةْ
وتقتسمَ الحياةَ دوائرُ الغرباءِ والهجرةْ
ثلاثةَ أشهرٍ، فثلاثةً، فثلاثةً، فثلاثةً أخرى

*

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيةَ السعفا
حملتُ الطلعَ من منفى إلى منفى
وسبعاً كانت السنواتُ، سبعاً كانت الأرَضونَ، بعدك،
والسّماواتُ
وأنتِ هنا، الرضيةُ:

سعفُكِ الشاحبْ
سواقيكِ الصَّموتُ، وطينُكِ الذائبْ
وأنت هنا، الصغيرةُ،
يا أميرتيَ الجنوبيةْ
أتنسَينَ الأحبةَ هكذا؟
هل تقبلين تَعَفُّنَ المنفى
لمن قَبِلَ الشهادةَ، دون وجهِكِ، يا مدينتيَ الجنوبيةْ؟

*

أيا وطني المحاصرَ، أيها الوجهُ الثلاثيُّ
ويا عينينِ جائعتينِ تمتدان بين الصخرِ والبحرِ
ويا وطنَ المرايا، أيها الجرحُ المفتَّحُ، أيها الجذرُ الثلاثيُّ
جريحٌ أنتَ، تنزفنا دماً ودماً، ولكنّا
نريدُ الجرحَ، بدءاً منه بالصفرِ
أيا وطني المحاصرَ بالذين يحاصرون عيونَهم، يا أيها الزمنُ
الثلاثيُّ
غريبٌ أنتَ،
وجهُكَ مُصْلَتٌ،
عيناكَ جائعتان للسرِّ

*

غريبٌ أنتَ في الأرض التي تمتدُّ بين جداولِ البصرةْ
وأسوارِ الرباطِ:
رأيتُها غصناً فغصناً، صخرةً صخرةْ

ولكنَّ المخاضَ هنا، بعينيكَ اللتين تواجهانِ غرابةَ السرِّ
وأزهارَ البنادقِ والمياهِ وزرقةَ البصرةْ

❋

رأيتُ يديكَ تمتدان لي في المغربِ الأوسطْ
مغضّنتينِ، حانيتينِ،
مسّدتا خيوطَ الشيبِ واختفتا
وأمسِ،
تزورني شفتاكَ هامستين: أنتَ فتى

❋

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيّةَ السعفا
جوازاً للمرورِ ـ
ألستَ تعرف أنهم سحبوا جوازَكَ مرةً فرقدتَ في شارعْ؟
وكان الثلجُ ملتفًّا
على عنُقِ المدينةِ، حين جئتَ، وكانتِ الأشجارُ
في الشارعْ
زجاجاً بارداً من ماءْ
وكان تشَنُّجُ الأضواءْ
ينثُّ، كما ينثّ الثلجُ. . .
شيئاً يلمسُ الشارعْ
ويبقى لِصْقه، متجمداً، مائعْ
ـ ستذكر أنهم سحبوا جوازَكَ مرةً، فرقدتَ في شارعْ.

❋

وفي أسواق بلعبّاسَ،
في وسط المدينةِ،
في المقاهي حيث لا تتركز القهوةْ
وفي الباراتِ إذ تتأخرُ الساعةْ
ستُسمَعُ همسةٌ «دخلَ المهاجرُ»،
ثم لا تتأخرُ الساعةْ
وتبقى قطرةُ البيرةْ
بحلقي شوكةً،
وتدقُّ في سوقِ الهنودِ، وفي دمي، ساعةْ.
لماذا تلبسُ السنواتُ أحذيةً رصاصيةْ؟
وماذا يمّحي لو سرتَ في الليلِ
وراء السروِ والنخلِ
وراء تقلّباتِ الجوِ والصحفِ
وراء فنادقِ السوّاحْ
وراء معاطفِ الجنسِ الفريدِ وهدأةِ الرملِ
إلى أن تلتقي والبحرْ
إلى أن تختفي والبحرْ
إلى أن ترتدي في البحرِ أثوابَ الطحالبِ
في نعاسِ القاعِ والسفنِ الشراعيةْ

*

سلاماً أيها القتلى
سلاماً أيها الأحياءْ

سلاماً أيها الحزبيّ والجنديّ والفلاحْ
سلاماً أيها العمالْ
سلاماً أيها الماشونَ فوق الماءْ
سلاماً أيها النخلُ الذي لم يُشبعِ الأبناءْ
ويا أرضَ البنادقِ،
والقبورِ،
ودورةِ الأشياءْ
سلاماً. . .

الجزائر، آذار ١٩٧١

تسجيل

يتوازى الشجرْ
تتوازى غصونُ الشجرْ
تتوازى السنابلْ
يتوازى الجبلْ
والسحابْ
حين أُخبِرَ أن المدينةَ كانت مسيحيةً، والبيوتَ التي
يعرفُ الآن كانت فرنسيةَ الرائحةْ. . .
وبأن المشاربَ كانت تظلُّ إلى الفجرِ تستقبلُ الفرقةَ الأجنبيةْ،
لم يجدْ ما يقولْ.
والحقولُ التي تنتهي في السماءِ، الحقولُ التي
ليس فيها نساءُ القبيلةِ، كانت وراءَ الزجاجِ
المسلّحِ مبتلّةً بالرياحِ المسائيةِ المتعَبةْ.
كان يعرفُ أن الحقولَ الذكيةَ قد خبّأتْ سرَّها في
رؤوس السنابلْ،
أَنَّ بوابةَ المزرعةْ
مثلَ قرميدِها، لم تشمَّ رغيفَ الأصابعِ، أنَّ
الطريقَ إلى المزرعةْ،

ما يزال امتداداً
ما يزال الجبلْ.
هذه مهنةُ العاشقاتِ: العيونُ ـ البريقُ،
الثيابُ ـ الشذى، والشفاهُ ـ العقيقُ
هذه مهنةُ العاشقاتْ:
شقَقٌ نصفُ مفروشةٍ، تبغٌ أسودٌ في ضفافِ
النبيذِ، وخمسُ اسطواناتِ جازْ.
هذه مهنةُ العاشقاتْ
غير أنَّ العطلْ
غيرُ مدفوعةِ الأجرِ...
في الصيف تبقى المدينةُ، ظُهراً، بلا عاشقاتْ.
كان ينظرُ عَبرَ الشجرْ
وغصونِ الشجرْ
والسنابلْ
كان ينظرُ عبرَ الجبلْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس ٣٠/ ٤/ ١٩٧١

البحث عن خان أيوب في حي الميدان بدمشق

تساءلتُ حين دخلتُ المدينةَ عن خانِ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
فالتففتُ ببعضي، ونمتُ:
لقد كان وجهُ المدينةِ أزرقَ. . .
أشجارُها تستطيلُ وتكبو، ولكنها تستطيل لتكبو. . .
وثالثةً تستطيلُ
وكانت منائرُها خزفاً مغربياً،
وبحراً محيطاً أزقتُها،
تتقافزُ منه الوجوهُ التي ترتدي عريَها. . .
كان بين العراقِ وبينيَ رملُ الجزيرةِ،
قلتُ: انتهيتُ. . .
ولكنني حين فتّحتُ عينيَّ أبصرتُ عينيكِ
إن السماءْ
تظلّ ـ كعينيكِ ـ زرقاءَ
إنكِ في الشجرِ ـ الوهمِ، والوخزِ، بيتي ومكتبتي
والسبيلُ إلى سفحِ سنجارَ. . .
لململتُ بعضي وسرتُ،

*

لماذا يراني جنودُ الخليفةِ شخصاً غريباً؟
لأني تحدثتُ في السوق عمّا وراءَ النهرْ؟

*

يقول ليَ السوقُ شيئاً، يقول ليَ الشوق شيئاً، فأَقسم بين اثنتينِ
القميصَ الذي ورِثَ الفتنَ الداخليةَ
والكتبَ المستباحةَ. . .

أَقسم بين اثنتينِ الشفاهَ التي تتناولُ
والجامعَ الأمويَّ الذي يُتناولُ،
أَقسم بين اثنتينِ الإلهْ.

*

ولكنني لدمشقَ، المدينةِ والجرحِ، أمنحُ نارَ التوحُّدِ،
أُعلِنُ في الصحفِ المشتراةِ
وفي الصحفِ المشتهاةِ بيانَ الذين رأوا وجهَها قبل
أن يولدوا،
والذين يريدونها امرأةً تتزاوجُ فيها الشهادةُ والماءُ،
بين الشهادةِ عشرونَ ميلاً وبين دمشقْ
وعشرةَ آلاف ميلٍ تناءتْ دمشقْ
وأشجارُها عن دمشقْ.

*

مضى زمنٌ كانتِ الأرضُ فيه تدورُ على نفسها،

وأَتى زمنُ العاشقينَ الذين إذا دارتِ الأرضُ ماتوا،
أو اجترحوا الرفضَ كي يوقفوها.

❊

مضى زمنٌ كانتِ البندقيةُ فيه التفرُّدَ والحلَّ،
إنّا على رقعةٍ لا تُهاجرُ فيها الخيولْ.

❊

مضى زمنٌ كانتِ المدنُ العربيةُ فيه ثغوراً. . .
لقد جاءنا زمنُ المدنِ المصرِفيةْ.

❊

يراقبني الليلُ. . .
أعمدةُ الجامعِ الأمويِّ العتيقةْ ـ
تراقبني. . .
وتدورُ الأزقةُ بي، وتدورُ المنازلُ خلفَ «الحريقةْ»
إلى حيثُ ينفردُ الظلُّ بي والمياهُ العميقةْ
وأسمعُ بين الغصونِ التي أزرقَّتِ الأرضُ منها وَرَقّتْ:
أنا الطائرُ
أنا الصوتُ، والجدولُ النافرُ
أنا ابنُ الإلهِ الدمشقيّ. . .
إني انتظرتُكَ عاماً فعاما،
وعاماً فعاماً هجرتُكَ،
لكنني العاشقُ الفردُ.
ـ هل نتحدثُ وقتاً قصيراً؟

ـ ألا تجلسُ؟
هنالك مقهى، كراسيُّهُ سَعَفٌ، كان يرتادُهُ
العدميونَ، والهاربونَ، ومَن يصنعونَ
القنابلَ سريةً، لوددتُ لو انيَ آتيكَ
منه بفنجانِ قهوةْ.
ولكنني ـ إن أردتَ الحقيقةَ ـ أخجلُ مِن
بعضِ روادهِ، فلنقلْ ما نشاءُ هنا، إنني
قائلٌ ما تقولْ.

*

تفتَّحَ لي خانُ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
غير أني دخلتُ
وبين حديقتهِ والدهاليزِ أبصرتُهم يصنعونَ القنابلَ. . .
إنهمُ إخوتي، يرسمون على النهر أعمدةَ الجامعِ الأمويِّ
جسوراً
جسوراً
جسوراً
جسوراً
جسوراً
وقد ينسفونَ الجسورْ
إلى الناصرةْ.

*

سأسكنُ في خانِ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
غير أني اهتديتُ.

دمشق، ١١/ ١٢/ ١٩٧١

قصيدة تركيبية

وجهُها كان بين الرخامِ الصناعيّ، والآسِ. . .
هل غادرتْ قرطبةْ
مساجدَها؟
هل تخطّى العراقُ الخوارجَ؟
هل أمسكتْ يدُها بالغصونِ التي شربتْ خضرةَ الجرحِ
حتى الثمرْ؟

❋

وجهُها كان بين الرخامِ الصناعيِّ والآسِ، بين يدي والسفرْ
في السماءِ الذي يتعبُ
في السماءِ الذي يلعبُ
في المساء الذي كانَ نصفينِ: بين أعالي الشجرْ
وظلامِ الحديقةْ.

❋

ذهبٌ في ضفائركِ اليومَ، نرجسةٌ في جبينكِ،
نهرٌ من الريحِ أحمرُ فوقَ أعالي الشجرْ.

❋

وجهُها كان بين الرخام الصناعيّ والآس، يمتصُّ ماءَ الذهبْ

في ضفائرها، كان يمتصُّ لونَ النراجسِ
يخلو من اللون، شيئاً فشيئاً. . .
وتحتَ غصونِ المساءْ
يتشمّعُ شيئاً فشيئاً. . .
ويشحبُ
يصفرُّ. . .
كان المساءْ
يتوحّدُ. . . بين أعالي الشجرْ
وظلامِ الحديقةْ.

*

للنساء اللواتي يرحنَ ويغدون في حجرةٍ يتحدثن عن
ميكائيل أنجلو
للنساء اللواتي يطالعْن أثوابَهنَّ، ويلبسن ـ قبل المساءِ ـ الكتبْ
للنساء اللواتي يداومن في «التوكالونْ»
للنساء اللواتي اشتهينَ اكتشافَ الحقيقةْ
للنساء اللواتي اشتهينَ اكتشافا
للنساء اللواتي اشتهينْ
أُقَدِّمُ وجهَكِ يا طفلةً يَنصُلُ من وجهها في حديقةْ:

مشهد «١»

غابةٌ في الضواحي التي تسكن البحرَ، في برشلونةْ
كنتُ أعرفُ أني سألقاكِ فيها

حينما يهدأُ البحرُ. . .
أبيضَ كان النبيذَ. . .
وأبيضَ قد كان ثوبُكِ، وجهُكِ. . .
وجهُ السماءِ
التي ينصعُ الماءُ
والملحُ
والورقُ الهشُّ فيها.

*

مشهد «٢»

هل تحبُّ الأميرةُ أن ترقصَ الليلَ كلَّهْ
هي والساكسفونْ؟
هل تحبُّ الأميرةُ أن تهتدي كلَّ ليلةْ
بمرايا العيونْ؟
الأميرةُ ترقصُ
ترقصُ
ترقصُ
ترقصُ
حتى تراها العيونْ
فجأةً ترتمي
فجأةً تحتمي بذراعِ الأمير الصغيرْ
وجهُها وردةٌ، ويداها حريرْ.

*

مشهد «٣»

على عرباتِ القطارْ
نثيرٌ من الثلجِ . . .
ليتكِ تدرين أنَّ المسافرَ
في قاعةِ الانتظارْ
وأنَّ على شعرهِ الجعدِ بضعَ لآلئَ من عرباتِ القطارْ
وليتك تدرينَ أن المسافرَ أضناهُ طول السِفارْ
أما زلتِ خلف زجاجِ المحطةِ
في حجرةٍ دافئةْ
برائحة الخشبِ الرطبِ والشاي . . .
بين رفوفِ التذاكرْ؟

*

أنتِ، يا من لوجهِكِ بين الرخام الصناعيّ والآسِ
لفحُ الحقيقةْ
أنتِ، يا طفلةً ينصلُ الدمُ من وجهها في حديقةْ
أنتِ، يا وجهَ أمي الصغيرةْ:
لن تري عرباتِ القطارِ اللأخيرةْ
عبر نافذةٍ للتذاكرْ،
لن تري غابةً تسكنُ البحرَ في برشلونةْ،
لن تكوني الأميرةْ.
. . . .
. . . .

. . . .

أنتِ في عامكِ الـ ١٦
سوف تغدين أُمّاً . . .
سوف تغدين أُمّاً وَلودا
سوف تَغْذين أطفالَكِ الشاحبينْ
واحداً بعدَ آخرْ
بالعروق التي تنزفينْ
واحداً بعدَ آخرْ. . .

❊

تنويمة

في البراري فتاةٌ جميلةْ
شعرُها أصفرُ
وجهُها أصفرُ
في البراري فتاةٌ تغنِّي
للصغيرِ الذي لا ينامْ
للصغير الذي شعرُهُ أصفرُ
وجهُهُ أصفرُ
ـ يا فتاةَ البراري الجميلةْ
كيف لا ترقدينْ؟
نزلتْ نجمةٌ فارقدي يا فتاتي الجميلةْ
يا فتاةَ البراري الجميلةْ. . .
وانظري. . .
إن وجهَ الصغيرِ الذي شعرهُ أصفرُ
أحمرُ. . .
فارقدي يا فتاةَ البراري الجميلةْ
ارقدي
أرقدي. . .

بغداد، ٣١/ ١٠/ ١٩٧١

حوار أول

حيث لا يخفقُ العلَمُ الأمريكيُّ، تجلسُ
حيث الجذورُ المعرّاةُ، تجلسُ
حيث الحدائقُ ليلية والحماقاتُ يوميةٌ، تجلسُ
حيث لا تُشترى
حيث لا تشتري غيرَ خبزكَ،
أنت، إذن، تجلسُ. . .
حسناً:
ما الذي خلّفتْه المطاراتُ. من وجهكَ اليومَ؟
قُلْ ما الذي جئتَ تحملُ من كلِ أرصفةِ العالمِ الماءِ:
هل جئتَ تحملُ لي زهرةً؟
إن كلَّ الزهورِ الغريبةِ عن وجهِنا الاستوائيِّ هذا تموتُ غُصناً؟
ليس طعمُ الغصونِ الرماديُّ قنبلةً للفدائيّ. .
هل جئتني بالرباطِ الحريرِ
بالخطى المستقيمةْ
بالحديثِ المجاملِ:
كم سرّني أن تكونَ القصيدةُ منشورةً

بالفرنسيةِ، الناقدُ اليومَ أخطأَ،
لم يلتفتْ للتداخلِ في اللونِ، للمنطقِ الجدليِّ
الذي طوّقَ الضرباتِ الأخيرةَ، هل
تشربُ الـ Canada Dry
سمعتُ بما قلتَ في حفلةِ الانتصارِ على الـ. . .
آهِ، كم تحرقُ الشمسُ وجهي!
كم أراكم على شاطئ البحرِ. . .
في طرقاتِ كراكوفَ القديمةْ،
بين أسوارِ فاسٍ وأبراجِها،
في دمشقَ التي لا تحبون أن تنتهي.
كم أرى صوتكم يتقلّصُ، كالقوقعِ الشجريِّ الذي لامسَ
النارَ. . .
كم يُتعبُ الصمتُ عبر البرامجِ. . .
إنكمُ الشاهدونَ الذين أرادوا الشهادةَ بين رواتبهم
والفراشْ

جمعية بناء المساكن لرواد الفضاء

هيوستن ـ طاشقند
تعلن عن قرب توزيع أراض مفروزة
يفضّل المتزوجون

ما البحارُ التي تستحْمون فيها وراءَ جلودِ الوجوهِ الحليقةْ؟
ولماذا تنامون خلفَ العويناتِ؟
خلفَ المناضدِ؟
خلفَ النساءِ؟
مرةً في غصونِ الشتاءِ
في القطارِ الذي مرَّ ما بين شيرازَ والأدرياتيكِ. . .
أبصرتُ عبدَ الملكْ
كان يكشطُ في سطح سرسنكَ وجهي
كان يكشط في سطح سرسنكَ أوجهَكم أيها السادةُ
المنصتونَ، الحليقونَ، يا من تريدونَ أن
ينتهي اللِّعبُ الفجُّ بالكلماتِ، لتمضوا. . .
إلى أين تمضون، يا إخوتي المتعبين من الراحةِ الباردةْ؟
● فوانيس.

● نادي الـ. . .

● صحارى.

● الجحيم؟

آه، كم تحرقُ الشمسُ وجهي!

كم أخافُ مكاتبكم، أيها الأخوةُ القانعونْ. . .

كم أخافكمُ أيها الإخوةُ الهادئونْ

إن عينيّ لا تخفيان ارتجافي أمامَ الدروعِ التي تلبسونْ

بين أزرارِ قمصانِكم والحقيقةْ.

كان عبد الملكْ

في القطارِ الذي مرَّ ما بين شيرازَ والإدرياتيكِ. . .

يكشطُ في سطح سرسنكَ وجهي

كان يكشطُ في سطح سرسنكَ أوجهَكم أيها الإخوةْ

القانعونْ

❊

إنه المغربيّ

إنه السائحُ المحترفْ

إنه القرويُّ الذي يجهل الأوبرا والقوانينَ. . .

ـ أنت هنا تجلسُ؟

ـ حسناً. . . .

بغداد، ٤/ ٩/ ١٩٧١

مسرحيات

حكاية في فصل واحد

(ليل. ممر من القضبان الحديدية، في وسطه زنزانة. الجوقة بملابس شعبية)

الجوقة: في هذا العصرِ المختارْ
قد يحيا خمسةُ أشخاصٍ في خمسةِ أمتارْ
ولقد يتربّعُ شخصٌ، أو لصٌّ واحدْ
في دار ملايينٍ خمسةْ.

(يدخل المغامر والسجان، ثم يقفان عند باب الزنزانة)

السجان: هذي هي الزنزانةُ السابعةْ
المغامر: فليقفوا باحترامْ
السجان: يا سيدي، إنهمو نائمونْ
فالساعة الآنَ هي الرابعةْ
ولم يناموا أمس حتى انتصافِ الليلِ.
كانوا في مقرّ الحرسْ.
وحين عادوا ـ أو أعيدوا ـ رأيت الدم في قمصانهم.
المغامر: قد يبسْ... طبعاً
السجان: وحيّوني، وهم يَعرجونْ
المغامر: (يتقدم خطوة نحو باب الزنزانة)

اسمعوني

اسمعوني

اسمعوني

صوت الزنزانة: أيها الطارقُ باباً دون دارْ

أيها الطارقُ في الليل على بابِ النهارْ

ما الذي تحملُه للساهرينْ

حول قمصانِ الدمِ اليابسِ والغصنِ السجينْ؟

ما الذي جئتَ به دون انتظارْ؟

المغامر: جئتُ أحيّيكم

صوت الزنزانة: ترى، من أنت؟ من؟

المغامر (للسجان): لم يعرفوا صوتي...

(للزنزانة):

أنا

صوت الزنزانة: من أنت؟ من؟

المغامر: أنا من سجنتكمو

ومن أقسمتُ أن تبقى سجوني

كمحطةٍ للاختيارِ

بين الشوارعِ والمقابرْ

بين الأزاهرِ والخناجرْ

ومحطةٍ للانتظارِ

صوت الزنزانة: ألستَ تراه انتظاراً طويلاً...

وليسَ اختياراً؟

فمن لا يُرَجِّي السنابلَ بعد البِذارْ
ومن لا يرى في الزهورِ الثمارْ
وفي زرقةِ البرقِ صوتَ الرعودْ؟
فهل مَطلع الشمس فيه اختيارْ؟
نعم... إن فيه انتظارا

المغامر: أنا لستُ أعرفُ غيرَ سيفي...
إنني رجلٌ مغامرْ
لم أقرأ الكتبَ الجديدةْ...
يوماً، ولم أنظر إلى أحداقِ شاعرْ
ولربما سرّحتُ عيني عبر أعمدةِ الجريدةْ
فلقد تعلّمتُ القراءةَ والكتابةَ حين
كان أبي يتاجرْ
بالخردواتِ
وبالكراريسِ الصغيرةِ
والمساطرْ
لكنني فكّرتُ:
ما نفعُ القراءةِ والكتابةْ
إن لم تكن حدّاً لسيفي؟
أنني رجلٌ مغامرْ
يا سادتي، والأمر أبسطُ من معادلةٍ بسيطةْ
١ إلى ١ = ٢
ها أنتمْ أولاءِ هنا وراءَ الليلِ والقضبانِ

أما «اللصُّ» فهو على عبادِ اللَّه ساهرْ

صوت الزنزانة : قد تنقلب الكأسُ
قد ينقلب الرأسُ
نعلاً، قد تنقلبُ الصورةْ
فنراك وراء القضبانِ
تصفرّ أمام السجانِ
وستنقلب الصورةْ
فالعالم ليس بناعورةْ
غامرتَ، ولكنّ العالَمَ
عِلْمٌ، لا أسطورةْ
تاريخُ العالم لا يُهزمْ
حتى لو شُوّهتِ الصورةْ
والمنبعُ لا يهرمْ

المغامر : سأترككم هنا
تتنفسون عفونةَ الأسماكِ في الأرضِ
ومثلَ الخبزِ في الماءِ
تذوبُ جلودكم
سأقودكم مثلَ الأرقاءِ
وأمنع ليلكم تهويمةَ الغمضِ
إذا لم تتبعوا في الصبح إيمائي
وداعاً. . .
(للسجان): أيها السجان

أتركْ كل زنزانةْ
وراقبهم هنا . . .
سأعود ظهر اليومِ

السّجان : تأمرُ سيّدي

(يبتعد المغامر عن الباب ويتبعه السجان)

السّجان : (لنفسه)

يا لعنتي لن أدخلَ الحانةْ

(يغادران)

الجوقة : في أعلى النخلةِ عصفورُ
يلهو بجناحيه النورُ
في «باب سليمان» المدُّ
ووراءَ البحرِ، الصاري ـ
والميناءُ الأبيضُ، والهندُ
وسمرقندُ
والنجمةُ والسورُ
وهنا . . . في ليل الزنزانةْ
إذ يشربُ قلبٌ أحزانَهْ
سيظل بأعلى النخلةِ عصفورُ
وتظل سمرقندُ
وبباب سليمانَ المدُّ
والنجمةُ والسورُ
لكنْ . . .

إذ يلبس قلبُ أحزانَهْ
إذ يزرعُ أحزانَهْ
في المرآة
فهنا، قد يسقط عصفورُ
من أعلى النخلةِ،
قد يخبو النورُ. . .
والسورُ، فلا مَدُّ
في بابا النهرِ، ولا هندُ
وتذوب سمرقندُ
والنجمةُ تنطفئُ
والسورُ الأحمرُ ينكفئُ
في ليلِ الزنزانةْ
ثلاثة أصوات من داخل الزنزانة:
الصوت الأول: كلماتُه التصقتْ عليه، كأنما التصقَ الذبابُ
بثيابهِ، وكأنما اقتفتِ الكلابُ
آثارَ سيدِها. . .
سنرقدُ نصفَ ساعةْ
ـ إن شئتمو ـ حتى ينادينا الحساءُ المستطابُ
الصوت الثاني: بين وادي النعاسِ، واليقظةِ، الجمرُ ـ
وبين النعاسِ، والموتِ، بيتي
افتحوا، افتحوا النوافذَ للنخلِ
أريدُ النخيلَ يمتصُّ صوتي

في الجذورِ الإسفنجِ، في السعَفِ الشاحبِ
في تمرةٍ على شفتي طفلٍ، وفي طلعةٍ
على كفّ زارعْ
افتحوا، افتحوا النوافذَ، فالوديان تنأى
وتضمحلُّ الخيولُ...
إن أفراسَها على صهوة الغيمِ،
وأعرافَها الندى، والذهولُ

الصوت الثالث: فلننمْ نصفَ ساعةْ
ولكنْ ما يكونْ.
ما تراه العيونْ
تعتليه الشجاعةْ

الجوقة: نحكي لكم يا أيها السادةُ والسيداتْ
عن قصةِ الغصنِ ونهرِ الفراتْ
يقال:
إن الغصنَ يوماً نزلْ
ليشربَ الماءَ، فقالَ الفراتْ:
أما رضعتَ اليومَ عن أمكَ الحلوةِ... يا غصن؟

فقال الصغير: أحببتُ أن أشربَ وحدي.

فقال النهر: ما زلتَ صغيراً
فلم تقفْ على الأرضِ
ولم تسمع الأرضَ
وكم من غُصنٍ همَّ أن يشربَ من مائي

قليلاً فماتْ
لكنّ غصنَ التوتِ لم يفهمِ النهرَ:
تدلّى
وتدلّى
وألقى ثقلَهُ
أوراقَهُ
مرةً واحدةً، فانكسرْ
ولم يزل يذكرُ نهرُ الفراتْ
صيحتَهُ الهشّةَ والماءُ يطويهِ، ويلقيهِ
ويجري الفراتْ
كالنائمِ الساري، وتجري الحياةْ

الصوت الأول: (إغفاءة)
يتوهّجُ الصّلصالُ تحت خطايَ،
ينتثر الحصى ذهباً وفضةْ
والماءُ ينبعُ من تلالِ الرملِ ثم يغورُ فيهِ
يسقيهِ، يسترضي حصاهُ، ويمنحُ
الألوانُ أرضَهْ
أَنَّى اتجهتُ تَقُدْ خطايَ الشمسُ في أفقٍ شبيهِ
صحراءُ،
يا صحراءُ،
يا صحراءُ،
هل تُخفين عن عينيَّ زهرةْ؟

الصوت الثاني: شُرفةٌ في التلالِ الخفيضةْ
يزرعُ الفجرُ فيها الصنوبرَ بين الزهورِ
العريضةْ
شرفةٌ أم سفينةْ. . .
إنني في السفينةِ أمضي، ولا أُقلعُ
إنني أغرفُ الماءَ في راحتي
إنني أَغرقُ. . .
عند سورِ المدينةْ.

الصوت الثالث: (إغفاءة)
فوق قبري حمامةْ
تبتني عشَّها، فوق قبري علامةْ
سعفةٌ. .
يا حمامةْ
يا أغاني تِهامةْ
حين يأتي الربيعْ
حين يأتي الربيعُ بأوراقه المزهرةْ
فاتركي لي علامةْ
أنقري فوق قبري، وغنِّي تِهامةْ
واحملي يا حمامةْ
خُوصةً، أحمليها إليها. . .
وأتركيها لديها، علامةْ
(يدخل السجان)

(السجان): (يدق على القضبان)
انهضوا انهضوا
صوت من الزنزانة: آنَ أنْ ننهضا
(نشيد)
الصواري لها أجنحةْ
والنخيلُ له أجنحةْ
والجبلْ
مروحةْ.
والنوارسُ حولَ الشراعْ
كالمناديل قبلَ الوداعْ
والأملْ
كالذراعْ.
يا طريقاً يشقُّ النجومْ
لن تغطّي ذراك الغيمْ
فالجبلْ
للنجومْ.
الجوقة: لن نطيل الحكايةْ.
فلنقلْ: قد فهمتم
فلنقلْ: قد فهمتم
ولتقولوا:
وأين النهايةْ؟

الجزائر، ١٩٦٧

حانة الطرق الأربعة

«مسرحية في فصل واحد»

الشخصيات: صاحب الحانة.
مساعد أول: يوسف
مساعد ثان: ميخائيل
رواد الحانة: يرتدون ملابس غير مرتبطة بعصر ما.

*

أغنية مع القيثار: ربما تسألونْ:
حانةُ الطرقِ الأربعةْ؟
ما سمعنا بها
ما شربنا بها.
إنكم واهمونْ...
سادتي...
حانةُ الطرق الأربعةْ،
كلكم تشربونْ
خمرَها
كلكم تعرفونْ
سِرَّها.
حانةُ الطرقِ الأربعةْ

سادتي :

«مساء. حانة متوسطة أقرب إلى الصغر.
الإضاءة ليست جيدة. أغنية غجرية.
صاحب الحانة جالس على كرسي خلف البار.
يوسف يمسح الكؤوس».

صاحب الحانة : (ليوسف)
كم مرةً قلت لكم أن تغلقوا المذياعْ؟
كم مرةً قلتُ!
فلتغلقوا المذياعَ،
أو فلنغلقِ الأسماعْ

يوسف : (يتجه إلى مذياع صغير على رف الزجاجات):
أمركَ

(يغلقه ويعود إلى مسح الكؤوس)

صاحب الحانة : (لميخائيل):
ميخائيلْ...

ميخائيلْ : (صوته فقط):
نعم... نعم...

صاحب الحانة : أسرعْ،
فالساعةُ الآنَ هي الخامسةْ
وكلُّ شيءٍ في شحوبِ المساءْ
يشحبُ...
أين الضوءْ؟

ميخائيل : يا سيدي، أُشعلَتْ

كلُ مصابيحِنا.

صاحب الحانة: (لميخائيل)

امسحْ زجاجَ النوافذْ

ميخائيل: مسحتُه سيدي.

صاحب الحانة: مسحتَهُ؟ إنه يبدو بلون الترابْ

ميخائيل: يا سيدي...

كلُّ زجاجٍ قديمْ

يبدو بلونِ الترابْ.

صاحب الحانة: إنكَ تغدو فيلسوفاً...

ألا تعرفُ أن الليلَ والفلسفةْ

شيئان لا يُجمعان؟

ميخائيل: العفوَ يا سيدي

أعرفُ أن البارَ والفلسفةْ

شيئان لا يُفْصَلانْ

صاحب الحانة: البارُ والفلسفةُ

كالليلِ والفلسفةْ

شيئان لا يُجمَعانْ

شيئان لا يُفْصَلانْ

(تبدو في صوته رنة سخرية)

شيئان مستهلكانْ

صاحب الحانة: (ليوسف)

يوسف...

يوسف: (يترك مسح الكؤوس ملتفتاً ناحية صاحب الحانة):

نعم.

صاحب الحانة: أين كراسينا؟

أين كراسينا؟

أحسب معي يوسف (يبدآن حساب الكراسي) ١ ـ
١ ـ ٢ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٦ ـ
٧ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٨ ـ ٩ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١١
ـ ١٢ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٥
ـ ١٦ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ١٩
ـ ٢٠ ـ ٢٠.

صاحب الحانة: (مستغرباً)

عشرين؟

(إلى يوسف):

يوسف...

يوسف: نعم؟

صاحب الحانة: (يرفع صوته):

نعم... تعال... ميخائيل...

(يدخل ميخائيل من وراء ستارة سوداء في جهة البار اليسرى)

ميخائيل: أتيتُ يا سيدي

صاحب الحانة: يوسف، ميخائيل

روّادنا التسعةُ والعشرونْ

مشتركونا، السادةُ التسعةُ والعشرونْ

سوف يجيئونا . . .
وما الذي نعملْ؟
إن كراسينا
لم يبق منها غيرُ عشرينا
فما الذي نعملْ؟
(إلى يوسف)
قل ما الذي نعملْ؟

يوسف: يا سيدي، لا نعمل الليلةْ
ولنغلقِ الحانةْ . . .

صاحب الحانة: (متجاهلاً الجواب ومتوجهاً إلى ميخائيل):
قل ما الذي نعملْ؟

ميخائيل: يا سيدي أجهلُ ما تجهلْ
لكنني أعرف شيئاً واحداً عن هذه الحانةْ
أعرف أن السادةَ التسعةَ والعشرينْ
مشتركينا
سوف يصطفُّون في الحانةْ
قبل انهائي من حديثي . . . إنني . . .
(يقطع كلامه رنين جرس)
ها الجرسُ الأولْ!
(يتجه إلى الباب ويفتحه):
تفضّلْ . . .
(يدخل المشترك الأول)

المشترك الأول: سلاماً سادتي

ميخائيل: وعليكم السلامُ. تفضّلْ. إن كرسيّكم هنا.

(يقدم له كرسياً. يجلس)

صاحب الحانة: (للمشترك الأول):

كما أَلِفْتُم؟

المشترك الأول: نعم

صاحب الحانة: بالملحِ أم بالعسلْ؟

المشترك الأول: أُحبها بالعسلْ.

(يختار صاحب الحانة زجاجة من الرف، ويقدمها إلى المشترك مع كأس. يأتي ميخائيل ليصب في الكأس ماء وعسلاً).

المشترك الأول: (لميخائيل):

أشكرك

ميخائيل: أشكرك

(يخرج المشترك الأول بأصابعه جريدة صغيرة مطوية داخل الزجاجة، يقرأ. يقطع الجريدة باعتناء قطعاً صغيرة، ويضعها في الكأس. يحرك القطع الورقية داخل الكأس بإصبعه. يشرب الكأس، يبقى صامتاً).

صاحب الحانة: (للمشترك الثاني).

كما ألفتم؟

المشترك الثاني: نعم.

صاحب الحانة: بالملح أم بالعسلْ؟

المشترك الثاني: أحبها بالملحْ.

(يختار صاحب الحانة زجاجة من الرف، ويقدمها إلى المشترك مع كأس. يأتي ميخائيل ليصب في الكأس ماء وملحاً).

المشترك الثاني: أشكرك.

ميخائيل: أشكرك.

(يخرج المشترك الثاني بأصابعه جريدة صغيرة مطوية داخل الزجاجة. يقرأ. يقطع الجريدة ويضعها في كأس. يحرّك القطع الورقية داخل الكأس بإصبعه. يشرب الكأس. ويبقى صامتاً).

ميخائيل: (يتجه إلى الباب ويفتحه)

تفضّلْ

(يدخل المشترك الثالث)

المشترك الثالث: سلاماً، سادتي

ميخائيل: وعليكم السلام، تفضّلْ، إن كرسيّكم هنا.

(يقدم له كرسياً فيجلس)

صاحب الحانة: (للمشترك الثالث)

كما ألفتم؟

المشترك الثالث: نعم.

صاحب الحانة: بالحبر يا سيدي؟

المشترك الثالث: بالحبرِ، أي بالحبرْ

(رنين جرس. المشترك الرابع يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الرابع: لا.

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك الرابع: أحبها بالسم...

صاحب الحانة: بالسم، يا سيدي؟

المشترك الرابع: نعم... نعم... بالسم.

(يشرب فيموت. يمدده ميخائيل على الأرض)

(رنين جرس. المشترك الخامس يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الخامس: لا.

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك الخامس:

بالنفظ، أي بالنفط.

(يشرب فينتفخ. ميخائيل يمدده على الأرض)

(رنين جرس. المشترك السادس يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك السادس: نعم.

صاحب الحانة: بالتمر يا سيدي؟

المشترك السادس: بالتمر، أي بالتمر.

(رنين جرس. يدخل المشترك السابع)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك السابع: نعم.
صاحب الحانة: بالرز، يا سيدي؟
المشترك السابع: أحبها بالرز.

(رنين جرس. يدخل المشترك الثامن)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟
المشترك الثامن: لا.
صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟
المشترك الثامن: أحبها بالحُب.
صاحب الحانة: لم يبق عندي حُب.

(رنين جرس. يدخل المشترك التاسع)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟
المشترك التاسع: نعم.
صاحب الحانة: تحبها ناشفةْ؟
المشترك التاسع: ناشفةً، ناشفةْ.

(يقرأ الجريدة، ثم يأكلها قطعة قطعة)

(رنين جرس. المشترك العاشر يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟
المشترك العاشر: لا.
صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟
المشترك العاشر: أحبها الليلةَ بالمشنقةْ.

(يقدم صاحب الحانة الزجاجة ذات الجريدة الصغيرة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهّزْ لنا المشنقةْ.

يوسف: جاهزة سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك العاشر)

تفضلوا، سيدي.

(يقوم المشترك من كرسيه، وقد عصب عينيه بالجريدة. يوسف يقوده).

يوسف: من ههنا، سيدي.

(رنين جرس. المشترك الحادي عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الحادي عشر: . . . .

صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟

المشترك الحادي عشر: أحبُّها بالرصاصْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهز لنا الرشاشْ.

يوسف: جُهِّز يا سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك الحادي عشر)

تفضلوا، سيدي.

(يقوم المشترك من كرسيه، وقد عصب عينيه بالجريدة، يوسف يقوده).

يوسف: من ههنا سيدي

(يخرجان، ويسمع بعد لحظات صوت إطلاق الرصاص)

(رنين جرس. المشترك الثاني عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الثاني عشر: لا

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك: أحبها بالعمى.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهز لنا المِفْقَأة.

يوسف: جاهزة، سيدي.

يوسف: (للمشترك)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان).

(رنين جرس. المشترك الثالث عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: (للمشترك الثالث عشر)

كما ألفتم؟

المشترك: أحبها بالصممْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

هيِّئ جهازَ الصممْ.

يوسف: هُيِّئ يا سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك)

تفضلوا، سيدي.

يوسف: (للمشترك)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان).

(رنين جرس. المشترك الرابع عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: (للمشترك الرابع عشر)

كما ألفتم؟

المشترك الرابع عشر: لا

صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟

المشترك: أحبها بالخَرَسْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

هيِّئ له كلاَّبة الإخراسْ.

يوسف: قد هُيئت، سيدي...

صاحب الحانة: (للمشترك الرابع عشر)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان وقد ألصق المشترك بلسانه الجريدة. يعود يوسف بعد لحظات).

صاحب الحانة: (مستعرضاً الجالسين وهم صامتون بلا حركة):

يا أحباءُ... حانةُ الطرقِ الأربعِ تدعوكمُ إلى الموسيقى

(لا استجابة).

صاحب الحانة : (يعيد):

يا أحباء، حانة الطرق الأربع تدعوكم إلى الموسيقى

(يفتح المذياع. نشرة أخبار محلية. . تتم النشرة)

صاحب الحانة : يا أحباء، تمت الموسيقى

(يغلق المذياع)

المشترك ١ : (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالعسل (يسكت)

المشترك ٢ : (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالملح (يسكت)

المشترك ٣: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالحبر (يسكت)

المشترك ٦ : (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالتمر (يسكت)

المشترك ٧: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالرز (يسكت)

المشترك ٨: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالحب (يسكت)

(فاصل زمني

المشترك ٩ : (يصفق ثلاث مرات): أحبها ناشفة (يسكت)

(يشترك صاحب الحانة ومساعداه في تقديم زجاجات الجرائد والكؤوس)

(رنين جرس. المشترك الخامس عشر يدخل)

صاحب الحانة : (يقترب من المشترك)

كما ألفتم؟

المشترك الخامس عشر: لا

صاحب الحانة : بأيّ شيء إذن؟

المشترك الخامس: (يقيد يدي صاحب الحانة بحركة سريعة)

أريد أن أشربك!

المشترك الخامس: (ليوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل: معاً

أمرك يا سيدي . . .

يوسف وميخائيل: لصاحب الحانة)

من ههنا، سيدي.

(يرافقانه خارج المسرح ثم يعودان. يجلس المشترك الخامس عشر على كرسي صاحب الحانة وسط البار).

(يبدأ الجالسون في تقطيع الجرائد وإذابتها وشربها، إلا المشترك الثامن. رنين جرس. المشترك السادس عشر يدخل فيتجه نحو الكرسي)

المشترك السادس عشر: اعتذرُ الليلة يا سادةْ

فإنني لن أشربَ الليلةْ

جريدتي، لن أثملَ الليلةْ

فموعدي أعظمُ يا سادةْ

أعظم منكم كلكم يا أيها السادةْ . . .

المشترك الخامس عشر: قل أين؟ قل لي . . . أين؟

المشترك السادس عشر: في بيت قوَّادةْ!

المشترك السادس عشر: (متجهاً إلى الجلوس الصامتين)

وفي أمان اللَّه، يا سادة (يخرج)

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

(رنين جرس. يفتح المشترك ١٥ الباب، يدخل المشترك ١٨)

المشترك ١٥ : (دون خدمة المشترك السابق)

كما ألفتم؟

المشترك ١٨ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٨ : نعم.

(رنين جرس. يدخل المشترك التاسع عشر بعد أن فتح له المشترك ١٥ الباب)

المشترك ١٥ : (دون خدمة المشتركين السابقين)

كما ألفتم؟

المشترك ١٩ : نعم.

(رنين جرس. يتجه المشترك ١٥ لفتح الباب. يثب المشترك ١٧ ويقيده بسرعة)

المشترك ١٧ : (إلى يوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول.

المشترك ١٧ : (بصوت حاد)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل : (معاً)

أمرك يا سيدي.

يوسف وميخائيل : (معاً للمشترك ١٥)

من ههنا، سيدي.

(رافقانه خارج المسرح، بينما يجلس المشترك ١٧ على كرسي صاحب الحانة. يوسف يدخل متجهاً إلى الباب يفتحه فيدخل المشترك العشرون الذي يتوجه إلى كرسي فارغ. يجلس)

المشترك ١٧ : (للعشرين):

أجلس هنا أو هناك

أن الكراسي كثيرة.

(رنين جرس. يدخل المشتركون التسعة الباقون. يصطفون أمام البار)

المشترك ١٧ : تفضلوا يا أيها السادة

تفضلوا أن كراسينا

تنتظر السادة كالعادة

أول التسعة : (يعيد ملتفتاً إلى زملائه)

تفضلوا، أن كراسينا

تنتظر السادة كالعادة

(يتقدم إلى كرسي دون أن يجلس، بينما يبقى زملاؤه في أماكنهم أمام البار)

المشترك ١٧ : (للثمانية الباقين)

إن نظام الشرب في الحانةْ

حسب المواد ١٢، ١٤، ٢٠

وحسب ما أورده القانونْ

يسمح لي أن أمنع الفوضى من الحانةْ . .

أول التسعة : سنمنع الفوضى من الحانة .

(يُنزل الثمانية المشترك ١٧ من كرسي صاحب الحانة، بينما يجلس أول التسعة على هذا الكرسي)

أول التسعة : (ليوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول

أول التسعة : (بصوت حاد)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول

يا سيدي، مرتين!

أول التسعة : (بصوت أكثر حدة)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

أمرك، يا سيدي .

يوسف وميخائيل : (للمشترك ١٧)

من ههنا، سيدي

(يرافقانه خارج المسرح)

أول التسعة: (يتوجه بخطاب إلى المشتركين الجالسين دون حركة أو اهتمام)

أيها السادةُ الأعزاءُ...

يا أبناءَ شعبي، وحانتي، وطريقي...

ألفَ شكرٍ إليكم...

أيها الآتون في الليل تنقذون مصيرَ الحانةِ المستباحَ،

يا أملَ الشعبِ، ويا شارةَ الوفاءِ العريقِ

أيها الإخوةُ العطاشُ،

أغني لكم الآن صوتكم، فاسمعوهُ

مرةً...

ثم مرةً.. رددوهُ

(يقف فوق الكرسي، ويغني بمرافقة طبل ومزمار من يوسف وميخائيل)

هل نبدل الزجاجة؟

لا، لا، للا...

الثمانية: (يرددون):

لا، لا، للا...

أول التسعة: هل نبدل الكؤوس؟

لا، لا، للا...

الثمانية: (يرددون)

لا، لا، للا...

أول التسعة: سنبدل الصحيفة

نعم، نعم...

الثمانية: نعم، نعم...

أول التسعة: ونبدل الحروف

الثمانية: نعم، نعم...

أول التسعة: سنأكل الوظيفةْ

ونعتلي الخروفْ

الثمانية: سنأكل الوظيفة

ونعتلي الخروف...

(أول التسعة يبدأ بإنزال الزجاجات من الرف، ويضعها في صف واحد على البار، بينما يخرج الآخرون نسخاً من صحيفة يدخلون نسخة منها في كل زجاجة... ثم يجلسون)

أول التسعة: (على كرسي صاحب الحانة)

تعال يا يوسف

(يقف يوسف إلى يمينه)

تعال ميخائيل

(يقف ميخائيل إلى شماله)

أول التسعة: (ليوسف)

افتح لنا المذياع

(يفتحه يوسف)

الأغنية:

حانة الطرق الأربعة

ما سمعنا بها

ما شربنا بها . . .

أول التسعة: (لميخائيل)

اغلق لنا المذياع

(يتجه ميخائيل لإغلاقه، بينما تستمر الأغنية)

(ستارة)

الطريق إلى سمرقند

الأشخاص: مسافر ١
مسافر ٢
الميت
الفتاة
الساقي
رجل الميليشيا.

«صحراء، سيارة لاندروفر مهيأة للرحلات الطويلة، قمر»

المسافر ١ : لقد رأيتُ التلْ. . .

المسافر ٢ : ماذا رأيتَ؟

التلّ؟

أمرةً أخرى حديثُ التلّ؟

اذهبْ، ونَمْ. . .

إنّا تركناهُ

من قبلِ يومينِ. . .

ألا تذكرُ؟

المسافر ١ : والميْتُ؟

المسافر ٢ : دفنّاهُ. . .

في أسفلِ التلِ، وكان القمرُ الشاهدْ

وحينما غابَ، تركنا قبره، حراً، بلا شاهدْ.

وكنتَ تبكي،

صامتاً، والرملُ ينسلُّ

تحت جفوني، والصدى ينسلُّ، والليلُ

ألم تكن قربي. . .

وقلتَ: ابتدأ الشيءُ؟

المسافر ١ : بلى . . .

وحين أتممتُ حديثي، انفجرَ الضوءُ . . .

(يتجه المسافر ٢ يسار المسرح ثم يختفي وراء السيارة)

المسافر ١ : (يهمهم أغنية وهو يُنزل الفراش)

في المقاصفِ، كان رجال الفضاءْ.
يشربون عصيرَ الفواكهْ.
في المقاصف كانت ثياب النساءْ
من زهور الفواكهْ.
في المقاصف كان رجال الفضاءْ
يدرسون عيونَ النساءْ

صوت : (عن قرب)

أغنية الليلِ انتهتْ، أم بدأتْ؟

المسافر ١ : (يلتفت دهشاً)

من أنتَ؟
قُل . . . من أنتْ؟

الصوت : (يقترب)

أنا الذي ودّعتَه في التلّ
أنا الذي أودعتَهُ الصحراءْ
تركتَه يبحث بين الرملْ
عن زهرةٍ من ماءْ
أنا الذي رأيت ما لا يُرى
وإنني أرى الذي لا يُرى

المسافر ١ : (يتجه متردداً ناحية الصوت)

قد رأيناك أمس تُدفَنَ بين الرملِ والشوكِ
والعيونِ الخفيضةْ
كنتَ مسجىً على الصخور، وكانت
زهرةُ الليلِ تستقرّ عريضةْ
فوق عينيكَ،
كنت ميْتاً حقيقياً،
وكنا مشيعيكَ الحزانى
كنتَ ميْتاً، وكان خيراً لكَ الموتُ،
وخيراً لنا. . .
ألستَ ترانا ـ
نَصِلُ الليلَ بالنهار، ونسري،

نحن والوخدَ والنجومَ القريبةْ
لا تشقُّ الحصى خطانا، ولا تستبقُ الريحَ
أغنياتٌ غريبةْ
نأكلُ الرملَ مشتهىً،
ونغنّي الخبزَ صخراً،
ونشربُ الليلَ فجراً
فلماذا أتيتَ؟
إنّا لنرضى بكَ نجماً، وأنت تسكنُ قبراً
هذه الصورةُ النحاسُ. . .

ألا تعرفُها؟

الميت: صورتي. . .

المسافر ١: لقد كنتَ نجماً

كنتَ نجماً من النحاس، وتبقى
أبداً تسكنُ النحاسَ مدمًّى
أوَليس النحاسُ خيراً من القتل؟
أليسَ النحاسُ أكثرَ أمناً؟
عُدْ إلى قبرك المهيّأ عند التلِّ،
عُدْ
فالصباحُ يجري إلينا.

الميت: ذاهبٌ، غير أنني
أصِل الموت بالحياه
كل ما قد بدأتُهُ
بالغٌ عنف منتهاه
من يحدثْ ضميرهُ
يلقني.
إنني خطاه

(بعد اختفاء الصوت يتجه المسافر ١ إلى فراشه، الضوء يشحب).

المسافر ٢: (يدخل من يسار المسرح قرب السيارة. يهمهم أغنية على القيثار):

سمرقند بين التلالْ.

لماذا أحبكِ؟ شعرك هذا قصيرْ
وثوبك هذا قصيرٌ، قصيرْ
فلو طالَ شعركْ..
ولو ظل ثوبكْ...
ولو صرتِ لا تكرهينَ السفرْ...
ـ سمرقندُ بين التلالْ.
لماذا نحب الوطنْ؟
لأنكِ فيهِ؟
لأن شذى الورد فيهِ؟
لأن المنائرَ ليست منائرْ؟
أمِ الغصنُ إذ يُقطعُ
يعود، كما كان، أخضرَ فيهِ؟
ـ سمرقندُ بين التلالِ

المسافر ١ : (يدخل من يمين المسرح، يمسك بيد المسافر ٢ بعنف)
جاءني الآن..

المسافر ٢ : مَن؟

المسافر ١ : صوتُه المثقلُ
برائحةِ الأرضِ...

المسافر ٢ : هل عدتَ تهذي؟

الميت : أتسمعني؟ إنني أحملُ
على كتفيّ رمالَ الخليقةِ، إني بها مثقلُ
أنوءُ بها، غير أني سأبقى

أنوء، إلى أن تجيءَ يدٌ تحملُ.
فهل هاجرَ الأرضَ عشاقُها؟
وهل نضبَ الجدولُ؟

المسافر ٢: لماذا تغالطُ نفسَكَ؟
إنك ميْتٌ...
وإنَّ سمرقندَ ليست بعيدةْ
وإنّا سنبلغها، إن أردتَ وإن لم تُرِدْ:
عجلاتٌ جديدةْ
وخارطةٌ...
ثم تمضي الدروبُ العديداتُ مثل الليالي العديدةْ

الميت: ولكنني، أنا، أنبتُّ في صحاراكُمُ صورةً للمدينةْ
وأشجارِها، أنا أعلنتُ أن وراء الرمال صواري السفينةْ

المسافر ٢: بهتتْ كلُّ صورةٍ
وامّحى البحرُ في الرمالْ
نحن في كل دَورةٍ
نبصر النَّيلَ لا المنالْ
الأغاني هي المدى
والأماني هي الرجالْ
فلمن تنكر الردى؟..
ألما قيل أو يقالْ؟

«سمرقند. ركن في مقهى حديث جدّاً»

المسافر ١ : أخيراً سمرقندُ. . .

المسافر ٢ : كنت أظن المدينةْ

لها قلعةٌ

(تدخل المقهى فتاة ذات شعر طويل، وثوب ميني، ومعطف ماكسي).

الفتاة : (على البار)

كأسُ نبيذٍ أبيضْ

بالليمونْ،

والماءِ الغازيّ

المسافر ١ : (للثاني)

شمبانيا الفقراء.

الفتاة : (تلتفت ناحية المسافرين ثم تعود إلى جلستها، متحدثة مع الساقي):

أرأيت مبارة الكأسِ

في غرناطةْ؟

الساقي : (يجيب وهو يهيئ الكأس ويقدمه:

لا، لا

الفتاة: (تلتفت ناحية المسافرين)

هل شاهد السيدانِ؟

المسافر ٢: لا . . . لم نكن في المدينةْ .

الفتاة: كنتم إذن في القمرْ؟

المسافر ٢: كنا حيارى تحت ضوء القمرْ

الفتاة: كنتم حيارى، داخلَ المركبةْ؟

المسافر ٢: لا . . .

الفتاة: وقلتَ كنتم تحت ضوءِ القمرْ؟

المسافر ٢: نعم . . .

الفتاة: لكنما هذا من المستحيلْ

فهذه الأيام ليلُ القمر .

المسافر ٢: نعم . . .

وكان الرمل تحت الضياءْ

يلمعُ . . .

والتلُّ

يلمعُ . . .

والظلُّ

الفتاة: (ضاحكة للساقي)

كم شرب السيد؟

الساقي: زجاجةً .

الفتاة: فودكا؟

الساقي: عصيرَ تفاح!

(يفتح الباب، فيلتفت المسافر ١، يدخل الميت، وينتحي ركناً من المقهى)

المسافر ١: (للثاني)

أرأيتَ الذي أتى؟

إنه يجلس كاللصّ في مقاهي الجنودِ

وجهُه الشاحبُ احتواني،

وعيناه تدوران في مسارٍ بعيدِ

المسافر ٢: (للأول)

أتراه مواطناً من سمرقندَ؟

(يلتفت مستفسراً إلى الفتاة)

الفتاة: (ملتفتة نحو الميت)

أتعني أني أراه غريباً؟

لم أجدْ مثلْ وجههِ

(تلتفت إلى الساقي)

أيها الساقي، أشاهدتَ مثلَهُ في المدينةْ؟

الساقي: (ينعم النظر إلى الميت)

عجباً!

إن وجهَه كوجوه الناسِ

لكنْ عيناه مطفأتانِ.

إنه يبصر الطريقَ، ولكنْ

لا يرى فيه صورةَ الإنسانِ...

انظروا:

سيدي ألا تشربُ القهوةَ. .
خذْها. . .
(يقدم له القهوة على البار)

الميت: (يقوم من مجلسه متجهاً نحو البار. يتناول القهوة)
شكراً. . .
وماءً رجاءً

المسافر ١: (مخاطباً الميت)
سيدي. . . هل أتيتَ هذي المدينةْ
سائحاً؟

الميت: جئتُ كي نكونَ جميعاً

المسافر ١: مع من؟ سيدي؟

الميت: أتجهلُ حتى الآن؟

المسافر ١: عفواً. . . عفواً. . .

الميت: أجبني سريعاً:
هل وصلتم هنا صباحاً؟

المسافر ١: وصلنا الفجرَ!

الميت: آ، آ. . . لقد فهمتم طريقي!

(تخرج الفتاة لتعود بعد هنيهة ومعها أحد رجال الميليشيا)

رجل الميليشيا: (يتجه نحو الميت)
سيدي،
إنهم يريدونك الآن. . .

الميت: لماذا؟

رجل الميليشيا : يا سيدي،

لست أدري!

الميت : حسناً، فلنقم. . .

إلى أين؟

رجل الميليشيا : سيارتهم، بانتظاركم. . .

الميت : من؟

رجل الميليشيا : ولكنيَ، يا سيدي، لست أدري!

الميت : هكذا الناس في سمرقندَ؟

رجل الميليشيا : إني لست منها، فإنني من بُخارى!

الميت : من بُخارى؟

رجل الميليشيا : أجل، وكان لنا فيها،

رصيدٌ

ومنزلٌ،

وحديقةْ.

الميت : عجباً!

رجل الميليشيا : غير أنني في سمرقندَ. . .

الميت : لماذا؟

رجل الميليشيا : لأن أجريَ أكبرْ.

الميت : عجباً!

رجل الميليشيا : سيدي، ألا تذهب الآنَ؟

الميت : إلى أين؟

رجل الميليشيا : سيدي.

لست أدري.

الميت: (لرجل الميليشيا)

حسناً، فلنقم...

(لنفسه):

سمرقندُ...

ما زلتِ على عهدك البعيد بعيدةْ.

(يمسك رجل الميليشيا بيد الميت. يخرجان)

الجزائر ـ نيسان ١٩٧١

القصائد السبع والعشرون الآتية كتبت بين آذار ١٩٦١ وتموز ١٩٦٢. ثم فقدت القصائد، وانقطع أثرها.

ثم كانت تلك السنوات العجاف التي لم أرَ وطني فيها، فلم أعد أتذكر أمر القصائد إلا نادراً.

غير أن صديقاً كريماً استطاع العثور عليها، وسلمها إليّ مشكوراً في نيسان ١٩٧١.

س. ي.

مسألة صغيرة

الآسُ في آذارَ يُزهرُ، والنجومُ عليكَ تمطرْ
يا صمتَ عينيها وتبحرْ.
وأنا، مع الأنهارِ، أسألُ يا نُسْغاً وصمتا
وأدقُ أبوابَ المدينةِ، شاحباً، بيتاً فبيتاً:
يا صمتَ عينيها:
يكادُ الصمتُ ينبع منكَ صوتاً ـ
عريانَ، يسألني الشهادةَ، كلَّ ليلةْ:
إني على نفسي مسمّرْ
إكليلي الشوكيّ أَصحَرَ حين أَزهَرْ
كسفينةٍ في الريح تغرقُ، والمرافئُ بعضُ ليلةْ.
إني أتيتكِ من منابعِ نهرِ دجلةْ
طوّفتُ كلَّ الأرضِ، خلّفتُ الذين أُحبهم، أسريتُ وحدي
أحرقتُ خمسَ سفائنٍ، مزّقتُ وعدي
لأكون قربكَ أنتَ، يا صمتاً بعينيها غريبا
يا صمتَ عينيها الغريبا

انطقْ. . .

وإلا فلتظلَّ سُدىً، ووهماً في قصائدْ

وحكايةَ امرأةٍ تعاندْ!

البصرة، ٦/ ٣/ ١٩٦١

المحكومون

الصوت

في عَتمةِ الإعدامِ، كان على سلاسلهم جناحُ
أصواتُهم ينبوعُ أَغنيةٍ تدورُ بها الرياحُ
الحارسُ الليليّ يشربها، ويفهمُها السلاحُ
في عَتمةِ الإعدامِ، كان على سلاسلهم صباحُ

المحكوم الأول

إني أحدثكم، وضوءُ السجنِ يشحبُ كالسنابلْ ـ
في غرفةٍ سوداءَ:
صوتيَ مثلُ جرحي
أبداً عميقْ
إني أحدثكم، وفي عينيّ يرتجف الحريقْ
والليلُ، والحمّى، ويبتسم المقاتلْ
إني أحدثكم، وفي عينيّ ترتجف السلاسلْ.
هذا هديرُ البحرِ...
إني أسمع الصيحاتِ مُشرَعةً سراعا
أنا، لن أقول لكم...
وداعاً.

الصوت

الموتُ في آذارَ، كان يدقّ أبوابَ المدينةْ
وحشاً رصاصياً يمزق في مخالبه الرهينةْ
كانت مدينتُهم وراءَ الليلِ داميةً سجينةْ
في قلعةٍ حجريةٍ. . . والوحشُ يلتهم المدينةْ

المحكوم الثاني

كان المساء دماً، وكنت أرى النساءْ
يصرخنَ، والطلقاتِ تصرخُ، والرجالَ يزمجرونْ
والشارعَ المهتزَّ بالطلَقاتِ، والدمِ، والمساءْ
ورأيت قتلانا هناك
أكفانُهم بَرْدُ النجومْ
وشفاهُهم، ثلجيةٌ، كالشمع، ترقبها النجومْ.

. . . .

. . . .

لن يحفروا قبراً لقتلانا، فما زالوا هناك
أكفانهم برد النجوم
وشفاههم، شمعية، كالثلج، ترقبها النجومْ

الصوت

يا من تعذَّب، صامداً في السجن، نحن هنا نراكْ
ونعيش جرحَكَ، عمقَهُ الأزليَّ، نشربُ من رؤاكْ
صوتاً مع الصيحات ننشره، وترفعه يداكْ
في كل بيتٍ رايةً لدمٍ، وغصناً من ذراكْ.

المحكوم الثالث

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

المحكوم الرابع

زهراتُ ليمونٍ على ينبوعِ مفرقها الحريرْ
إني لألمحهنَّ في المطر الغزيرْ
في الريح، في زنزانة الإعدام، في أقصى المدينةْ
سوداً، على عينين أُسبِلتا، وأهدافٍ حزينةْ
لو مرةً قبّلتُ عينيها ومفرقَها الحريرْ
لسألتُها أن تمنحَ العبراتِ وردةْ
أن لا ترى في الليل، لونَ الليلِ، وحدَهْ

الصوت

جرحٌ أمامَ السورِ، يرفعُ قبضةً للشمس كبرى
هذا النداءُ ـ الجرحُ، يهدرُ، عبر صمتِ الليلِ أسرى
فعلى النجوم الشاحباتِ سنىً، وكلُ الأرض ذكرى
الموتُ لن يرث الحياةَ، ولن يكون، ولن يمرا

المحكوم الخامس

كان المساءُ على امتداد السور جرحاً من عباءةْ
ونقاوةُ الأصواتِ توقدُ في تهدّجِها دماءه
كان الشعارُ يشقّ مندفعاً سماءه
فوق العباءاتِ العزيزةِ، فوق أحداقِ السلاحِ
قد كنتُ أسمعُ في الصباحِ
أصواتَهنَّ، غريبةَ النسماتِ، تنبضُ في جراحي
يا صوتَ أمي الغائرَ المضنى، على الجرح التقينا
في غرفةٍ بالسجنِ. . .
لكن الشعارَ يذودُ عنّا
وعلى امتدادِ السورِ يخفقُ. . فوق أحداقِ السلاحِ

الرؤيا

كسفينةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . . . كلُّ المنازلْ
مخفيّةٌ في الوردِ، تربُ من منابعها النجومْ
الناس فيها يعلمون ويحلمونْ.
وكموجةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . كلُّ المنازلْ
مفتوحةٌ للشمس فيها
النورُ يُطعم ساكنيها
والناسُ فيها يعلمونَ ويعشقونْ.
وكنخلةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . . كلُّ المنازلْ
تمتد في الآفاق مُشْرعةً، ومثل السعف تجمعها الجذورْ
والناسُ فيها يعرفون، من الزهورِ. . . من البذورْ
أنَّ الحياةَ تظلُّ ـ رغم الموتِ ـ أغنيةً تدورْ.

بغداد، ١٩٦١

نزوات

«١»

أراد أن يوقفها مرةً
في زَحمةِ الشارعْ
يسألُها، يصفعُها، يفتدي
جبينَها الرائعْ
لكنها مرتْ، وظَلَّ الحريقْ
في قلبه ضائعْ...

«٢»

لو جاء منها نبأٌ واحدٌ
لأمطرت دنياه
أزهارَ تفاحِ
لأُغمضت عيناه.
يا نبأً يهواه
يا نبأً واحدْ
كلُّ حياتي نبأٌ... يا أملاً واحدْ!

«٣»

قيل لها: جاءَ. فمرت على
شفاهها بسمةْ
وانتظرت يومينْ
وانتظرتْ شهرينْ...
تغزل، حتى غابت النجمةْ.

«٤»

أضحكُ مما أكتب الليلةْ
أقول لي: سعدي!
يا سيدي «العاقل»...
ماذا تكتبُ الليلةْ؟

البصرة، ١٥/ ٣/ ١٩٦١
الساعة الواحدة والثلث ليلاً

وداع

الصمتُ في الغرفةِ، والأهدابْ
في جرحنا، والزهرُ في الآنيةْ
لم تبقَ إلا ساعةٌ ثانيةْ
وتختفي عن دربيَ الأهدابْ
والصمتُ، والغرفةُ، والأثوابْ
وحبُّها المهملُ في زاويةْ.
أردتُ أن أخبرَها أنني
في الصيف قبّلتُ أختَها مرةْ
دعوتُها يوماً إلى البصرةْ
أردتُ أن أصرخَ، لكنني
كنتُ بلا غارٍ ولا سوسنِ
كنت حزيناً، غائمَ النظرةْ.
رداؤها البيتي. أزهارُهُ
شاحبةٌ، غائبةٌ، تذيلُ
كأنما فارقها الجدولُ
كان الأسى تخفق أسرارُهُ
في حرقةِ الصمتِ ونشتاره

ونحن من أعماقنا نخجلُ.
لا تسألي عينيكِ، لا تُسبلي
جفنيكِ، لا تقرّبي الخصلةْ
يا وردةً ظمأى على دجلةْ
ساعتنا دقت، فلا تسألي.

البصرة، ٢٨/ ٣/ ١٩٦١

الدم في الشوارع

من يغسلُ الدمَ في الشوارعْ؟
من يغسلُ الدمَ في الشوارعْ؟
هذا الدمُ الأزليّ. . . من يلقي عليه اليوم سترهْ
من يسرقُ الشهداءَ حفرةْ
ومعاولاً سريةَ الرجفاتِ، معتمةً، وحُمرةْ
مخضرةً، وعقيق خُضرةْ؟
من يغسل الدمَ في الشوارعِ. . .
أيها المطرُ؟
فاهطلْ على الإسفلتِ، اهطلْ. . . أيها المطرْ
ولتنهمرْ أقسى من الطلقاتِ تنهمرُ
هذا دمي العاري على الخشبات ينحدرُ
ويظل عبرَ الريحِ، والطرقاتِ، والأبوابِ، ينحدرُ
هذا الدم ـ الظفَرُ
وكزهرةٍ وحشيةٍ. . .
يوماً سينفجرُ.

البصرة، مساء ٥/ ٤/ ١٩٦١

رباعية

أعيشُ على مقلتيكِ، كأني بعينيّ لا أبصرُ
وليلُ شفاهي ارتجافٌ، ودربي هوىً أخضرُ
أقول إذا الريح مرتْ: لمن دونها تعبرُ
لمن يزهر الجلّنارُ، ويندفعُ المرمرُ؟

البصرة، ١٠/ ٤/ ١٩٦١

قناطر

إلى «وجه» رشدي

أعنّي، وحيداً، إليكِ
كما يقطعُ البحرَ طائرْ
وحيدٌ، غريبٌ، مهاجرْ:
أنبقى... كلانا جزيرةْ
وكلُّ هوانا قناطرْ؟
وأمسِ رأيتكِ والأخرياتْ
تسيرينَ... لكنْ وحيدةْ.
فهل تعرفينَ الدروبَ الشريدةْ
كما تعرفينَ الحياةْ...
ونبقى: كلانا جزيرةْ
وكلُّ هوانا قناطرْ؟

❊

وكالطفلِ، هذا المساءْ
تأوهتِ، ثرثرتِ عن حبنا
وكنا معاً ضاحكين
بعيدَينِ... نصمتُ عن جرحنا

نلوكُ الشؤونَ الصغيرةْ
ونبقى: كلانا جزيرةْ
وكلٌّ هوانا قناطرْ!

البصرة، ٢٨/ ٤/ ١٩٦١
الساعة العاشرة مساء

إلى أبي تمام

نوّارَ أهلِ الشرقِ، يا قمرِ القبائلِ، يا سِنانَ دجىً وخضرةْ
حدثَتني بالأمس مرةْ
ومضيتَ عني، غامضَ الخطواتِ، تبكي.
وعلى جبينكَ من عناءِ الحرفِ قطرةْ
ونجومُ قافلةٍ... وزهرةْ
أواه، يا قمراً على حورانَ، هل زرتَ المعرةْ
فأتيتني متسائلَ العينينْ؟

*

الثلجُ في هَمَدانَ يسقطُ، والدروبُ إلى تِهامةْ
ما زال فيها الليلُ، والدنيا ببغدادَ ابتسامةْ
مذبوحةٌ، والخمرُ في حانات نيسابورَ مُرةْ.

*

بالأمس، يا قمرَ الندامى، كانت الدنيا صغيرةْ
لم تندفع فيها المداخنُ، بعدُ، تستبق المهارى
نحو السماءِ، ولم تكن فيها بُخارى
أغنيةً حمراءَ للفقراء... يرتجفُ التِجارُ
منها، ويخضرُّ النهارُ.

ذهب السرى والوخدُ، يا حامي العذارى
إلا الطريقَ إلى بخارى، لم تزل عبر الصحارى

❋

لو زرتَ يوماً مرفأَ الشعراءِ في ليل المدينةْ
لسكرتَ حتى الصحو، حتى يحملوك على سفينةْ
ستجوبُ عالمهم، وتشعلُ من توهّجه سجارةْ
. . . .
ما عاد عالمنا استعارةْ
معنىً، وتشبيهاً، وزخرفةً ثمينةْ
ما عاد عالمنا تجارةْ

❋

لكنني، والبحرُ يغسل جبهتي برداً ولينا
سأظل منتظراً خطاكْ
وحديثَكَ الليليَّ، يا قمراً حزيناً. . .

❋

لو جئتَ عالمنا، لكنتَ معي سجيناً!

البصرة، ١٦/ ٥/ ١٩٦١

شرفة الساعة التاسعة مساء

تكاد لا تعرف من شوقك الهائجِ ماذا تقولْ.
تَقْصُرُ بالجرح الخطى أم تطولْ...
تكاد لا تعرف أنْ الوصولْ
إلى يديها حلُمٌ أولُ
يموت إن لم يهمسِ البلبلُ
فمن ترى تسألُ
غيرَ المسافاتِ التي تجهلُ
ومن ترى يعرف كي السبيلْ
إن صمتَ البلبلُ في التاسعةْ
وأُغلقتْ شرفتُها الضائعةْ
بين الدجى والنخيلْ؟

❊

يا شرفةً، مخضرةً، ضائعةْ
غامضةً...
في الساعة التاسعةْ
لن يقفَ العاشقُ والقيثارْ
لن تقفَ الأزهارْ

لن تقفَ الأشعارْ
تسأل عن أميرةٍ غارقةْ
في نومها. . . في شرفةٍ تنهارْ
حتى ولو في الساعة التاسعةْ!

البصرة، ١٩/ ٥/ ١٩٦١
الساعة الثالثة والربع عصراً

ثوب أبيض

ألمسهُ، لكنني لا أراهْ
ألمسُ فيه زندَها العاري
أضمُّه جدولَ أزهارِ
أحياهُ، لكنْ. . . رجفةً في الشفاهْ
كأنه الحرفُ بميلادهِ
والنجمُ في أبعد أبعادِهِ
والبُّ، والحلمُ، وشوقُ الجياهْ
وكلُّ ما تمنحه البصرةْ
نصاعةَ اللؤلؤ، والأسماكِ، والخضرةْ
والنورسِ النهريِّ، والجمّارِ في منتهاهْ

❊

صديقتي. . . مَرَّ على حبنا
ربيعُه، وجاءنا الصيفُ
ولست أدري. . . أيمرُّ الخريفْ
بنا، فلا نغفو
معاً. . . ونبقى في انتظارِ الشتاءْ؟

❊

صديقتي. . . أموت هذا المساءْ!

البصرة، ٤/ ٦/ ١٩٦١

غزل أموي

مضينا، فيا وادي العقيقِ: تذَكُّراً
وعُدنا، فيا وادي العقيق: أمانا!
ويا شرفةً بالضفتينِ فشارقٍ
سلاماً، ويا حبّاً ضممتِ... حنانا!
نغضُّ لديكِ الطرفَ محضَ مروءةٍ
وتبخلُ حتى بالحديث رؤانا...
وإني لأستحيي إذا رنّ هاتفٌ
فيوشكُ قلبي أن يقولَ: كفانا!
كأني مع الركْبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ
وإن كان أدنى من يديّ هوانا
فيا دارَها بالنخلِ، إن جئتُ ظامئاً
غريقاً، وإن أُقصيتُ عنكِ مكانا
فكلُّ ليالينا لقاءٌ، وكلُّها
رجاءٌ، وكلُّ الأبعدينَ سوانا
ويا دارَها بالنخل... لا هبطَ الدجى
عليكِ، ولا سَنَّ الوشاةُ سنانا

يداها، وعيناها، ولفتةُ جيدِها
لديكَ . . .
فيا وادي العقيقِ:
أمانا!

البصرة، ٧/ ٦/ ١٩٦١

صراحة

صمتي، يغني لكِ، يا فاحمةَ الأهدابْ
يسأل عن خصركِ، هل تجرحُه الأثوابْ؟
يسألُ عن فراشِكِ اللائذِ بالظلمةْ
هل داعبتْ مخملَه النجمةْ؟
وشعركِ النعسانُ. . . يغفو الآنَ أم ينسابْ؟

❋

قبّلتُ أمسِ الشفةَ الدافئةَ السفلى
كنا بعيدينِ، ولكنْ، كانتِ الأحلى
أحسستُها في شفتي ترجفُ
تحرقني، تسكرني، تعصفُ
يا ليلُ. . . أين الشفةُ الدافئةُ السفلى؟

❋

لا تتركيني ظامئاً محترقَ العينينْ
منتظراً صوتَكِ يأتي ليلةَ الاثنينْ
وددتُ لو عانقتُكِ الليلةْ
حتى يذوبَ النجمُ، حتى تنزفَ القبلةْ
وتدفعيني عنكِ مضنىً مغمض العينين

البصرة، ١٧/ ٦/ ١٩٦١

في المكتبة

صباح ١٩٦١/٦/٢٢

عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ آنا
ومع اختلاجِ الحرفِ أبحثُ عن ذراعِكِ، عن هوانا
أستعجلُ اللحظاتِ، أحسبهنّ في قلقي زمانا
عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ آنا.
لو جئتِ لأنهمرَ الصباحُ دجىً، وأظلمتِ الرفوفُ
وتيبستْ شفتايَ من خجلٍ، وخانتني الحروفُ.
قد كنتُ ملتهبَ الجبينِ، ممزقَ الرؤيا، مُهانا
عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ، آنا.

❋

وأتيتِ. . .
فانتفضَ الممرُّ سنىً. وأزهرتِ الرفوفُ
وتبسمتْ شفتايَ من فرحٍ، وأورقتِ الحروفُ
قد كنتِ هادئةَ الخطى، مضمومةَ الشفتينِ، حين دنوتِ مني
وتصافحتْ كفانِ، وارتجفتْ رؤىً. . . وسألتِ عني
يا نجتمتي: عينايَ غائمتانِ. . . لستُ أرى الأساورْ
فضيةً، والخصرَ، والثوبَ البنفسجَ، يا بنفسجةَ المسافرْ

يا حلوةً، ليليةَ القبلاتِ، يا شعراً يهيم بلا ضفائرْ
أحببتُه. . . حتى كأنَّ فمي بعتمتهِ. . . يغامرْ

*

وكقطعةٍ مسحورةٍ. . .
فارقتِ فارسَكِ الخجولا
لم تنطقي حتى بتمتمةِ الوداعِ
لم تتركيه يقول عن شفتيكِ شيئاً كم تمنّى أن يقولا
لكنْ ذهبتِ بلا وداعِ
ومضيتِ، نحو الشارعِ البحريّ، وحدَكِ. . .
كالشراعِ

البصرة، ١٩٦١/٦/٢٤

الأشرعة

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الأنّةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
يا ثوبَ مصلوبٍ تركناهُ
ممزقاً في البحر نستجدي عطاياهُ
يصنعه أطفالُنا من ورقْ
ويشربُ الرجالُ فيه القلقْ
والعرقَ ـ الليمونَ، والمجهولْ
في ساحلٍ مجهولْ
تعانقَ النجمُ به والغرقْ

❋

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الرجفةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
لقد حلمنا بكِ حتى الضياعْ
لقد نسجناكِ شراعاً شراعْ
يا ذلَّ أيامنا

يا نَفَسَ الأفيونْ
يا مِيسمَ العارِ بأحلامنا

❊

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الصيحةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
لن تخدعينا بعدُ. . . لن نرتدي
أثوابَكِ العاريةْ
لن نصلبَ الدنيا على ساريةْ
إنّا هنا، في الأرض. . . راياتُنا
مغروسةٌ في قلبها الرائعْ
خفاقةٌ في أفقها اللامعْ
محمرةٌ في وَهَجِ الزوبعةْ

❊

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الثورةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
إن لم تكوني كأناشيدنا
صوتاً. . . ودرباً ضاعَ من ضَيَّعهْ
مزقتُ أثوابكِ في الزوبعةْ
مزقتُ حتى الرجفةَ المسرعةْ
والبحرَ، والملحَ، وصمتَ الرذاذْ

أيتها الأشرعةْ!
إنكِ في صيحاتِ راياتنا
صوتٌ لمجد البحر والزوبعةْ
صوتٌ لشوقِ الأرضْ!

البصرة، ٢٣/ ٧/ ١٩٦١

السائر

أنتَ . . .

يا نافذةً للحرفِ خضراءَ هناكْ

في ارتجافِ السعفِ والعتمةِ والموتِ تضيءْ

عندما أغمضُ عينيّ أراكْ :

وجهكَ الساذجُ، عيناكَ، يداكْ

والندى في ثوبك القطنيّ، والعشبُ على هجسِ خطاكْ

إنني أسمعُ أنباءكَ في الهمس، وأُغضي

إنني أتبع في صمتي خطاكْ

أنت يا سرّاً مع الأنهار سائرْ

أيها العابرُ آلاف القناطرْ

ودروبَ النخلِ والوحشةِ والشوقِ المغامرْ

تحمل المنَّ أحاديثُك، والسلوى يداك

. . . . وعميقاً في قرىً مخضرةِ الماءِ أراكْ

الندى في ثوبك القطنيّ، والعشبُ على هجسِ خطاكْ.

البصرة، ٢٦/ ٧/ ١٩٦١

ثلاث حكايات عن الكويت

١ ـ موت حمود

لم يحفروا قبراً له في وحشةِ الصحراءْ
في رملها الأبديّ، في صيحاتها الخرساءْ
ما بللوا شفتيهِ قبل مماتِه بالماءْ
لم يسمعوا كلماتِه الرمليةَ الشوهاءْ
بل لم يكونوا يقدرونْ
أن يحفروا قبراً لَهُ
أن يمسحوا شفةً لَهُ
فالكلُّ موتى مثلَهُ. . .

❊

٢ ـ أبو ذهب

كان مهرّباً خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحريرِ فوق كتفهِ تنسابْ
كان يغني في لياليه عن العشاقْ
عن لوعةِ الأشواقْ
عن نخلةٍ في البيت يبكي حولها العشاقْ

وحين عُدنا، قبل أعوامٍ، من المنفى... من الكويتْ
حدثني عن حبهِ، عن حلوةٍ في البيتْ
وأطبقَ الأجفانَ خجلانَ...
ومرتْ نسمةٌ بالماءْ

*

أبو ذهبْ
ليس مهرّباً، وإن ظلَّ خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحريرِ فوق كتفهِ تناسبْ
أبو ذهبْ
حكايةُ المسافرينَ والبريدْ:
سفوانُ يا مطلاعُ... أو مطلاعُ يا سفوانْ!

*

وأمسِ، في رطوبة البصرةِ والغدرانْ
سألتُه عن المسافرينَ والبريدْ
لكنه كان مهرباً خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحرير فوق كتفهِ تنسابْ
وكان مهموماً...
غريباً...
مثقلَ الأجفانْ

٣ ـ عبد الله سمارة

كان من الأردنّ... ألقته معي الدنيا
في قريةٍ ملعونةٍ تكرهُ أن تحيا

كان يحب الجبنةَ البيضاءَ والزيتونْ
والزعترَ النفّاذَ والليمونْ
واسمَ التي يهوى
ورايةً في عتمةِ الأردنّ خفاقة

*

أواه لو مرّ على منزلنا يوماً
لو صافحتْ كفَّيّ كفاهُ
لو أومضتْ في الصمتِ عيناهُ
لو زارني يمحضني بهجةَ دنياهُ:
جبنتَهُ البيضاءُ والزيتونْ
والزعترَ النفّاذَ والليمونْ
واسمَ التي يهوى وتهواهُ

*

أنباءُ عبداللَّه:
في السجنِ، أو في عتمةِ الأردنّ

بغداد، ٣/ ٨/ ١٩٦١

إلى رائد فضاء TOVARICH!

عندما تبتعد الغاباتُ عن عينيكَ مخضرهْ
وتخبو أرضُنا زرقاءْ
وتشحبُ في زجاجِ المرقبِ الأضواءْ
ستبقى نجمةٌ حمراءْ
على أهدابك الشقراءْ
نداءً لافحاً لم ينطفئ مرةْ
وتبقى الأرضُ حتى في جذور جذورِها حمراءْ
وتبقى أنتَ بين نجومها زهرةْ.
TOVARISCH!

عندما تنفجر الأحلامُ كالبركانْ
وتُركَز مثل شلاّلٍ من النيرانْ
كرمحٍ من سلامٍ، رايةُ الإنسانْ
فإن العالمَ الزائلْ
وإن القتلَ والقاتلْ
وإن الدودَ في الأغصانْ
وإن الصُّفرةَ الشوهاءَ في نيسانْ
ستذروها بعيداً رايةُ الإنسانْ

TOVARISCH!

والسنى اللألاءُ في عينيَّ ينهمرُ
فتشملُ جبهتي، ويدور فيها النجمُ والمطرُ
وأُغضي في اختلاجِ الفرحةِ ـ الرؤيا، وأنتظرُ:
إذا لم تنفتحْ عيناك في عينيَّ... أنتحرُ!

بغداد، ٨/٨/ ١٩٦١

الصلبان الخمسة

خمسُ محطاتٍ عبرناها، ولم نتركْ بها تذكارْ
لم نرتجفْ فيها، ولم نثملْ، ولم نُطرقْ على قيثارْ
خمسةُ أنهارٍ من الرمل على القيثارْ
خمسةُ صلبانٍ من الصمتِ:
حزينةٌ أنتِ
أنفض عن أهدابكِ السودِ رمادَ العالمِ المنهارْ
ساذَجةٌ أنتِ
وجهُكِ في صحرائنا ينتظر الإبحارْ
متعبةٌ أنتِ
شَعرك يرخي الظلَّ بين الصحوِ والأمطارْ
وحيدةٌ أنتِ
كأننا لم نرتجف يوماً، ولم نثمل، ولم نُطرق على قيثارْ
في شفتيكِ العطشُ المرُّ، وفي إغضائكِ الأسفارْ
شجيرةٌ أنتِ
معتمةٌ... ليليةُ الأزهارْ
ألمسُ في أوراقها صوتي

❉

أواه، يا خمس محطّاتٍ بلا تذكارْ
أواه، يا خمسةَ أنهارٍ على قيثارْ
أواه، يا خمسةَ صُلبانٍ من الصمتِ

*

لا تتركيني هذه الليلةَ مصلوباً على الأسوارْ!

البصرة، ٢١/ ١٠/ ١٩٦١

أشياء

لم يقلْ صمتيَ «لا فائدةَ اليومَ»، ولا «نحن انتهينا»
إنه يسألُ عبرَ الحلمِ عنّا
وهو إذ تنفتحُ الأحداقُ، لا يسألُ عن أثوابنا البيضاءِ،
لا يسألُ عنا
ربما أخفَى وراء السور عينيكِ وأَغفى
ربما أُخفي وراءَ النبلِ عينيك وأُغفي
ربما أُخفي وراءَ النبل خوفي
قانعاً بالحلم، في العَتمةِ، أستيقظُ مضنى
شاحباً، أُنكرُ ما قبّلتهُ خَدّاً وعينا:
وجهُكِ الغامضُ، واستحياؤك القاسي، وضمّاتُ الأناملْ
وانطباقُ الهدْبِ، والبحّةُ، والهمسُ المماطلْ
وجهُكِ الغامضُ... كم أحلم أن أغرزَ فيهِ
شفتي، تمتصّهُ، تعرف ما ينبضُ فيهِ
ووراء الليلِ... كم أشتاقُه لمساً ولونا.

*

إنني أعبدُ في بغدادَ وردةْ
وقميصاً زلقاً يسهرُ وحدَهْ

وحريراً لامعَ العتمةِ، مغرورَ المخدّةْ

*

أيهذا الزغبُ الناعمُ. . . كنْ حتى أمامَ السورِ وردةْ!

البصرة، ٢٠/ ١٢/ ١٩٦١

الفردوس المغلق

ماذا تخبّئُ أيها البستانْ؟
إني لأبحثُ في الدجى النعسانْ
عن زهرةٍ، وحمامتينِ، ونخلةٍ، وشُجيرتي رمّانْ
إني هنا أصغي. . .
كأنّ البابَ أُغلقَ. . .
وارتمتْ في العتمةِ الألوانْ
السورُ أخضرُ أيها البستانْ
وعلى بحارِ العشبِ يعبر فارسُ الأحزانْ
خصُلاتُه تندى، وملءَ قميصِهِ يتأرّجُ الريحانْ
الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
قد أتعبتْهُ البيدُ والأنهارْ
الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
يهفو لآفاقِ وراءَ الصمتِ والقيثارْ
الفارسُ الليليّ يا بوابةَ البستانْ
ليس يحسُّ الثلجَ والجمرةْ
لا يعبأُ الليلةَ بالصحو وبالخمرةْ
لا يملكُ الليلةَ أن يضحكَ أو يبكي

الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
ملقىً على الشوكِ
ممزقٌ، منتفضٌ، ظمآنْ
ملقىً على الشكِ
يدمى بلا ربٍ، ولا شيطانْ

*

أواه. . . يا بوابةَ البستانْ
من يفتح الفردوسَ للإنسانْ؟

البصرة، ٨/ ١/ ١٩٦٢

النهر

دربٌ من الصفصافِ، والطُحلبِ المائيِّ، والخضرةْ
مسراهُ عبرَ النخلِ أمواجٌ، وفي قبعتي زهرةْ
نهرٌ من الريحانْ
والصمتِ والرمانْ
يمتدّ حتى بيتها المغلقْ
حتى جذورِ الوردِ في البستانْ
والقمرِ السهرانِ، والأحزانِ في الزورقْ
يا نهرُ، والفضةُ تلهو على
أمواجِكَ الخُضرِ فلا تغرقْ
والفجرُ من سلّته ناثرٌ
شمساً وعنقودَ سنىً نديانْ
كسعفةٍ أوراقُها مرجانْ
يا نهرُ. . . إن جئتَ إلى بيتها
تلثمهُ. . . تجعلُه شطآنْ
فاحملْ إليها هذه الزهرةْ
أحملْ إليها زهرةَ المرجانْ
لعلها تنسى بها النسيانْ

البصرة، ٢٨/ ١/ ١٩٦٢

المحطة

«في ذكرى صمد وادي»

هززنا الريحَ، والفولاذَ، بالراياتْ
وفي صمتِ المحطةِ تهدرُ الصيحاتْ
وملءَ صدورنا مفتوحةِ القمصانْ
يئزُّ الحقدُ والريحُ
وتهتزُّ المصابيحُ
وتندى مقلتا إنسانْ
وصاياه على أكتافنا، تابوتُه، أحلامُه المرجانْ.

*

لأجلكَ تلمسُ الرايةْ
جبيناً ناصعاً لم يترك الرايةْ
إلى أن أُغمضَتْ في الموت عيناهُ
فيا بذراً زرعناهُ
ويا غصناً رعيناهُ
ويا زهراً لأجل الشمسِ والدنيا وهبناهُ

ستبقى تخفقُ الرايةْ
على عينيكَ حتى تشرق الشمسُ

❊

وفي صمتِ المحطة تخفقُ الصيحاتْ
وتعلو صرخةٌ وحشيةٌ مُرةْ
وتسفي عَتمةَ العرباتِ أضواءُ المصابيحِ
ولا يبقى سوى الريحِ
سوى الريحِ
سوى الريحِ

البصرة، ١٣/ ٣/ ١٩٦٢

أفكار ليلية

في هذه الليلةِ من أيارْ
سألتُ عن أهدابكِ المعتمةِ الزرقاءْ
أردتُ أن أعقدَ ينبوعاً من الأزهارْ
على محيّاكِ، وأن أقتحمَ الأسوارْ
مدينةٌ بحريةٌ أنتِ. . .
فما أبعدَ. . . ما أبعدَ عينيكِ عن الصحراءْ.

❋

أمسِ، مسحْنا وجهَكِ الغامضَ بالأغصانْ
نمنحهُ الممكنَ في تيهٍ من الألوانْ
واليومَ، حتى الغصُنُ المخضلُّ بالإيماءْ
طافٍ على نهرٍ من النسيانْ

❋

حين تهبُّ الريحُ عبرَ القصبِ النهريِّ والظلماءْ
حين يذوبُ النجمُ في اللألاءْ
حين يدورُ الماءُ في أغنيةٍ من ماءْ
حين أرى الأشياءْ
في لحظةِ الرؤيا بلا أسماءْ

ألمحُ في الظلماءْ
أهدابَكِ المخضرّةَ الزرقاءْ
والخَدَرَ البحريَّ في عينيكِ والإعياءْ
أبوابُ بيتي أُوصِدَتْ بالشمعِ والأزهارْ
عن خطوكِ الليليِّ يا أغنيةَ الأسفارْ
من غرفتي أسمع أصواتي
تئنُّ خلفَ البابْ:
زمجرةَ البحرِ، وهمسَ النورسِ الآتي
والصمتَ، والحانةَ، والخندقَ، والأنهارْ
والموتَ، والمنديلَ، والقمّةْ
والثلجَ، والأهوارْ
والساحةَ الحمراءَ، والنخلَ، وأوليانوفَ، والعتمةْ
والدمَ في مدريدَ، والبسمةْ
وخطوَكِ الغامضَ إذ يَنبتُ في الأحزانْ
«غصناً من الأحلام، أو حلماً من الأغصانْ»
من غرفتي أسمع أصواتي
تنهش شمعَ البابِ والأزهارْ
تتركني خجلانَ من صحراءِ مرآتي

*

من قال للزهرة: لا تذبلي؟
من فتّح النبعَ على الجدولِ؟

من منحَ القيثارَ للبلبل؟
من قال لي: لن تموتْ؟

*

في غرفتي تدخلينْ.

البصرة، ٣/ ٥/ ١٩٦٢

صور قديمة من «كوت الزين»

١ ـ صديقُ جَدّي

عندما لاقيتُه كان ضبابُ النخلِ أزرقْ
كان في بستانه يُطعم عصفوراً معلقْ
ـ إنها قطتنا، لا تترك المسكينَ مرتاحاً هناكْ.
والفراشاتُ على لحيتهِ، والوردُ، والطَلْعُ الممزقِ
كإله العشبِ في عينيه تمتدُّ المراعي
ويرفّ الماءُ والزهرُ ينابيعَ شعاعِ.
آه يا كوفيةً حمراءَ في الخضرة تغرقْ
والندى الليليُّ ما زال على أهدابها قطناً نسيلا
صَدَفاً بضّاً، وجوريّاً، وزنبقْ
كم تمنيتُ طويلا
تاجَكِ الياقوتَ يختالُ على رأسيَ مرةْ!

٢ ـ المقبرة

عندما ينهمرُ الليلُ تئنُّ المقبرةْ
ويهزُّ الجنُّ والموتى غصوناً مقفرةْ

وتنوح الريحُ في سدرتها، والنجمُ يصفرُّ ويهوي
مطراً من ورقٍ أصفرَ يسقي مقبرةْ

٣ ـ أم الرصاص

أنتِ، يا سِريةَ الأنهارِ، يا طعمَ جزيرةْ
في بحارِ النخلِ، تلتفُّ على أحزانِها، تعبى، كسيرةْ
أنتِ، يا مجهولةً، طينيةَ الشطآن، سوداءَ الحياةْ
يا دروباً لم يكنْ فيها إلهْ
يُطعم الأحياءَ والموتى، ويسقي حلمَهم مَنّاً وسلوى
من ترى يرفع عن أستارِكِ الخضراءِ أسرارَ لياليكِ الغريقةْ
حينما يشربُ موتاكِ المياهْ
من نجومِ النهر؟
هل تدرين ما تخفي الجباهْ
في قبورِ الطينِ. . . يا أمَّ الرصاصْ؟
حينما يشربُ موتاكِ المياهْ
من نجومِ النهرِ، تأتيكِ سفينةْ
دون مرساةٍ وملاحينَ. . .
تأتي كالسفينةْ
وعليها يفتحُ الموتى عيوناً من خزفْ
ويهيمون على أخشابها السودِ إذا الليلُ انتصفْ
ينقلون الشايَ والصابونَ والطِيبَ،
ويبكون طويلا

وعلى شطآنكِ السوداءِ تهتزُّ النجومْ. . .
ويمر الفجرُ بالنخلِ. . .
وتشتاقُ النساءْ
والندى يلمعُ. . .
والموتى يعودونَ. . .
ويبكون السفينةْ
وقبورُ الطينِ تنهارُ انتظاراً للمساءْ. . .

البصرة، ١٢ ـ ١٩٦٢/٦/٢١

إليك... أيتها الجزائر

١ ـ وحدات من جيش التحرير تدخل المدينة

سماءُ الفجرِ في أحداقهم، وبنادقُ الزيتونِ في صيحةْ
وإِثْرَ خطاهمو نبعٌ من الفرحةْ
شميمٌ من ترابِ الجنةِ الحمراءِ، أو قطرةْ
وراياتٌ بوجهِ الريحِ مخضرّةْ
كأن مدافعَ الثوار لم تُنبتْ سوى زهرةْ
ولم تدفعْ سوى نبعٍ، ولم ترفعْ سوى نفحةْ
كأن «خليفةَ» المذبوحَ يحملُ زهرةً بيضاءْ
كأن عيونَهُ السوداءَ فوق نفائض الجندِ
كأن الموتَ والتاريخَ ينشقّان عن مهدِ
كأن العالَمَ الثورةْ

٢ ـ أنا في شارع

لمن تمضي الخطى في الجدولِ الإسفلتِ؟ في الشارعْ؟
ومن يُرخي على عينيّ شمساً في الدجى ـ
شمساً في الندى الخضراءَ ـ
شمساً في الضحى خضراءَ ـ

شمساً في الضحى حمراء
ترش الشارعَ المغبرَّ، والقمصانَ، والباعةْ
وخذي من أُحبُّ، وحسرتي، والسجنَ والعمالْ.
وثوبَ الطفلِ، والباصاتِ، والمنديلَ، والساعةْ
ومَن؟
أَنصِتْ!
كأن الريحَ تدعوني
إليها، والمدى ينشقّ عن بحرٍ وليمونِ
وداعاً، يا شراعاً دامعَ العينينْ
وداعاً، يا دروباً لم تسَعْ اثنينْ
ويا درباً إلى وهرانَ، يا درباً إلى الإنسانْ
خذيني في ذراعِ الريحْ!

٣ ـ طفل في ساحة بتلمسان

نسيمُ الليل يمشط شعرَهُ في آخرِ الساحةْ
وفي رأسِ أمهِ تندسُّ كفّاهُ
ملوّحتين، ماشطتين، نائمتينِ. . .
والراياتُ في الساحةْ
ويستانٌ من الأضواءِ والذكرى.
وعيناهُ ـ
على شعر أمهِ نجمانِ
ترتيلانِ
ينبوعان للآتي. . .

٤ ـ شابة وجندي يرفعان العلم الجزائري في روشيه نوار

هنا، يا صخرةً سوداءَ، جئنا نغرزُ الرايةْ
نغني عشبَها الأخضرْ
ننادي نبعَها الأبيضْ
نشمُّ البرعمَ الأحمرْ
هنا، في الريح، في الأرضِ التي تزأرْ
وهبْنا وجهَها الأخضرْ
مراعي النجمِ والأنهارْ.
وهبْنا نبعَها الأبيضْ
حنينَ الصمتِ والثوارْ.
وهبنا زهرَها الأحمرْ
وفاءَ الجرحِ والأنصارْ.
فيا كفّاً على صخرةْ
ويا حُبّاً على صخرةْ
ويا حقداً على صخرة:
ركزنا في الأعالي رايةَ الثورةْ!

بغداد، ٧/ ٧/ ١٩٦٢

بعيداً عن السماء الأولى

(١٩٧٠)

جزيرة الصقر

يحجبها سقفٌ من النخلِ فلا نعرفُ ما فيها
ويأكلُ النورسُ والبطُّ الشريدانِ أغانيها
وحينما يُزهر عند الساحلِ النورُ
تطلُّ في الظلمةِ، في ظلمتها الخضراءِ، مهجورهْ
كأنها قصرٌ وراءَ النهرِ مسحورُ
أو مركبٌ غاص إلى القاعِ، وأبقى رايةً سوداءَ، مقرورهْ

* * *

وفي ضباب الفجرِ يبدو الماءُ والطينُ
ذَوباً، هو القهوةُ والنارنجُ والتينُ
والنخلُ أشباحاً، وسعفُ النخلِ أشراكاً
وبغتةً. . .
فتَّحتِ للعالم شبّاكا
وانحسر الفجرُ الضبابيُّ، وبانَ الماءُ والطينُ
وبعضُ أكواخٍ، ولونٌ فيكِ مكنونُ
جزيرةَ الصقرِ!
وأطبقتِ عن العالم شبّاكا.

* * *

وحين كنا نذرع الدنيا على قاربِ قصديرِ
ونسبقُ الأسماكَ في المدِّ
وننفضُ التوتَ رذاذاً أحمرَ الشُّهدِ
يبتلُّ منه الماءُ، بالجوريّ، والصيحاتِ، والنورِ
كنا نراها قلعةً يحرسها الجنُّ
في مهبطِ الليلِ. . .
فهل ندخلها نحنُ؟

* * *

واليومَ، أصبحنا كباراً، أيها الزورقْ
وامتدت الآفاقُ حتى آخرِ الدنيا
وامتدّ نهرُ الشيبِ في الصُدغينِ والمفرِقْ
لكننا لما نزلْ نسألُ أن نحيا
أن نعبرَ الخيطَ إلى الجرف الذي يخفقْ

* * *

جزيرةَ الصقرِ!
أرى أكواخَكِ الشهباءَ في المنفى
منخورةَ الأعوادِ، يلهو فوقهنّ الريحُ والماءُ
والشمسُ ـ كالتّنور ـ حمراءُ
تستقطرُ الأعشابَ، والبرديَّ، والسعفا
حتى إذا ما أصفرّ أو جفّا
غابت، وأبقت بعدها للناس ما شاؤوا
الخبزُ، والعتمةُ والداءُ

* * *

جزيرةَ الصقرِ!

لقد نام هنا الشارعْ

وانقطعَ الخطوُ، وهبّتْ نسمةٌ في غصنِ ليمونِ

وارتجفَ النجمُ قليلاً، وارتمى دوني

مثلَ سنانٍ من حريرٍ خيطُه اللامعْ

وأنتِ في الماء تنامين، وكالماء الذي يرجفْ

ترجفُ أضلاعُكِ. . .

تدعوني

أن أمنَحَ الدفءَ لأطفالكِ، والبردَ لأحداقِكْ

والوردَ والأثمارَ واللونَ لأوراقِكْ

. . . .

جزيرةَ الصقرِ!

سأحيا يومَكِ المشرقْ

الجزيرة، ١١/٣/١٩٦٦

كلمات شبه خاصة

«إلى عبد المجيد الراضي»

قد يقعُ الإنسانْ
في قبضةِ السجّانِ، أو في قبضةِ الأزهارْ
بلربما أوقفَ من سنينهِ، عشراً، على الأحجارْ
يمنحُها النُسْغَ، كما تمنحُ أزهارُ الدجى الشطآنْ
وربما استنفدتِ الأشجارْ
أعمارَنا . . .
من أجل ألاّ نجهلَ الأشجارْ
لكنني أريد أن أخبر الليلةْ
وأنت لا تجهلُني ـ
كنا معاً في ذلك البستانْ ـ
أريد أن أخبرَكَ الليلةْ
بأنني في قبضة الذكرى:
سجينٌ دونما سجّانْ
وحين يبدو التلُّ كالغيمِ، ويدنو الغيمُ كالتلِّ
وترتعي في العُشبِ المبتلِّ والداليةِ الألوانُ والقطعانْ

أغنيةً للسروِ والنخلِ
أغورُ في الذكرى، فتمتدُّ على جبهتيَ القضبانْ

❋ ❋ ❋

كما أحسدُ الليلةَ من أوقفَ للبستانْ
شبابَهُ، منجلَهُ، رايَتهُ الأولى
كم أحسدُ الليلةَ من دسّ كتاباً واحداً في راحَتيَ إنسانْ. .

❋ ❋ ❋

أواه. . . كم أحسدُكَ الليلةْ.

الجزائر ـ بلعباس، ١٤/ ٣/ ١٩٧٠

خواطر في مدينة قريبة من البحر

أمثلما مرّتْ عليكَ الليلةُ الأولى
تمرُّ هذي الليلةُ الألفُ؟
أيبقى الحرفُ مشلولا
ينخرهُ المنفى؟
أيبقى الغصُنُ المقطوعُ مقطوعا
أوراقُه تستمطر الجوعا
أوراقُه تصفرّ. . .
أوراقُه تحت السماواتِ الغريباتِ تعرّي غصُناً كالجذر مجهولا؟

❋ ❋ ❋

هل نعرفُ النجمَ على حُزمةِ أوراقِ؟
هل نعرفُ البحرَ بلا زُرقةِ أعماقِ؟
ومن ترى يمنحُ هذا المغربيَّ: الدهشةَ الأولى
والخجلَ البصريَّ، والبسمةْ؟
والنخلَ والعتمةْ. . .
والبيرةَ السوداءَ، والساحاتِ، والماءَ الذي ينهلُّ مجهولا؟

❋ ❋ ❋

أكلّما لوّنَ هذا المطرُ القرميدَ بالماءِ

أكلما أبصرتُ عصفوراً على حائطْ
أكلما أرعدتِ الأدواءُ أعضائي
واجهني النخلُ. . .
نحيلاً، غامضاً، مستوحداً، نائي
قاماتُه تمنحني لحظةَ إيماءِ
وسعفُه يهمسُ في العتمةِ أسمائي

* * *

تخجلُ أن تأسى، ولا تقدرُ أن تَضحكْ
وتعصبُ العينينِ حتى لا ترى جرحَكْ
تريد أن تبقى قوياً دون أن تقوى
وفي ظلامِ الصوتِ تنسى أن ترى صبحَكْ
إنك لا تهوى، ولا تبصرُ من يهوى
كأنك الحدأةُ، والطائرْ
والبيتُ، والمنفى
كأنكَ الأولُ والآخرْ.

الجزائر ـ سيدي بعلباس، ١٤/ ١١/ ١٩٦٧

شط العرب

حلم ١

يبللُ ماؤهُ طعمَ الوسادةِ في ليالي النوءِ والحسرةْ
ويأتي مثلَ رائحةِ الطحالبِ، أخضرَ الخطُواتِ،
يمسحُ كفّيَ اليمنى
بغصنِ الرازقيّ:
ـ أفقْ. . .
أنا النهرُ. . .
ألستَ تحبني؟ أوَلَم تُرِدْ أن تبلغَ البصرةْ
بأجنحةِ الوسادةِ؟
أيها النهرُ
أفقْتُ، أفقتُ.
«فوق وسادتي قطرةْ
لها طعمُ الطحالبِ. . .»
إنها البصرةْ.

حلم ٢

تظللني السماواتُ
تظللني السماواتُ الخفيضةُ والعصافيرُ

وجدّي ممسكٌ بيدي
تظلل وجهَهُ كوفيةٌ حمراءْ. . .
ويلمعُ في البعيدِ الماءْ
وجدّي ممسكٌ بيدي:
لنسرعْ قبل أن تمضي العصافيرُ
لنسرعْ قبل أن يأتي على شبكاتنا النورُ. . .

❊ ❊ ❊

على الأعشاب، من شبكاتنا، تقاطرُ الأسماكْ
وتبدو في ضبابِ النهرِ مثلَ سفائنٍ خضراءَ
مثل سفائنٍ حمراءَ
مثل سفائنٍ زرقاءْ
سفائنَ أبحرتْ قبلَ ارتفاعِ الماءْ

حلم ٣

على شطآنِ «كوت الزين» كان الفجرُ ينهمرُ
وكان النخلُ يلبس قبّعاتٍ أرجوانيةْ
وفي شعَري، النجومُ، الدفءُ، والمطرُ
وكنتُ أعوم نحو الضفةِ الأخرى
أعومُ لأبلغ الأهوازْ
وفي الأهوازِ كان الفجرُ ينهمرُ
وكان النخلُ يلبس قبعاتٍ أرجوانيةْ
وكان الماءُ في «كارونَ» مثلَ الماءِ في البصرةْ.

سيدي بلعباس، ٤/ ٥/ ١٩٦٩

بطاقة زيارة

«إلى رشدي»

عامَ ألفينِ، وفي منتصفِ الليلِ، وفي بابِ حديقة
سائرٌ مرَّ، خطاهُ المثقلاتُ
برصاصِ العُمُرِ الضائعِ، تروي كيف ماتوا
أين ماتوا...
في سِباخِ الكرخِ، أم في حُفَرِ الروحِ العميقةْ؟
* * *
هذه الأرضُ التي يعرفها مقهىً فمقهى
والتي سار على إسفلتها القيريِّ، أعواماً، وناما
في سواقيها النDياتِ، وذاق العرقَ الأبيض ـ
في بارٍ على شارعها النهريّ صِرْفا
والذي ضمّتهُ زنزاناتُها عاماً ونصفا
وتلقّى زهرةَ الدُّفلى عليها...
ثم هاما
هذه الأرضُ:
ترى، أين المدينةْ؟

رحلتْ أم هبطتْ في العالمِ الأسفلِ،
أم طارتْ إلى حيثُ تطير القبّراتُ؟
أترى الأحياءُ ماتوا
أم ترى الموتى عليها نُشروا، فانتشروا؟
إن المدينةْ
مثلَ سعفِ النَخَلِ اليابسِ، أنقاضُ سفينةْ
تصفر الريحُ على ساحاتها الغبرِ، وتصفرُّ حزينةْ
حيث لا دجلةَ يحمرُّ، ولا يصفر فراتُ

* * *

إنه يعلم يا أيتها الأرضُ التي ما قيل حتى عن ثرى
اجداثِها يوماً: مَواتُ
إن شيئاً لم يزلْ يولَدُ فيكِ
صافياً كالنسغِ، يمتصُّ مراثي ساكنيكِ
وأغانيهم.
وكالنسغِ، خفاياه صفاتُ

* * *

إنه يعلم، لكن الحديقةْ
تختفي في عتمةِ الشارعِ زرقاءَ الظلالِ
لا مصابيحَ، ولا شيحَ، ولا ريحَ شمالِ
مرفأٌ من سفن الموتى ومن بدءِ الخليقةْ

* * *

والخطى

تنأى

ويبقى

في المدى

منها الصدى

ينأى

وينأى

* * *

سائرٌ مرَّ على باب حديقةْ

واختفى...

لم يفتحِ البابَ، ولم يعرفْ صديقهْ

الجزائر، ١/٥/١٩٦٦

رسائل جزائرية

أمطار حزيران

حين يأتي المطرْ
ناعماً كزجاجِ النوافذْ
غائماً كزجاجِ النوافذْ
دافئاً كالشجرْ
حينَ يأتي المطرْ
تستفزّ الصبيّاتْ عشاقَهُنَّ، وتبقى الموائدْ
وحدَها تشربُ الشايَ تحتَ المطرْ
حيث لا عابراتٌ يغازِلنَ، أو عاشقٌ يُنتظرْ
حيث تهتزُّ فوقَ الرؤوسِ الجرائدْ:
La République
Le Peuple
Le Monde
Sous le drapeau rouge
Alger
المجاهد.

فندق صغير

في الفندق المعتمِ لم نحتفلْ
كنا شريدينَ به متعبينْ

خمسةُ أعوامٍ ولما نزلْ
نشربُ في المرآة عارَ الجبينْ
يا سارقَ الشعلةِ للمتخمينْ
أجفانُنا الليلةَ مفتوحةٌ
زرنا، وأطبقْها على جدولٍ
ننهل منه لهفةَ الثائرينْ

مساء في مرفأ صيد

شِباكُكَ الزرقاءْ
يقطرُ منها بحركَ الأخضرْ
يقطرُ منها سمكٌ أخضرْ
يقطر منها الماءْ
يا مرفأً في الماءْ
يا مرفأً للماءْ
أُطفِئَتِ الشمسُ ولم يبقَ لي
مرسىً سوى حانةْ
تشعلُ في ظلمائِكَ الملحيّةِ الزرقاءِ رمّانةْ

ديوجين

حين تدق الساعةُ التاسعةْ
وتُقفز الساحةْ
تظل في الصمت الخطى الضائعةْ
ويحمل الشرطيُّ مصباحَهْ

مسافر

ودعتُه أمسِ، وكان العراقْ
في وجههِ المتعَبْ
أخافُ أن تذهبْ. . .

سيدي بلعباس

سماءُ بِلْعبْاسَ لا تنحني فيها، ولا تمطر منها النجومْ
سماءُ بلعباسَ مبنيةْ
قرميدةٌ حمراءُ فوق الكروم
سماءُ بلعباسَ صخريةْ

إلى بلند

نُولدُ في الغربةِ أم نموتُ؟
أتعرفُ الأشجارُ والبيوتُ
وجوهَنا؟ وأننا. . . نولد كلَّ ساعةْ
نموتُ كلَّ ساعةْ
وحولنا تولد أو تموتُ. . .
الناسُ والأشجارُ والبيوت؟

الجزائر، ١٩٦٦

تأملات عند أسوار عكا

خيولهُم عاصفةٌ
رماحُها الرقُ
لكنني أعظمُ من أسوار عكّا، أنني كالبحرِ ينشقُّ
عاصفةً يضمرها الشرقُ
عاصفةً أسرعَ مما أسرعَ البرقُ

* * *

جيشُ السلاطينِ طوى رايةً
أريدُ أن تُطوى
فلترتفعْ في السوق راياتُنا
وليبدأ الأقوى

* * *

عشرون ألفاً عند أسوارها
ماتوا، ولكنني
من أجلهم عشتُ
كان جودي متعباً، متعباً
أعرافُه الموتُ
وكانت الأسوارُ عندي: صخرةً صخرةْ

ومنجنيقاً منجنيقاً. . .

أيها الصمتُ

يا أيها الصوتُ الإلهيُّ:

أنا الأسوار والميْتُ

* * *

أُومنُ أنَّ النار قد تحرقُ العارَ الذي فيَّ وقد تخبو

أُومنُ أن البغضْ

أعظمُ ما يمنحه الحبُّ

* * *

كرهتُ سيفي وذراعي على أسوار عكّا، وكرهتُ

الجميعْ

غمستُ حتى مقلتي في النجيعْ

أحرقتُ أسمائي. وها إنني

ادعى صلاحَ الدينِ، ادعى الجميعْ.

بلعباس، ٣١/ ٧/ ١٩٦٧

شجرة الدفلى

مهملةٌ في آخر الساحةْ
أثوابُكِ الفاتحةُ الخضرةْ
تلقي عليها عرباتُ النقلِ، والأحذيةُ، الغبرةْ
ويضحكُ الأطفالُ في الساحةْ
يدنون من أذرعكِ المعروقةِ المحروقةِ المرةْ
يغافلون الحارسَ المتعبَ: نوارةْ؟
يا عميَ الحارسَ، هل آخذُ نوارةْ؟
لكن أغصانَكِ لن يلمسَها الأطفالْ
لن يسرقوا من زهرها زهرةْ
فأنتِ بين الشيءِ والصورةْ
ضائعةُ الأسماءْ
ضائعةٌ كالماءْ
يا قلعةً، منسيةً، مهجورةَ الأقفالْ
عنيدةً بين خيولِ النقلِ والأحذيةِ السوداءْ
رابعةً راياتِها الحمراءَ في الساحةْ.

الجزائر، ٢١/٦/١٩٦٧

الحي العربي

«لقد ألقت بنا العواصف مرغمين على شواطئك»

يوليسيس

شوارعُها الفِساحُ تضيقُ حين تُلامسُ الحيّا
وتنحدرُ العمائرُ، تُنبت الفِطْرا
بيوتاً من رقاقِ اللوحِ والقصديرِ ملويّةْ
على أعناقها، تتسول القرميدَ والصخرا
وتدبقُ بالصبايا الخادماتِ وبالبغايا حولها الدنيا
كأن البحرَ يقذفُ كلَّ يومٍ عند مرساها
رذاذَ السلِّ، والسيلانَ، والآها
كأن الحيَّ لا يحيا

❊ ❊ ❊

وفي أسواق روما: العبدُ والسيدْ
وعبرَ قناطرِ الرومانِ يجتازُ الأرقّاءُ
ممراً عسكرياً. . .
ـ أيهذا البربريُّ الساقطُ المولدْ
لقد أخلفتَني الموعدْ

ولم تأتِ أختُكَ الصغرى عشيةَ أمسِ. . .
عبرَ قناطرِ الرومانِ يجتازُ الأرقاءُ
ممراً عسكرياً، والرذاذُ يسيل فوق وجوههم، ويسيلُ
تحتَ المعبرِ الماءُ

❋ ❋ ❋

وتحت مُصارعي الثيران تشهقُ نسوةُ السادةْ

❋ ❋ ❋

أعود إليكَ يا حيّاً من الألواحِ والقصديرِ والقمرِ
يهزُّ نُخيلةً حجريةَ الشيصِ
ويرقبُ كلَّ ليلٍ نجمةَ السفرِ
وخطوةَ سيّدٍ يأتي مع الريحِ
ليزرعَ أرضَ هذا الحيِّ بالنعناعِ والشيحِ
ويبني مسجداً ويطيرَ بالبشرِ

❋ ❋ ❋

سلاماً أيها الحيُّ الذي لم نغتربْ فيهِ
ولم نطعم مآكلَهُ، ولم نتركْ مقاهيهِ
سلاماً أيها الأعمى المغني قصةَ التيهِ
ويا متسوليهِ، وباعةَ التبغِ المهربِ، والأفاويهِ
ويا شيئاً يفوحُ على أزقتهِ، ويُزهرُ في نواحيهِ
شممتُ ـ على البعاد ـ مدينتي فيهِ

مليلة (في المنطقة الإسبانية بالمغرب)
١٨/ ٣/ ١٩٦٥

قصيدة وفاء إلى «نقرة السلمان»

على شرفاتِكِ التسعينْ
رأينا أنجمَ الصحراءِ تدنو، وهي رمليةْ
تَنزَّلُ فوّهاتٍ، أو عقاربَ، أو . . . زهيراتِ
وفي قاعاتكِ العشرِ
عرفنا ضجعةَ الأسفلتِ والريحَ السديميةْ
وآلافَ الرسائلِ:
«إنني في القاعة الأولى
بخيرٍ . . . أرسلوا» . . .
والقاعةُ الأولى
كمصطبةٍ من الصخرِ
كتابوتٍ من الصخرِ
تفتّحُ بابَها الخشبيَّ، والأسفلتُ يلتهبُ
وآخرُ زهرةٍ في الرملِ والصابونِ تضطربُ
قليلاً . . .
لحظةً . . .
ويلفُّها اللهبُ

* * *

مرثية إلى هادي طعين

في ١٩٤٨، كنتَ عامل ميكانيك سجيناً في نقرة السلمان.
في ١٩٥٨، كنتَ في نقابة الميكانيك بالبصرة، مطلق السراح حديثاً من نقرة السلمان.
في ١٩٦٨، مضت ثلاثة أعوام على موتكَ بالسل في نقرة السلمان.

*   *   *

موقف شرطة السماوة ١٩٧٨

السيارة الأولى:

١، ٢، ٣. . .، ٣٠

السيارة الثانية:

١، ٢، ٣. . .، ٣٠

السيارة رقم ١٠٠:

١، ٢، ٣. . .، ٣٠

* * *

ستُبنى نقرةُ السلمانِ، أعرف أنها تُبنى
بآلافِ العظامِ، وأنها طابوقةً في إثرِ طابوقةْ
سترفعُ سورَها، وتراقبُ الأعناقَ مشنوقةْ
على شرفاتِهِ التسعينْ. . .
أتحسبُ نقرةَ السلمانِ في تاريخنا سجنا؟
أتحسبنا نسيناها؟
أتحسبنا كرهناها؟
أتحسبنا هجرناها؟
أما قلنا بأنّا لن نعود لقصرِها الحَجَرِ
وأن تناوحَ الأرياحِ والمطرِ

سيمحوها، ويمحو لَسعَها منّا؟
ولكنّا بنيناها
بماء جباهِنا الحَجَرِ
بصفرِ وجوهِنا، بعروقنا المنزوفةِ المعنى
وصلّينا على أعتابها في ساعةِ الخطرِ

* * *

وداعاً نقرةَ السلمانْ...
وداعاً نقرةَ السلمانْ...
إلى أن نلتقي...
ولربما، ولربما، يا نقرةَ السلمانْ
يكون أمامَ سورِكِ، مرةً، بستانْ.

الجزائر، ٦/١٠/١٩٦٨

نافذة في المنزل المغربي

أَبعْدَ ١٢ سنةً . . .
دونَ أن ألمحَ البابَ، أو ألمسَ الشارعا
ودونَ زهورِ الحديقةِ تمنحني الأرَجَ الضائعا . .
أبعد ١٢ سنةً . . . لم أجدْ وجهَكِ الحلوَ فيها
ولو لحظةً . . .
ولو مرةً في مرايا النخيل الهشيمةْ
وفي الأفقِ المغربيّ
أبعد ١٢ سنةً . . .
تتركينَ على الليلِ وشمَ ذراعِكِ . . .
وشمَ الذراعِ الصبيةْ
وطعمَ الشفاهِ الصبيّ؟
فكيف انتهيتِ إلى المنزلِ المغربيّ؟
وكيفَ دخلتِ إلى المنزل المغربيّ؟
وبيني وبينكِ ثلجُ السنينَ الطوالِ، وموجُ السنينَ الرمالْ . .
ـ وداعاً . . .
ـ وداعاً، وداعا . . .
وداعاً . . . إلى أن أموتْ

الجزائر، ٩/ ٣/ ١٩٧٠

عن المدن الأخرى

١ ـ تقسيم

وراءَ السماءِ النديهْ
تمرُّ العصافيرُ،
هذا المساءْ
رأيتُ على الريحِ خصرَكِ. إن السماءَ النديةْ
كرائحةِ الأرضِ، سريةٌ، والثيابِ القصيرةْ

❋ ❋ ❋

وراءَ السماءِ الأليفةْ
تمرُّ النوارسُ.
هذا المساءْ
رأيتُ على البحرِ شَعرَكِ أن السماءَ الخفيضةْ
كرائحةِ العشبِ، مبتّلةٌ، والشباكِ الصغيرةْ

❋ ❋ ❋

إلى أين أحمل خصرَكِ؟
إن مقاهي النبيذ القديمةْ
يحجّبها التبغُ.

إني رفعتُ ـ
على العشب خصرَكِ.
إني شممتُ ـ
على العشب شَعركِ.
إني استرحتُ

الجزائر، ٢٩/٩/١٩٦٩

٢ ـ شتاء سابع

من يقلْ: كيف يغنّي
فليقلْ للعشبِ: لا تنبتْ، وللقدَّاحِ دعني

***

إن هذا عاميَ السابعُ، والأرضُ القريبةْ
لم تزل أهدابُنا مطبقةً فيها...
كأنّا ما وُلدنا...
وكأنّا ما عرفنا الخطوةَ الأولى، وما جئنا، وما متنا مراراً، وبُعثنا
هذه الأرضُ التي يعرفها الأفّاق، والثوريُّ، والغصن المغنّى
هذه الأرض القريبةْ
لم تزل أرضاً غريبةْ
غير أن الأغنيةْ
طائرٌ يولَدُ في أرضٍ، على وعدِ سماءْ
طفلةٌ، كالبحر، لا شرعيّةٌ.
ـ بضعُ نساءْ

يتغزلن بأفخاذ الرياضيّ.
مُواءْ
قطةٍ في آخر المبنى ـ
وينهلّ الشتاءْ مطراً فوق الشجرْ
مطراً فوق الحجرْ
مطراً فوق الحجرْ
مطراً فوق زجاج النافذةْ
حيث لا شيء سوى برج كنيسةْ
وتصميم شجرْ
حيث لا شيءَ سوى وجهِ المساءْ

الجزائر، ١١/١١/١٩٦٩

باب سليمان

فليسقط الشعراء، ولتسقط قصيدتك الجديدةْ

ماذا ستكتب غير لغوكَ؟

أنجماً وندىً ونخلا

وحكايتين عن الضياع، وتشتم العصر المملاّ

وتخط رمزاً في السياسة ليس يفهمه سواك. . .

في المغربِ الأقصى، تسيل مياهُكَ الخضراءُ، في
عَتَباتِ داري

ويدور وردُ الهيلِ، والمرّانُ، نقشاً في ستارِ

يا أيها النهرُ المشتتُ في جداولَ من نخيلِ

يا أيها الملقى على بُعد المزارِ

بيني وبينك لحظةٌ، بيني وبينك بابُ داري

* * *

المدُّ يأتي، مثلَ شيءٍ لستُ أعرفهُ، ولستُ أرى خطاهُ

إلاّ على الأعشاب في ضفةٍ، وفي الأخرى أراهُ

يسقي جذورَ النخل، تلمع حين تلمسها يداهُ

وتغيبُ جذراً بعد جذرٍ،

ثم تحضنها المياهُ

❊ ❊ ❊

الجَزْرُ، يبقى خيطهُ الفضِّيُّ معبرْ
يلهو الفراشُ على حبائلهِ، ويقطعه السَمَنْدَرْ
حتى إِذا أرخى اليمامُ جفونَهُ، والنجمُ أزهرْ
وتفرقَ الصبيانُ،
غنّى بلبلٌ في التوتِ. . .
فانثنتِ المياهُ

❊ ❊ ❊

في المغرب الأقصى، غريبٌ أنتَ. . .
يا نهراً تشفّ به السماءُ
ما دجلة العوراء
ما «المختارةُ» الخضراءُ؟
أسماءٌ وماءُ
وادٍ ببلعباسَ، يسقي الزان والبستانَ، خيرٌ منكَ. . .
لكنْ، أين تُلتمسُ السماءُ؟
وجرارُ نسوتكَ النحاسُ، وسدرتي، وشِباكُ جَدّي؟
وسجارتي الأولى، ولمحٌ من مظاهرةٍ،
وكوخٌ كنتُ أحلمُ فيه وحدي؟

❊ ❊ ❊

أين الطريقُ إِليكَ؟
يا ماءً نشاءُ كما يشاءُ

كلُّ الدروب إِليكَ تومئُ، غير أني لا أراها
هَبْ لي طريقاً لن نعفِّر في مسالكها الجباها
جذعاً لقنطرةٍ تأكلها الشتاءُ
مرتْ بها أقدامُ فلاحيكَ مثقلةً، ومرَّ بها الزمانُ فما رآها
لو كنتُ جذعاً فوق قنطرةٍ قصيّةْ
إني أجفُّ هنا. . .
أموت. . .
وأنتَ تبخلْ بالهديةْ

الجزائر، ٢٨/ ١١/ ١٩٦٥

تقاسيم على العود المنفرد

١ ـ دقتِ الساعةُ الدقةَ العاشرةْ
دقتِ الساعةُ العاشرةْ
دقتِ العاشرةْ.
عبرَ برجِ الكنيسةِ أَوْمَضَ نجمٌ وغابْ
واختفى بلبلٌ في الصنوبرْ
في سرابٍ من الليل أخضرْ
فادخلي يا صبيةُ داري
أن بيتي مزاري
الكنيسةُ قد أُغلقتْ
والقناديلُ قد أطفئتْ
والمناديلُ مبتّلةٌ بالشرابْ
٢ ـ في ممر الحديقةْ
يصمت الماءُ والورقُ اليابسُ
والظلالُ العميقةْ.
في ممر الحديقةْ
لم تغنِّ العصافيرُ،
والجدولُ الهامسُ

لم يغنّ الحديقةْ . . .
يا الهَ الحروفِ الغريقةْ
أينَ، أينَ، ارتعاشُ الصدى الناعسُ؟
يدُها في يدي،
وبصدري حديقةْ.
٣ ـ يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلادي البعيدةْ
حيث تبكي السماءُ
حيث تبكي النساءُ
حيث لا يقرأ الناسُ إلاّ جريدةْ
يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلادي الوحيدةْ
أيها الرملُ والنخلُ والجدولُ
أيها الجرحُ والسنبلُ
يا عذابَ الليالي المديدةْ
يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلاد الطريدةْ
ليس لي منكِ إلا شراعُ المسافرْ
رايةٌ مزّقتْها الخناجرْ
والنجومُ الشريدةْ.

الجزائر، ١٦/٨/ ١٩٦٥

العمادية

ماذا؟
أغيمٌ قد أَسَفَّ هنا، أم ارتفع الضبابُ؟
أم غابَ في الأمداءِ وجهُكِ. . .
فاختفى. . .
وصفا السرابُ؟
كانت ظلالُ السرورِ ناصلةً، وكان السروُ أسودْ
ـ عَلَماً جنازيّاً ـ
وكان التوتُ والسُمّاقُ أجردْ
كملابسِ الأطفال.
و«السوالاف» مجراه الترابُ. . .
ها أنتِ بين أصابعِ الثوريِّ والجنديِّ:
أرقامٌ وأمرٌ مُستجابْ.
خذني إلى بغدادَ. . .

* * *

كان الطفلُ يمسكُ بي ويعدو
بين الصخورِ، وبين تعميةِ الربيئةِ كان يعدو
شيءٌ من القمر اشرأبْ، وأومضتْ في القلب نجمةْ

وعلى الخطى البيضاءِ لمحٌ من مظاهرةٍ ووعدُ

* * *

طوّفتُ في بغدادَ، أبحث في منائرها العتيقةِ عن منارةْ
وأدقُّ أبوابَ المكاتبِ:
يا سياستَنا المعارةْ
يا سيداً يستوردُ الكلماتِ والويسكي وأحذيةَ النساءْ
إني أدقُّ هنا، أدق، أدق... ان دماً يدقُّ
إني أدق مع الشمالْ
إني أدق مع الجنوبِ، أدق... إن دمي يدقُّ

* * *

والطفلُ يمسك بي: يداه تَوَهَّجانِ من الحرارةْ
ويداه تبتعدان عني
وتمرُّ في الأفق الشفيف حمامتان بعيدتانِ...
عبر ارتجافِ النخلِ، والنهرِ المسوّرِ، والمباني
والطفلُ يمسك بي:
«التفتْ»...
ـ بغدادُ ظمأى
بغداد... ألافُ الأكفِّ تدقُّ... آلاف الأكفّ تدقُّ ظمأى.
والليلُ ينزل في المدينةِ، في منائرِها العتيقةْ
والطفلُ يمسك بي:
ألستَ ترى الحقيقةْ؟
بغدادُ ظمأى...

والأكفّ تدقُّ. . . والأبوابُ تنأى. . .

والطفلُ يمسك بي،

وتنهمرُ النجومُ على حديقةْ. . .

* * *

الغيمُ فوق صخوركِ المحمرةِ البيضاءِ منزلقُ. . . كأفخاذِ النساءْ

وعلى منازلكِ المقنبلةِ السطوحِ خيوطُ ماءْ

تسقي حدائقَكِ الصغيرةْ

وتغور في الأزهارِ والأعشابِ، كاليدِ في الضفيرةْ

ومن الصنوبر ـ أسفلَ الوادي ـ تطير حمامتانْ

ومن الجذوع السودِ تلمحها صنوبرةٌ صغيرةْ

أوراقُها إبريّةٌ خضراءْ

أوراقُها الإبرية الخضراءُ تدفن عبرَ رحلتها رصاصةْ.

الجزائر، ٢٥/٦/١٩٧٠

ثلج

أنفضُ عن شعَري زهورَ السماءْ
نيلوفراً أبيضْ
في الغسقِ الأبيضْ
أنفضُها، أنفضُها، فضةْ
أنفضُها عن هدبيَ المغمضْ
يا قمري الأبيضْ
نافذتي ألقت عليها الشموعْ
فانوسَها الأبيضْ

الجزائر، ١٩٦٨

الغصن والراية

«في الذكرى المئوية لميلاد ف.إ. لينين»

نحن لم نحملْ على قمصاننا وجهَكَ...
لم نحملْ نحاسا
لم نقلْ للكتبِ السريةِ التوزيعِ «آمنّا بما أُنزِلَ»، ما كنتَ لنا نجما
فما كنا مجوسا
إنما أنتَ مقاتلْ
معنا، جنباً إلى جنبٍ، تقاتل.

مساء باريسي

ينهمرُ المطر
على مظلاتِ المقاهي وعلى أرصفةِ الصورْ
وكان في أغنية المطرْ
يسرعُ...
منفيّاً
وحيداً، ثابتَ الخطوِ، ويمضي هو والمطرْ
أبعدَ من نورِ المقاهي، حيثُ لا ينهمرُ المطرْ

إلاّ على معاطفِ العمالِ، والأرصفةِ الحَجَرْ

مكتبة زيوريخ

من أجل أن يقرأَ كلُّ الناسْ
يقرأ كلَّ وقتهِ. . .
من أجل أن تغادرَ الأجراسْ
كنائسَ العالمِ، لبّى رنّةَ الأجراسْ
من أجل أن يولَدَ في الأوراقْ
أكتوبرُ الأحمرُ، شقّت عينُه الأوراقْ

ثلج

يهبط الثلجُ السيبيريُّ على القرية، تبيضُّ المنازلْ
تحته، والشجرُ الأعجفُ يبيضُّ، وتلتاثُ المسالكْ
وغداً يهبطُ فوق القريةِ الثلجُ، فتبيضُّ المنازلْ
مرةً أخرى، وهذا الشجرُ الأبيضُ يبيضُّ،
وتُمحى دون عينيه المسالكْ
يهبظ الثلجُ السيبيريُّ
وفي زاويةٍ تهبط كفُّ
فوق صُدْغِ الرجلِ الجالسِ:
ما أَبهى المسالكْ!

الضريح

لم تكن نائماً حين زرتُكْ

لم تكن مغمضَ المقلتينْ
لم تكن في القميص المنشّى
كنت مبتسماً واقفا
لامعَ المقلتينْ
دامعَ المقلتينْ
في دخانِ المتاريسِ... يعلو قميصُك رايةْ

نشيد للعالم الذي يولد

وقوفاً...
وان حزّتْ قيودٌ، وأثقلت سدودٌ
وقوفاً...
أن راياتِنا تعلو
وأن الوفاءَ المحضَ، والأرضَ والمدى
لها قالةٌ هيهات يُخْلِفُها القولُ
فإن كانتِ الدنيا القديمةُ موطئاً
لأقدامنا حيناً، وجبهتُنا ظلُّ
فللقمم البيضاءِ تسمو عيونُنا
وإثرَ خطانا الخضرِ يندفع النخلُ
وهبْنا سماءَ الحقِ غصناً ورايةً
وعانقَنا الصبحانِ والعالمُ الكلُّ
فوارسُ من هذا الزمانِ وأهلهِ
ونحن لآتيهِ إذا ما أتى أهلُ

فيا غصناً يعلو
ويا رايةً تعلو
هنا نحن لم نبرحْ كأنّ وجوهَنا
شواهدُ، لكن للطريقِ التي تعلو

الجزائر، ٣/ ١/ ١٩٧٠

حين تموت زهرة الصبير

رأيتكَ في العراق، على صحاراهُ
وعند شواطئِ الأنهار، والمدنِ الخريفيةْ
وإثرَ النخلِ كنتَ تسيرُ، والسككِ الحديديةْ
ذراعاً أخضراً كالقيحِ . . .
نصمتُ حين نلقاهُ
ونُطرقُ، ثم نطرقُ، ثم ننساهُ
ونخجلُ حين ننساهُ
وتبقى الآهُ، تبقى الآهُ . . .
ـ «إن مجلةَ نيوزويك مرميةْ
وراءَ خطىً ثلاثٍ في الحديقةِ ما يزال الشايُ لم يَخْدَرْ .
لقد جاءت سعادُ . . . خطيبُها قد باع موسكوفج . . .
فإنكِ تعرفينَ الصيفَ» .
والنسماتُ ليلية
وتلتمع المراوحُ في الحديقةِ لحظةً .
ـ «ما أجملَ الصبّيرَ،
إن الياسمينَ يُغيظني . إني سأوصي مصطفى»
ومساكبُ الأزهارِ محنيةْ

على الأعشابِ، تفرش للندى طرقاتِ مركبةٍ حريريةْ
وتذكرُها المراوحُ لحظةً، فتميلُ. . .
ثم تعود مطويةْ

* * *

وفي حَلَبٍ رأيتُكَ أيها الصبّيرُ تنهمرُ
على الأسوارِ تنهمرُ
وفي الطرقاتِ تنهمرُ
كأنّ القلعةَ الحجريةَ الأبراجِ تنتظرُ
نفيضةَ يومِكَ الشوكيِّ، رمحاً يَدّريهِ الصخرُ والمطرُ
يمرُّ على المعرةِ برقَ جنّيةْ
وفي شفتي صلاح الدين أغنيةً صليبيةْ
وفي بيروتَ، ترقد أيها الصبّيرُ في العرباتِ ثلجيةْ
ويبذرُ قلبُكَ الأصفرْ
بثورَ الصخرِ، في الأفواهِ، والطرقِ
وعندَ مشارفِ الحاناتِ والغسقِ
وحولَ نراجسِ الشرفاتِ والمرمرْ
خطاكَ متوجاتٌ، كالمصارفِ، سورُها المعتمْ
يحيط مزارعَ التفاحِ والصحفا
وفي فُوّهةِ القمقمْ
تُجيل الساحلَ البحريَّ، والأعناقَ، والغرفا
وتختم بالبثور مغالقَ القمقمْ

* * *

وفي جدرانِ وهرانِ
وفي ينبوعِ أغنيتي وإيماني
وشرفةِ من أُحبُّ، وشعرِها الأسودْ
رأيتُكَ زهرةً من عالمٍ ثانِ
تدور شقائقُ النعمانِ فيها والمدى السرمدْ
رأيتُكَ زهرةً حمراءَ
أو صفراءَ
أو بيضاءَ، تعلن عالمي الثاني
رأيتك رايةً في جسر «مَغْنِيّة»
وصاريةً من الحنّاءِ
والصحراءِ
والماءِ
وحرفاً واشتراكيةْ

الجزائر، ٢٨/ ٦/ ١٩٦٥

غرناطة

منتصفُ الليلِ.
في «البائسينَ» أراكَ تبحثُ في الظهيرة
لقد أطفئتِ الحمراءُ.
ووراءَ بهرجةِ المدينةِ، والمخازنِ، عن حكاياك الصغيرة
في الساحةْ
عن منشدٍ أعمى، وزاويةٍ تدورُ بها القصائدْ
عيناه. في الساحةْ
سريةً، عن ذلك السفح الذي قتلوا به لوركا، وعن بُقيا قصائدْ
خطوتهُ. في آخر الساحةْ
لما تزلْ مطويةَ الأهدابِ ترقد بانتظارِكْ
قميصُها يستر بالزرقةِ مصباحهْ
طوّفتَ حتى الأزقةِ حيث تتبعك الكلابْ
منتصفُ الليلِ، كخصر امرأةٍ يُطوى...
متسائلاً عن شاعرٍ قتلوه، وانفجرَ الجواب:
وفي الشارع قيثارةْ
«لوركا؟ أجل... لوركا؟ درسناه». وتتبعُكَ الكلابْ
ينهمر النارنجُ منها، والندى يغرس أزهارَهْ

متعثرَ الخطواتِ، تسألكَ الأزقةُ عن جوابْ.
في الليلِ
عُدْ، فالفتاةُ الآن في المقهى، وقد يأتي سواكْ
في منتصف الليلِ
كي يطلبَ الثقّابَ منها،
هنا فارقَ عبدُ اللّه أسوارَهْ
تلك أغنيةُ اليتامى
جوادُه النجمُ، وأغنيتهُ شارةْ
تمّتْ... ومُنشِدُها تململَ... ثم قاما

* * *

نائمةٌ أنتِ. وفي شعَركِ نوّارةْ

غرناطة، تموز ١٩٦٥

الوجوه والأقنعة

رحلتي في الشرابْ
رحلتي في الصحارى
رحلتي في سماء القبابْ
حيث في كل نجمٍ شِهابْ
حيث نأبى المداراً

* * *

بلادي في بحار الشمس، فوق جبينها الوضّاءِ تستبقُ العصورُ، ويُزهر الأملُ الربيعي الذي غنّتهُ أرضٌ كلُّ ما فيها اجتراحُ الأبعدِ الأبعدْ. . .

* * *

بلادي لستُ أعرفُها
ولست أرى لها وجها
تقرّيتُ الصخورَ لعلّها. . . ولعلْها تتمخّضُ الوجها
ونثّرتُ العيون كأنني في قلبِ رمّانةْ
أفتّشُ عن شموسٍ رحلتي فيها
وأرقبُ نبعةً أو برعماً في رسمِ ريحانةْ
فأين غناؤها الأزرقْ؟

وأين الظلُّ والبيرقْ؟
وأين هي العواصمُ؟ أين، أين، الفأسُ والمبدأْ

* * *

رحلتي في مدينةْ
رحلتي في دمِ الكهرباءْ
رحلتي في النقاءْ
حيث في كل نجمٍ مدينةْ
حيث أرضي سماءْ

* * *

ألستِ ترينَ ما تَهَبُ الحدائقُ للمدينةِ؟
إن عينيكِ التماعُ الغابِ
في الأرضِ التي كانت صحارى. . .
أن كفّيكِ انسيابُ الماءِ ضوءاً في القرى. . .
فلْنسهرِ الليلةْ. . .
شوارعنا من الحجرِ
شوارعنا من القارِ
شوارعنا بلا شجرِ
شوارعنا بلا مطرِ
يغني فوقها الذبّانُ والشرطيُّ والسارقْ
وتُقتل في المقاهي خطوةُ البشرِ
في باراتها الملتفة الشجرِ

يسيل القيءُ. أفيونُ أمِ كلثومِ
وفي صمتِ القرى تَنعابةُ البومِ

❊ ❊ ❊

رحلتي في الفراتْ
رحلتي في احتراقي
رحلتي في العراقِ
حيث في كل شبرٍ سماتي
حيث ظلي ضياءْ

❊ ❊ ❊

تناديني المنائرُ، وهي تنبت من بعيدٍ، مثل غاباتِ
النخيلِ المثقلِ الأعذاقِ بالذهبِ،
ويتبعني العراقُ خطاهُ من ماءٍ ومن لهبِ،
تُناديني الأخوّةُ، والصِّبا ومنازلٌ ولدتْ بها كتبي

❊ ❊ ❊

ـ عام ١٢٥٨م ـ سقوط بغداد
على الموتى، وأنصاف المنائرِ، يهبط الليلُ المغوليُّ
وترتفع الحرائقُ، طعمُها كتبُ
ويمسي الحبر واللهبُ
طعامي. . .
إنه الليلُ المغوليُّ

أغنية للرياح الخمس

تأتينَ عبرَ الصخرِ والأسفلتِ يا ريحَ البحارِ
مطويةَ الأهدابِ، غامضةَ القرارِ
ماذا تبقْى منكِ يا ريحَ البحارِ؟
أوَتَدْفعين إليَّ، واهنةً، سفينةْ
ورقيةً صفراءَ ترسو عند مقهىً في المدينةْ؟
ماذا تبقّى منكِ؟
إن الميتين على الصواري
لا يَسألون، وأننا ـ الأحياءَ ـ نذبلُ موثقينَ على جدارِ
يا ما سألتُكِ أنتِ، يا ما دُرتُ أعمى في إخضراري
أتلمّسُ المرسى، أشمُّ الرملَ، أحلم بالسفينةْ
حتى كأني أحرث الأمواجَ، أزرعُها انتظاري
وكأنّ (داري غير داري)
يا ما سألتُكِ، غير أني اليوم أحتقر السؤالا
هبّي جنوباً أو شمالاً
هبّي وكوني لي سفائن أو ظِلالا
اليومَ حسْبي أن أراكِ

مبتلةَ الأهدابِ، ساذجةَ الشِباكِ
اليومَ حسْبي أن أراكِ

❋ ❋ ❋

الريحُ في الصحراء رملٌ في المياهِ
وعلى وجوه النسوةِ المترقباتِ وفي المقاهي
أهدأْ. . . فإن الساعةَ العشرينَ أدركتِ المزارا
الريحُ في الصحراءِ، والنجمُ المخمَّسُ في الجباهِ
يا ريحُ، يا صحراءُ، مَن ألقى بنا عبر الصحارى؟
من غلّقَ الأبوابَ دونَ جناحِ طائرْ؟
دون ارتعاشةِ زهرةٍ، وحروفِ شاعرْ
من قال للأطفال عبر متاهنا: موتوا انتظارا
المدفعُ الرشّاشُ زهرتُنا، وجنّتُنا المقابرْ

❋ ❋ ❋

كالثلجِ أنتِ، كأنما تذْرينَ في وجهي نثيرهْ
فتّحتُ نافذةً لأجلكِ يا مغنّيتي الأميرةْ
قد كنتُ أحلم بالزيارةْ
وازيحُ شيئاً بعد شيءٍ عن بساتيني الستارةْ
وأزخرف الجدرانَ أسراراً صغيرةْ
نبعاً، صنوبرةً، طريقاً ضائعاً، شفةً أسيرةْ
وشجرةً كالزيزفون، وأرنباً يُخفي صغارهْ
لِم جئتني يا ريحُ؟ خلي الوهمَ يغرقني طويلا

خليه يغمض مقلتيَّ، ويلثم الهدبَ الخضيلا
ماذا يخبّرني غناؤكِ أنتِ يا ريحَ الجبالِ؟
لا شيء إلا الموتُ يقتحمُ الممرَّ إلى اللآلي
والثلج، النبعِ المرقرقِ، والصنوبرْ
وجنينةِ التفاحِ، والجبنِ المدوّرْ
لا شيءَ إلاّ الموتُ يا ريحَ الشمالِ
وتغيبُ عني جنةٌ أخرى، وترتعشُ الستارةْ

* * *

في «الفاوِ» تنهمر الشِباكُ
وتَساقَطُ الأسماكُ، والحنّاءُ تكنزُ للنساءْ
لونَ الشروقِ، وليلةَ الحنّاءِ، والكوخَ المضاءْ
ريحُ الجنوبِ تهبُّ مثقلةً، وأنتَ هناك مثقَلْ
لا نهرَ يقتسمُ المدينةَ في الدجى، لا صمْتَ جدولْ
والنخلُ؟
إن النخلَ في وهرانَ ليس كما عرفتَهْ
غاباً من السعَفِ الشَّحوبِ تعمّقُ الأنهارُ صمتَهْ
النخلُ في وهرانَ ـ كالأسدينِ ـ يمشي في الظلالِ
متمهلاً، يدنو من الباراتِ مغلقةً، وأبوابِ المنازلْ
والبحرِ والساحاتِ. . . ثم يعود يقبعُ من ملاكِ
ريحُ الجنوبِ تهبُّ. . . يا ريحَ الجنوبِ:
لو مرةً قطّرتُ شيئاً من رطوبتكِ الثقيلةِ ملءَ كوبي

* * *

الريحُ من بغدادَ، طعمُ الريحِ في شفتيّ، طعمُ الريحِ طينُ
يا أيها الغصنُ الحزينُ
يا أيها الملقى على أرضٍ ـ وإن قَرُبَتْ ـ غريبةْ
لكأنَّ طعمَ اللَّه طينُ
وكأنّ كلَّ الأرضِ ـ إلاّ أرضَ بغدادٍ ـ غريبةْ

الجزائر، ١٩٦٥

استطراد

«إلى محمود البريكان»

أأخطأتُ الطريقَ؟ فلم أجدْ بيتي
وراءَ قناطرِ النخلِ الشتائيةْ. . .
وأخطأتُ الطريقَ، فلم أجدْ صوتي
يهزُّ محرري الصحفِ المسائيةْ
وأخطأتُ الطريقَ، فلم أجد موتي
جداراً في احتقانِ الفجرِ ينزفُ جثةً مكشوفةَ العينين مرميةْ؟

* * *

نخلةٌ لم تصل إلى سعفها الريحُ، ووجهٌ على الزجاج جريحُ
أين أمي؟
ويسقط الوردُ ظلاً قاتماً فوق جبهتي. . .
أين أمي؟
ثم ترمي أوراقيَ الريحُ للريحِ. . . ويبقى وجهٌ وظلٌ وريحُ

* * *

ـ يا سيدي، سيدتي، آنسةْ
ما جئتُ عند الساعة الخامسةْ

ـ آسف ـ فالصفُّ كما تعلمونْ

يحتاج في الصرفِ دروساً، ولكنْ. . . آهِ. . . إن الساعةَ الخامسة والربع، لا بأسَ. . . سأحكي عن «الكامل» لا بأسَ:

كما تعلمونْ

كما علمتم، هو بحرٌ، إلخ. . . . إنما الـ. . .

❊ ❊ ❊

يحملني النبيذُ
ساريةً، يمنحني ألوانَهُ النبيذُ
يمنحني قرارةَ اللمسِ
يمنحني حرارةَ الأمسِ
يجعلُني أعرف أن العالم النبيذُ

❊ ❊ ❊

هنا بيني وبين النخل آلافُ الفراسخ، بيننا الصحراءُ والبحرُ
وبين البحرِ والصحراءِ آلافُ الفراسخِ: بيننا القبرُ
وبيتي في جذور النخل كان ستارةً خضراءَ مفتوحةْ
تمرّ بها الرياحُ الأربعُ الرطباتُ أرجوحةْ
وكأن الليل فيه يضمّه الفجرُ
ويسقي وردَهُ الشوكيَّ إمّا يبخلِ النهرُ
وكانت بابُه للشمس مفتوحةْ

❊ ❊ ❊

فكيف أُغلّقُ الأبوابَ، والأصواتُ تأتيني
أكفّاً لا تُرى، مائيةَ اللينِ

تحشرجُ، ثم تعلو، ثم تعلو، ثم تلقيني
على طين الجذور ونبعةِ الوردِ
وتشربني وتسقيني
فأسمعُ سرَّها وحدي
وأبصرُ في مراياها
طريقاً لم تفارقه الخطى، ألقي عليه خطوتي البيضاءَ... ألقاها تشقُّ
على الطريق خطوطَ مسراها
....
أسيرُ مع الجميعِ، وخطوتي وحدي

الجزائر، ٧/ ٤/ ١٩٦٧

بعد

قد لا نرى الغابةْ
إذ نلمسُ الأشجارْ
قد لا نرى الأشجارْ
إذ نلمحُ الغابةْ.
لكنّ بين الغصن والغابةْ
لكنّ بين الماءِ والتيّارْ
ما يجمعُ المبدأَ والمنتهى
ما يجمع الأشعارَ والأشجارْ

نعاس ١: صوتُ أختي يجيءُ
غائماً غامضاً
صوتُ أختي يضيءُ
أيهذا المسافرْ
أيهذا المقيمُ المسافرْ
أيهذا البريءُ. . .
. . . .
صوتُ أختي يجيءُ

نعاس ٢: لا أحبُّ السهولَ التي تصمتُ

لا أحبُّ التلالْ
إنني للجبال التي تصمدُ
سطور: قد لمستُ الشجيراتِ، أحسستُ بالنُسْغِ فيها
قد عرفتُ الشحوبَ الذي يعتريها
وانتظرتُ الجفافْ
والربيعَ الرفيها
غير أن الشجيراتِ ظلّتْ وَريقةْ
سِرّها نسغُها
وجهُها نسغُها
يا غصونَ الصنوبرِ، طَلْعَ الجذورِ العريقةْ
أين من يُدرك المستقى؟
أين من يدرك المستقى لا الشبيها؟
أين من يعرفُ؟

الجزائر، ٤/٤/١٩٦٨

الجسور الثلاثة

تجري وحيداً، مثقلاً بالطحلبِ المزرقِّ، منسيّا، وئيدا
تتلامع الأمواجُ فيكْ
وتَساقَط الصفتانِ فيكْ
في صمتكَ المهجورِ، تحملُها مع الأعشابِ، تحملُها بعيدا
ليظلَّ حضنُكَ، عارياً، نديانَ، تُثقله الهدايا
خضراءَ مثلَ الماءِ، داكنةَ المرايا:
غصناً، وقبّعةً، وقطاً ميّتاً، وحذاءَ طفلِ
وغشاءَ منعِ الحملِ. . .
تضفرُ حولها الأعشابُ أشرطةَ الهدايا
ولأَنتَ، يا مترفِّقَ الخطواتِ، تحملُها، لتوْدعها انحناءً في انحنائكْ
حتى إذا ما مرّتِ الأيامُ عادتْ بعض مائِكْ
تتلامع الأمواجُ فيهْ
وتَساقَطُ الضفتانِ فيهْ
وتعودُ تحمل مرةً أخرى: الهدايا والمرايا

الجسر الأول

خبّأتُهم تحتي. . .
وكان الليلُ يأتي بالنجومْ

ويبلُّها في الماء، يغسلُها، ويتركها تعومْ
كان الثلاثةُ يحملون نجومَهم... لكنهم لم يغسلوها
في الماءِ...
وانتظروا...
لقد احسستُ بالعجلاتِ تسحقُ
عظمَ ظهري
كان الثلاثةُ يحتمون بظلِّ صدري
ورأيتُهم يجرونَ...
وانفجرَ الحديدُ، وغار ظهري
في الماءِ، وارتمتِ النجومُ عليّ...
كان النهرُ يجري
والليلُ يرخي كفَّه الذهبيةَ البيضاءَ فوق حُطامِ صدري

الجسر الثاني

شجيرةٌ مزهرةٌ بالعصافير إليها يعبرُ الجسرُ
أميرةٌ تنصتُ من شرفتها الخضراءْ
تسمعُ همسَ الشمسْ
في خصرها الأخضرِ بوّابةْ
في خصرها الأخضرِ كان النهرُ بوابةْ
أميرتي:
أواه... كم يعبدك الجسرُ
يكاد لا يعرف ما النهرُ
ما الماءُ، ما العابرْ

ما السائرُ الزائرْ
يكاد لا يعرف ما الجسرُ

الجسر الثالث

هبني يديكْ
هبني يديكَ الخشنتينِ أحسّ قلبَكَ في ذراعي
هبني يديكْ
دعني أحسّ الريحَ تصرخُ في الشراعِ
هبني يداً للعنفوانِ، ولفتةً لسُرىً مضاعِ
أيامَ كنا نبصر الدنيا على حلم الشعاعِ
لم تلتمع أحداقُنا السوداءُ إلاّ بالعروقِ على يديكْ
وبخطو من يتقحّمونَ صخورَ أنفسهم إليكْ
واليومَ، نمنحُكَ اليدينِ لعلّنا نجدُ الحديقةْ
أواه، لو أعطيتَني يَدَكَ الجريحْ
يا أيها الجسرُ ـ الضريحْ
فعيونُنا الدكناءُ مثقلةٌ، وصاريتي العتيقةْ
ربانُها أعمى. . .
ولكنّ الحديقةَ ما تزال هي الحديقةْ
أزهارُها الحمراءُ لم تعرفُ مناديلَ الوداعِ
يا موعداً عبرَ الضياعِ
هبني يديكَ الخشنتينِ أحسّ قلبَكَ في ذراعي

الجزائر، ١/ ٤/ ١٩٦٥

ثمانية مقاطع

لمغني الأسطواناتِ الرديئةْ
قد تركتُ الياسميناتِ، وخلّفتُ التشنّجْ
إنني أبحثُ في الزهرة عن دنيا خبيئةْ
ربما ضَنَّ بها الجذرُ فما لامستِ الشمسَ الوضيئةْ

❋ ❋ ❋

في قرار البحرِ أسريتُ، وعن أمواجه الغضبى أشَحْتُ
ألقِطُ الأصدافَ زرقاءَ على ريشِ الطحالبْ
وكما يغمرُها يغمرني في اللجِّ صمتُ
إنه القاعُ... فهل للّؤلؤِ المبتلِّ صوتُ؟

❋ ❋ ❋

أمس في حانٍ على الشاطئِ مهجورٍ ثملنا
وتحدثنا، وغنّينا طويلا
غير أنّا حينما فارقنا الحانُ بكينا
كان رملُ الشاطئِ المهجورِ صلباناً علينا

❋ ❋ ❋

مرةً كل ثلاثاءٍ أزورُ المزرعةْ
أتملّى سورَها الأبيضَ والأعشابَ فوقَ السورِ، والغصنَ المندّى

وإلى سبعِ حماماتٍ ستأتي مسرعةْ
أسْلمُ الساعاتِ، والسورَ، وأنسى المزرعةْ

❋ ❋ ❋

تخرج من مقهاكَ والريحَ الشتائيةْ
والشجرَ العريانْ
أرصفةُ الشارعِ، كالشارعِ، مطويةْ
أين هو الإنسانْ؟

❋ ❋ ❋

أمرُّ بالنهر، وفي مائِهِ
تذوبُ أو تنفصلُ القطرةْ
المنتهى من بعض أسمائِهِ
والمبدأُ الثلجيُّ والثورةْ

❋ ❋ ❋

طوالَ ليلِ البعدِ، ظلَّ الشجرْ
يُسقط أوراقَهْ
حتى إذا جاء صباحُ السفرْ
جمّعتُها باقة

❋ ❋ ❋

أيتها الأرضُ التي أعبدُ
أيتها الأرضُ
بيني وبين اللَّه ما يوجدُ
الطولُ والعرضُ

الجزائر، ١٩٦٦

قصَائد مرئيَّة

(١٩٦٥)

خطوات الصحو

أَهدابُه الأَبنوسُ، تسألُ، تنهلُ الحلمَ المغنّي
في لحظةٍ، في لحظتينِ
تستشرفان منابعَ الشرفاتِ، تنفتحان عني
يا هُدْبُ، لولا برعمُ الأَبنوسِ لاستنكرتُ ظني
هو فِلذةٌ مني، ومحضٌ من يدي وغدي وغصني
يا عالماً في لحظتينِ
إن كنتَ حقاً فلتكن أَبداً، وإلا فاتّركني
دعني أشمّ طراوةَ الأَعشابْ
أُرخي نسيماً منك فوقهمو، أَمدُّ عرائشَ الأَعنابْ
أَرقى من الآهاتِ جُلجُلةً، وأَعصبُ بالنجومِ الزرقِ عيني
يا عالماً في عالمينِ
أَتظل نهراً أحمرَ الأَسماكِ أو بيتاً بعيدا
يخفيه صمتُ النخلِ، يخفي الوردَ والحبَّ الوحيدا
شفةً وهفهفةً وجيدا
ونوافذاً سهرتْ ستائرُها لتسألَ: أين سجني؟
يا عالماً في عالمينِ
أتظلُّ غصناً يمطر الأَهدابَ دمعا

ومرارةً وقذىً وشمعا
حتى كأنّ مدائنَ الريحانِ يشربُها الضبابْ
حتى كأنّ قرارةَ الإيمانِ لم تمنحْك نبعا
وكأن حرفَكَ بين تمتمةِ الشفاهِ ورعشةِ العينينِ أَفعى
وكأن ملحَكَ ملءُ جنفي
يا عالماً في عالمينِ
حيث الخديعةُ والحقيقةُ تزحفان معاً، وحيثُ الفجرُ يشحبْ
والعشب يذوي، والنساء يَلُبْنَ، والتاريخُ متعَبْ
حيث السفائنُ تحمل الدنيا، وحيث البحرُ غيهبْ
إني لأنكر وجهَكَ المستلَّ مني
وعلى ركامِكَ أَركزُ الإصرارَ كوكبْ
وأَشقُّ بالصيحاتِ أذني
يا عالماً، لا عالمينِ
يا عالماً في ضوء نجمةْ
حمراءَ تغسلُ بالنبيذ جبينَ سجني
إني وهبتُكَ كلَّ ما أَرجوه مني:
بيتي، ومكتبتي، وسجني
وعذوبةَ الدنيا على شفة المغني
إني وهبتُكَ يا رسولَ الصحوِ ما يهبُ المناضلْ
سنواتِه النضراتِ:
عمقَ البحرِ، صمتَ البحرِ، عنفَ البحرِ ـ
إني قد وهبتُ لوجهك الأَبدي راياتِ المناضلْ.

١٩٦٣

نوم مضطرب

عشرةُ قضبانٍ على النافذةْ
والليلُ تبكي فيه ريحُ الشمالْ
والنخلُ يبكي،
ويشفُّ الجدارْ
شيئاً فشيئاً،
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
أَنا في العراءْ
رطوبةُ العشبِ ومدُّ الشتاءْ
وشَعرُها المغسولُ هذا المساءْ
على جبيني.
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
أَنا في المطرْ
قميصُها المبتلُّ تحتَ الشموعْ
يحسّ طعمَ المطرْ
دفءَ محطاتٍ وبُقيا دموع

وهدبُها السهرانُ حتى الخَدَرْ
سفينةٌ تجهل ليلَ الرجوعْ
والريحُ تعلو،
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
كأنّ المياهْ
تعلو وتعلو، وكأنّ الجباهْ
تُعانقُ النجمَ، كأنّ الشجرْ
أَشرعةٌ تلمسُ وجهَ القمرْ
والروحَ والريحَ ذراعا الحياهْ

❊

عشرةُ قضبانٍ على النافذةْ
عشرةُ أَغصانٍ على النافذةْ.

١٩٦٢

نعاس

في جرحِ صمتي لا تهبّ الريحُ، لا تبكي الصحارى
والفصنُ لا يذوي،
وتبقى مقلتاكِ غنىً ودارا
والعالمُ الأَرضيُّ، ملقىً، مثقلُ الخطواتِ، صامتْ
كالبحرِ أمنحُه انتظارا
كالبحر يمنحني محارا
لكنه شيءٌ سواي
شيءٌ يضيعُ الملحُ فيه، كما يضيع الحلمُ فيَّ ـ
بطاقتان بلا بريدْ
كتبتْهما كفٌّ على كهفٍ لتخترقا البحارا
والفكرَ والآزالَ والموتى وتخترقا الصحارى
لتخبِّراني في حديقةِ منزلي عن وردةٍ سكنتْ بُخارى
ولتبنيا لي في الصحارى القهر دارا
قصراً على شرفاتهِ السبعين تنهارُ الكواكبْ
وعلى مدارجِه الفساحِ تعومُ أشواكُ العقاربْ
يأوي إليه البومُ والحيّاتُ والرجلُ الذي يهوى بخارى

*

في جرح صمتي، أنتِ، ترتجفين،
وجهُكِ كالنجومِ ـ الرملِ شاحبْ
وبجيدكِ البلّورِ وشمٌ من شفاهي
وجبينُكِ المتوجسُ المقرورُ تلسعُه الكواكبْ
يا جنةً في بيتيَ الورقيّ ناضبةَ المياهِ
ماذا تحدثني النجومُ ووجهُكِ الوضّاءُ شاحبْ؟
في جُرحِ صمتي، مرةً أخرى، تهبّ الريحُ، تنتحب الصحارى
والغصنُ يذوي، والبحار تلوبُ زرقاءَ الصحارى
ووراءَ قصرِ التيهِ تبكي مقلتاكِ غنىً ودارا
حتى كأنّ العالمَ الأَرضيَّ ينتحر انتحارا
وكأنني وحدي أموتْ.

*

لا توقظيني...
قبليني قبلةً أخرى...
ونامي

١٩٦٣

مرثية الألوية الأربعة عشر

أتيهُ الليلَ في ساحاتِ بيروتٍ، كأني من دُوارِ البحر مُلقى، تُغمَضُ العينان في صمتي على الحلم الذي ينبع أشجاراً وماءً في دروبِ النخلِ، حيثُ الخضرةُ الزرقاءُ كالماءِ، وحيثُ الماءُ كالزرقةِ مخضرّاً، وحيثُ البيتُ أعرفهُ، وأعرفُ في شفيفِ الليلِ نافذةً تضيءُ الياسمينَ على مساءٍ تستظلّ به الكواكبُ، أيها النهرُ الذي يحملني سأمانَ حتى آخرِ الدنيا، لمن أضرعُ في ساحاتِ بيروتٍ. . . لمن أضرعْ؟

ومن يمنحُني بين ارتعاشاتِ الذرى غرفةْ
ومن يغرزُ في ثلجِ الأَسى الشرفةْ
ومن يُرخي على عينيّ أهدابي
ومن يلمسُ في أغنيةٍ بابي
ومن أسألهُ زيتونةً أو جبنةً بيضاءْ
إذا ما غاضَ في الساحاتِ ينبوعي
وبلّغني الترام محطةَ الجوعِ
رصيفاً من مجاري الوحلِ عبر حدائقٍ سوداءْ؟

*

شربتُ الماءَ أسودَ في ظلالِ التوتِ، لامستُ التماعَ الطحلبِ النهريِّ والأَسماكِ، حدّقتُ به عشرينَ عاماً، يا مياهاً لم أجدْ وجهي عليها،

آهِ يا أعوامَكَ العشرينَ، يا متسولاً في الطائراتِ صنوبرَ القضبانِ والجرحى، ويا متوسلاً بالناشرينَ وبالنساءِ، تبيعُ من لا يشتري جرحاً، وتمضي في ضبابِ الليلِ والسيكارِ تصرخُ: أيها القتلى أفيقوا... أيها القتلى أفيقوا...

أيها القتلى... أفيـ... فلتنطمرْ أعوامُكَ العشرونَ، ولتخرسْ.
فلستَ الخِضرَ في بيروتَ، والأمواهُ فيها ليستِ العينا
ولستَ الناصريَّ: اللّه والغصنا
وما «قصر النهاية» قبرَ سلمانَ بنِ داودِ
مزاراً يمطرُ الأَطفالَ والعشاقَ والأَزهارَ من قبعةٍ خضراءْ
بلى، من قبرنا الطامي على الظلماء
بُعثنا أعظماً لمّا تزل حمراءْ
تناهشتِ الذئابُ لحومَها مهروسةً هرسا
لتعوي مثلما يعويّ قطارُ الموتِ في الصحراءْ
يجرّ محارقَ الفولاذِ، يطوي الشاحناتِ الرمسَ فالرمسا
وتعوي خلفه الذوْبانُ في الأَوحالِ والباراتِ والدودِ
وتنبشُ في الدجى قبراً لسلمانَ بنِ داودِ

* * *

شوكان إسما؟ كانت صغيري
وماتت... البيموت ما له اسم.

«الأخبار»، ٢٣/ ٢/ ١٩٦٤

الاستخبارات البريطانية كانت تنوي.

«النداء»، شباط ١٩٦٤

كالوها بالأَمثال: كلمن ضميره
يا عيوني. . . كلمن ضميره
«أغنية غير شائعة»

*

وراءَ الرملِ والأَسلاكِ، أوقدْنا مصابيحَ الدجى صفينِ من عبّادِ شمسٍ أورقتْ سيقانُه بِيضاً ملائكةً، وكان الليلُ يردي «نقرةَ السلمانِ» في المهواةِ، يلقي فوقها سقفاً رمادياً وشمعاً، نجمُهُ القطبيُّ يهدي الهاربين، بلادَنا، يا صارياً بالنجمِ
والأَوحالِ زخرفناهُ، هشّمناهُ، لم نعرفْ له اسما، ولم نحفره فوق جباهنا وشما، ولم نمنحْه إلا حبّنا الوحشيَّ، ترتجُّ البنادقُ كلما قلنا: سلاماً أيها الآتون، يا زهراً بغيرِ الرملِ لم يُغسلْ. . .
ويا باباً نحاسياً طرقناهُ
وسمّرنا ملايين العيون على محيّاهُ
وبالقبضاتِ مثقلةً سقيناهُ
دماً، حتى إذا ما أنّتِ الأَبوابُ واهتزَّتْ تركناهُ
لنبكي في الصنوبر جنّةً صغرى
وجثّةَ عاملٍ مزرقَّةً مرميةً في العشبِ عندَ الضفةِ الأخرى
وشيئاً في قرارتنا أَضعناهُ
لنسألَ عبر ثرثرةِ النساءِ، وتبغنا المسودِّ، والذكرى
وتهويمِ النبيذِ المرِّ، والصالونِ، والمقهى ـ
لنسألَ: كيف كُنّاهُ!

بيروت، ٣/ ٦/ ١٩٦٤

لمحات جزائرية

مقهىً على البحرِ،
وأَغصانٌ على المقهى
تُوشوشُ الموائدَ الفارغةَ الخمسَ
سدىً.
سيدةٌ تبكي
وحيدةً
في الغسقِ الصيفيِّ
والبحرِ الذي ينصتُ
والمقهى.

❋

فوق قميص العاملِ الأزرقْ
فوق عيونِ الطفلِ والراقصِ والبحّارْ
فوق البيوتِ البيضِ والساحةِ والأَزهارْ
والدمعِ والفرحةِ والخندقْ
ساريةٌ تخفقُ عبرَ الرحيِ والمرمرْ
في الأفقِ الأَخضرْ

في الأفقِ الأَبيضْ
في الأفقِ الأَحمرْ

❋

صنوبراتُ التلِّ تعطي القمرَ النعسانْ
نافذةً زجاجُها أَغصانْ
وشرفةً يلمحُ منها المرفأَ الغائمْ
يمنحُه بحراً سماويّا
ونورساً يهبط في بستانِه النائمْ
شيئاً فشيئاً،
دون أَن تتبعَهُ عينانْ

❋ ❋ ❋

بعد قليلٍ تولَدُ الساحةْ
تتركها باصاتُ نصفِ الليلِ أَحجاراً وأَشجارا
تتركها واحةْ
بعد قليل تسمعُ الساحةْ
آخرَ ما يهمسُه العشاقْ
أَولَ ما يقوله الحارسُ والآَفّاقْ
بعد قليلٍ تسمعُ الساحةُ أَشعارا.

الجزائر العاصمة، ٢١/ ٧/ ١٩٦٤

انطباعات عن أغنية
في قطار الساعة ١٨

الأغنية

رُدّي البسمةْ
تتلألأُ في عيني نجمةْ
ردي
ما أَطولَ أَيامَ البعدِ
وقطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ الــ. . . يـ. . .
ردي، يا أَصفى من دمعةْ
ردي، يا لوعةُ، يا لوعةْ
يا أمي، الفارسُ في القيدِ
وليالي البعدِ بلا شمعةْ
وقطارُ الليلِ، قطارُ الليلِ، قطارُ الليلِ، قطارُ اللـ. . يـ. . .
عرباتٌ مثقلةُ العتمةْ
ورمادٌ في نجمةْ
وسيورٌ في الأَيدي. . .
يا أمي، يا أمي، ردي
ردي، ردي، ردي، ردي
ردي
ما أطول أَيامَ البعدِ
وقطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ اللـ. . . يـ. . .

الانطباعات ـ ١ ـ انطباع المسافر ذي الكفية والعقال:

على عيني، سمعنا، لكن الدنيا
تدور اليوم، أسرع من قطار الليل
وأمك، أَنت، عيني... يا مغني الليل
تراها ما تهاب البعد...
والدنيا ـ
كواكب، لو نناديها نضوِّي الليل

٢ ـ انطباع الشرطي:
نعسنا، ما سمعنا غير: يا أمي!

٣ ـ انطباع المغني نفسه:
ربما أحزنتكم، لكنّ حزني
نبعةٌ تُزهر في صوتِ المغني
ويدٌ تحملني، تسْلمني
لينابيعَ شفيفاتٍ وغصنِ
كلما هدهدتُ من غلوائها
وتناءيتُ... رأَيتُ النبعَ مني
ربما أَحزنتُكم، لكنني
لم أَقلْ، لقد كنتُ المغني!

٤ ـ انطباع سعدي يوسف:

للمرة العشرين، أَحملُ عبءَ أغنيةٍ صغيرةْ
حاولتُ أَلاّ أَرتدي فيها ثيابكمو الأَميرةْ
حاولتُ أن أحكي، وأَن أَبكي، كما شئتُ
حاولتُ أَن تتناهشَ العجلاتُ عِقداً خَيْطُهُ «البيتُ»
أَن أُلبسَ الصحفيَّ سروالاً وقبعةً وأكماماً قصيرةْ

٥ ـ انطباع مرتب الحروف:

حرفٌ أَسود!
حرفٌ أَبيض!
بولْدْ ١٠!
لو تُرفَضُ هذي «الأَشعارُ» الحرةْ
لو أَفهمها مرةْ
لو أَقرؤها مرةْ!
ـ محمودُ، كم الساعةْ.

أغنية أخرى كتبت خصيصاً لمرتب الحروف

نيسانُ، أَغصانٌ من الريحانِ، يا نخلَ «السماوةْ»
لكنْ هذا الليلَ يسقيكَ الظلامَ، فلا نراكْ
إلا مرايا داكناتٍ تحتَ هدهدةِ النجومْ
لكننا سنراكَ يا نخلَ «السماوةْ»
يا مزهراً بالطّلعِ والعصفورِ، يا جسراً سماوياً ـ

تنامُ على قناطرِهِ الكرومْ.
اليومَ نمضي:
لا وداعَ،
ولن نقولَ:
إلى اللقاءْ!
فالليلُ يخسرُ ساعةً أخرى.
لقد غرِقَ المساءْ
في لُجّةِ الطينيّ.
إنَّ البطَّ عبر الضفّةِ الأخرى يعومْ
والفجرُ يبني عشَهُ القاني،
وتبتردُ النجومْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/ ٧/ ١٩٦٤

الشخص الثاني

«إلى لورنس دريل»

في المطعمِ الشتويِّ، أصغيتُ إلى سعلته الأولى
راقبتُه يمسحُ بالمنديلِ كفّيهِ
ويكتمُ الضحكةَ في إغماضِ عينيهِ
راقبتُه، يلحظني للمرةِ الأُولى
يسخرُ مني. . .
دونَ أن يُسمعني حرفا
أو يوقظَ الصمتَ الذي أَغفى.
كان زجاجُ المطعمِ الشتويِّ مبلولا
وفجأةً. . .
غادَرَهُ، بالمعطفِ الباهتِ ملتفّا

❋

وفي المحطاتِ، تقابلْنا، شربنا الشايَ والنعناعْ
لم نتحدثْ، كانت الأَمداءُ تمضي، ساعةً ساعةْ
وكان يبدو مثقلاً من جلستي، مرتاعْ
من وجهيَ الهادئِ ـ في «تليلاتْ»
كادَ يناديني. . . ولكن جاءتِ الصيحةْ ـ

وهكذا عادَ إلى عالمهِ الباحثِ عن معنى
يرقبني، كاللصِّ، من زاويةٍ في عينهِ اليمنى
ومرةً أخرى، افترقنا. . .
لم نقلْ: «صَحّةْ»

❊

وأمسِ، في غرفتيَ المغلقةِ الشبّاكْ
كنتُ أغنّي، باسماً، للمطرِ الناعمْ
والريحِ، والوردِ الذي لمّا يزلْ نائمْ
وبغتةً. . .
أَحسستُ بالرجفةِ في الشبّاكْ:
أَهْيَ أكُفّ الريحِ تدعوني؟
تزورُني؟
أم غصنُ ليمونِ
يريد أن يدخلَ خوفَ الريحِ؟
أم أغنيةٌ للمطرِ الناعمْ
تحملُ لي من آخرِ الدنيا عبيرَ الوطنِ الغائمْ؟

❊

لكنني أبصرتُ عينيهِ
عبرَ الزجاجِ الرطبِ، مبتلّتينْ
أبصرتُ في عينيهِ أغنيتينْ.

سيدي بلعباس، ٢٥/ ١٠/ ١٩٦٤

محاولة

أما زلتَ، لم تعبرْ إليها ولم تر الشقائقَ
في الوادي، ولم تلمحِ النجمَ الخريفيِّ أجراساً
من الماءِ أيها المسافرُ: لا تعجلْ، حقيبتُها الأُخرى
على الشاطئ الثاني
محارٌ وغصنانِ
ومنديلُها المملوءُ ملحاً وأحرفاً
يصيرُ قميصاً واشتهاءً ومعطفا
ونبعاتِ ريحانِ
يدورُ بنا شوقٌ إلى الليلِ لا نرى الوسائدَ
إلاّ لمحةً كانتباهةِ السكارى وليناً وارتجافاً،
نوافذُ العبيرِ شممناها، وذُقنا زهورَها
فيا شعرَها الغافي
ويا ثوبَها الضافي
ويا شرفةً بين النخيل وحيدةً
وأغنيةً مخبوءةً... وقصيدةً
ويا وجهَها الصافي
أظلُّ أجوعُ الليلَ، لا الحلمُ واهبُ العطاءِ،

ولا الريحُ التي تُمطر الحزنَ الجليديَّ، آهٍ
لو أنامُ، بهدبيَ ارتعاشٌ، وفي عيني تنامين، في عيني
ذهولٌ، ولا رؤيا
ورؤيا، ولا لُقيا
ومن متعبٍ في آخرِ الليلِ عابرِ
تهامسَ شبّاكي، وأنَّتْ ستائري
.. وأمطرتِ الدنيا

سيدي بلعباس، ٥ ـ ١١ ـ ١٩٦٤

أبراج في قلعة سكر «برنامج تلفزيوني»

الزمان: العقد الأول من القرن العشرين.

المكان: ناحية قلعة سكر في العراق العثماني.

الشخصيات

السندباد

سلمان

جابر المسعود

ابن عم الشيخ

الجوقة

فلاحون

*

يحتوي البرنامج على ثلاثة مناظر

*

الافتتاح

السندباد «من شاشة التلفزيون»:

يؤسفني أن أخبرَ المشاهدينَ أَن برنامجنا عن «رحلتي السابعةِ» العرجاءِ، قد أُجِّلَ... إني لستُ بالآسفِ جداً، فأنا متعبْ.

أُريد أَيضاً أن أنبهَ المشاهداتِ ـ ممن لسنَ في الفراشِ حتى الآن! ـ أَن ينمنَ، أو يمرضْنَ، حتى تهتفَ الساعةُ من محطتي عشراً، ويسترخي الضحى والدفءُ... عفواً، وأريدُ أَن أَقولَ إنني سأصلحُ الأَخشابَ في سفينتي العجوزِ ـ ها، ها... فلقد تحطمتْ في ساحلِ الغرّافِ ـ في العراقِ، عند قلعةٍ صغيرةٍ، والحقُ أَني لم أَجدْها قلعةً، حتى ولم ألمحْ بها قصراً... ولا أدري لماذا سُمّيتْ «قلعةْ»!

«يختفي»

ـ فاصل من صور وموسيقى ريفية ـ

المذيع:

سيداتي، سادتي، سوف تشا...

السندباد

«يظهر فجأة ليسكت المذيع بإشارة حاذقة»:

سادتي! لو توقظونَ السيداتِ الآن! لو تتركونَ الورقَ المغشوشَ والوسكي ونهشَ الناسِ والأَخبارَ، لو تصغون لي. . . لو تبصرونَ السندبادَ القادمَ الليلةَ يروي لكمو عن هذه «القلعةِ» أَشياءَ صغيرةْ. . . حسناً. . .

منظر

«القسم الأَعلى من برج طيني، ذي ثلاثةِ مزاغل. ضوء القمر يغمر البرج وما حوله. شجيرة بعيدة. سلمان. فلاح.
الفلاح الثالث يراقب. فوهة البندقية تبدو من خارج المزغل».

سلمان

«مخاطباً الفلاح الثالث»

أَتراهم قادمين؟

الفلاح الثالث

«دون أَن يلتفت»

قد يجيئون إذا غاب القمرْ

الفلاح الثاني

«وهو يثبت عقاله»

كاللصوص؟

سلمان

قد يجيئون إذا غابَ القمرْ
ويجيئون على ضوءِ القمرْ
إنهم ليسوا اللصوصَ الفقراءْ
المساكينَ الحزانى
سارقي الرمانِ والتمرِ ونومِ الخُفراءْ

إنهم ليسوا يخافون القمرْ
إنهم يسطون في الليلِ، وفي شمسِ الظهيرةْ
دون أن تسأَلهم يوماً: لماذا؟
فلهم وحدهمو القولُ...
ولكنّا سألناهم: لماذا؟

صوت

«من بعيد»

يا جماعة...

الفلاح الثالث

«يعد بندقيته»

من؟

الصوت

صديق...

«يسرع سلمان والفلاح الثاني إلى مزغليهما حاملين بندقيتيهما».

سلمان

«صائحاً»

اقترب...
من أَنتَ؟

الصوت

«أكثر وضوحاً»

إني...

سلمان

«مستغرباً»

آهِ! . . . جابرْ؟
جابرُ المسعودُ . . .
من جاءَ بكَ الليلةَ في ضوءِ القمرْ
مسرعاً من آخرِ القلعةِ . . .
يصطكُّ الحجرْ
تحت مسرى مهرِكَ الأشهبِ . . .
صنجاً وشررْ؟

الصوت

إنني أَحمل وردةْ؟

سلمان

أيَّ وردةْ؟

الصوت

مكن مضيف «الشيخ» بيضاء، وأَغصانَ مَوَدَّةْ

سلمان

وردةً مسمومةً منه، وأَغصانَ عقاربْ

الصوت

إنني أَحملُ خنجرْ

سلمان

دَعْهُ لي أَغرزُهُ في صدرِ مَن لا يتذكرْ

الصوت

إنني أَحملُ منجلْ

سلمان

دعه لي أَفتحْ به للنجمِ جدولْ

الصوت

إنني أَحملُ ليراتِ ذَهَبْ

سلمان

أَلقِها في الماءِ
يا جابرُ. . .
من يطفئُ أَحداقَ الغضبْ؟

«يختفي البرج»

ـ يظهر السندباد على الشاشة ـ

السندباد

يا سيداتي، سادتي، آتي إليكم مرةً أخرى، لعلّي أوْضحُ الأمرَ:
فقد كان هنا شيخٌ، وفلاحونَ، في القلعةِ، أما جابرُ المسعودُ، فهو الرجلُ المولعُ بالخيرِ، لقد أَرسلَهُ الشيخُ ليسترضيَ فلاحيهِ «مقلداً الشيخ»
ـ فليتَّركوا الأَبراجَ، وليسلِّموا البنادقَ السبعينَ، في المسجدِ، ولنقتسمِ الحنطةَ بالعدلِ، كما كُنَّا. . . ـ ولكنّ الذين استلموا الحنطةَ والأَبراجَ والبنادقَ السبعينَ، يخشَون ضياعَ الحنطةِ البيضاءِ والأَبراجِ والبنادقِ السبعينَ، حتى لو أتاهم جابرُ المسعودُ، لكنهمو قالوا أَخيراً إنهم قد يبحثون الأمرَ في منزلِهِ، وليحضرِ الشيخُ أو ابنُ عمهِ ـ إن شاءَ ـ أَما القمحُ، والأَبراجُ، والبنادقُ السبعونَ، فلتبقَ بأيدي أهلِها حتى يريهم جابرُ المسعودُ حُكْمَ العدلِ في القلعةْ!

«يختفي»

منظر

«في مضيف جابر المسعود. جابر المسعود جالس في صدر المكان.
قهوة. نمارق ريفية.

ابن عم الشيخ

«وهو يدخل»

سلامٌ عليكم

جابر المسعود

«ينهض»

«يشير بيده نحو مكان إلى يمينه. يجلس ابن عمر
الشيخ، فيجلس جابر المسعود. الاثنان يشربان القهوة»

ابن عم الشيخ

أتيتُ بأمر ابنِ عمي. . .

جابر المسعود

«مبتسماً»

لتسمعَ رأَيا؟

ابن عم الشيخ

لأُبلغَ رأيا. . .

«يدخل الفلاحون»

سلمان

سلامٌ على جابرِ

الجوقة

سلامٌ، سلامٌ، سلام

سلمان

أَتينا لنسمعَ رأيا

الجوقة

ونُبْلغَ رأيا

سلمان

وننتظرَ العدلَ من جابرِ

الجوقة

سلامٌ، سلامٌ، سلام
جمعْنا المناجلَ في منجلِ
وكلَّ المنابعِ في جدولِ
ولكننا قد ركزنا البنادقْ
على كل برجٍ بيارقْ
على كل برجٍ بيارقْ

سلمان

أجلْ، وأَتيناكَ يا جابرُ
لتجبرَ ما كسر العاثرُ
لكَ القولُ... إنَّا هنا سامعونْ

لكَ الرأيُ. . . إنَّا هنا طائعونْ

«همسة من الجوقة»

جابر المسعود

«ملتفتاً ناحية ابن عم الشيخ، ثم مخاطباً سلمان»

سأحكمُ بالعدلِ. . . لكنني
أَرى العدلَ أَمسى لئيما
أَقول بما قاله الأَوَّلون
وأُفتي بما كان حقاً صميما
أنا الوارثُ الفردُ، مَرَّ الزمانُ
وحُمِّلْتُهُ أَبديّاً أَليما
رضيتُ به مكرهاً طائعاً
ومن دانَ للحكمِ كان الحكيما

الجوقة

تحت الصفصافةِ نادَينا
وجمعنا السنبلَ وارتحنا
قلنا للبلبل ما قلنا
وسأَلْنا النهرَ وغنَّينا:
يا قعلةُ. . . يا بابَ الدنيا
النهرُ تحوَّلَ مجراهُ
النهرُ تحوَّلَ مجراهْ

جابر المسعود

«مُطْرِقاً»

أَعيدوا البنادقْ. . .

الجوقة

لمن؟

جابر المسعود

أَعيدوا السنابلْ. . .

الجوقة

لمن؟

جابر المسعود

وكلَّ المزاغلْ. . .

الجوقة

لمن؟

سلمان

«يخطو خطوتين مبتعداً عن الجوقة»

لقد نطق الحقُّ. . . إنَّا هنا
لنسمعَ ما ينطقُ العادلونْ

الجوقة

النهرُ تحوّل مجراهُ
النهرُ تحوُّل مجراهُ

سلمان

لقد حكمَ العادلونْ

الجوقة

لمن؟

«تخرج جوقة الفلاحين تاركةً سلمان في المضيف»

«من الخارج تُسمع أصوات تتضخم تدريجياً:

النهر تحوَّل مجراهُ

النهرُ تحوَّلَ مجراهُ

النهر تحوَّلَ مجراهُ

. . . .

. . . .

«يختفي المنظر»

منظر

«البرج ذو المزاغل الثلاثة التي تطل منها فوهات البنادق، الفجر ما زال في أَوله»

الفلاح الأَوَّل

لقد باعنا جابرُ

الفلاح الثاني

ولكننا لا نُباع

الفلاح الثالث

لقد باع سلمانُ نفسَه

«أَصوات طلقات بعيدة»

الفلاح الأوَّل

أَلا تلمسُ الريحَ؟

الفلاح الثاني

ماذا؟

الفلاح الثالث

أحسُّ كأن الرياحْ

تنادي

تقول. . .

أَحسُّ كأني أصليّ

«صوت هبوب الريح»

الفلاح الأَوَّل

سيأتون بعد قليلٍ

الفلاح الثاني

ليأتوا. . .

الفلاح الثالث

ليأتوا. . . فأيدي الرجالْ
بنادقْ
وأيدي الرجالْ
بيارقْ

«أَصوات الطلقات تقترب»

«بينما يتعالى النشيد»:

في الفجرِ المفتوحْ سِرْنا
للأفقِ المفتوحْ سِرْنا
شجراتُ الرمانْ
حمراءُ الأَغصانْ
في الفجرِ المفتوحْ سِرْنا
للأُفقِ المفتوح سِرْنا
يا أبراجَ الدنيا
نحيا نحيا نحيا
في الفجرِ المفتوحْ

فِي الأُفُقِ المفتوحْ   سِرْنا
سِرْنا
سِرْنا .

سيدي بلعباس، ٢/ ١٢/ ١٩٦٤

ساحة إسبانية

«ما أكثر السفنْ
في مالقا...
وما أَشد البرد في الساحة!» لوركا

❊

رائحةُ القيثارِ في الساحةْ
والتَبغُ والسوّاحُ في المقهى...
ـ لقد كنا هنا أَمسِ
رقصتُ حتى مُزّقَ الجوربُ، حتى مُزقتْ نفسي
....
وتختفي ضحكتُها مبحوحةَ الجرْسِ
وثوبُها يشحبُ في منعطَفِ الساحةْ

❊

تركتُ في البحر مفاتيحي
أَسلمتُها للَّيلِ والريحِ
حتى إذا غُلِّقت الأَبوابُ دوني...
جئتُ للساحةْ

❊

يا غجرَ الحاناتِ: من يفتحُ لي الحانةْ؟
الفارسُ الليليُّ من ينفضُ أَردانَهْ
ينفضُ عن دفءِ البراميلِ ترابَ الصيفِ والعتمةْ
ويقطفُ الزيتونَ خلفَ السرجِ والليمونَ والنجمةْ
يا غجرَ الحاناتِ... لم تنفتح الحانةْ
والفارسُ الليليّ في تَطوافِهِ يسألْ
عن بابها الموعودِ، عن بستانها المثقلْ
يتبعه عشرةُ قوادينَ نحو المنزلِ الأَولْ
في شارعٍ لم تكتنزْ ظلماؤهُ حانةْ

*

حين أَزاحَ السندبادُ الثلجَ عن بوابة الحجرةْ
واضطربتْ كفّاهْ
وهو يغنِّي مُوقظاً أقفالَها العشرةْ
واقتحمَ البابَ، وصلّى...
لمحتْ عيناهْ
أفعى بلا عينين تلتفُّ على زهرةْ

*

أرصفةَ الميناءِ، يا أرصفةَ الميناءْ
يا أولَ الأَرضِ التي عانقتُ لقياها
يا آخرَ الأَرضِ التي ضيعتُ رؤياها
بحثتُ عنها دون أن ألقى محيَّاها
حتى كأني لم أصافحْ غيرَ أيدي الماءْ

وخمرِها الأَسودِ، والسكيرةِ الشقراءْ
والعازفِ السأمانِ، والراقصِ، والظلماءْ
وعبرَ آلافِ المقاهي كدتُ ألقاها
في نبإٍ عن سجنِ «ألفاريز»
في سجنِ «ألفاريز»
سراً وراءَ الليلِ والساحاتِ والضوضاءْ
والحرسِ الأَهليِّ والشحّاذِ والسائحِ والحذّاءْ

*

يا أيها السرُّ الذي أودعتُهُ أرصفةَ الميناءْ
قبّعتي طارتْ مع الريحِ ودارتْ زهرةً في الماءْ!

سيدي بلعباس ـ مالقا، ٧/ ١/ ١٩٦٥

مرثية

«في ذكرى بدر شاكر السياب»

جيكور توقد في المساء الرطب فانوساً ولا تلقى ضياءه
ـ مات اليتيمُ، وخَلَّفَ امرأةً وأيتاماً وراءهْ
يا رحمةَ اللَّه التي وَسِعَتْ شقاءَهْ
يا أمَّ مَن لا أمَّ تُغمضُ جفنَهُ: كوني رداءهْ
ولتمنحي الجسدَ المعذّبَ راحةً، والحلقَ قطرةْ
ولتمسحي بالسدر جبهتَهُ، وبالأَعشابِ صدرهْ
هو طفلكِ المصلوبُ فوق سريرهِ عاماً فعاما
متقيحَ الطعناتِ، مشلولاً، مضاما
يا رحمةَ اللَّه التي وسعت شقاءَهْ
قودي خطاهُ إلى السماءِ، فطالما حجبوا سماءهْ
وترفّقي... إن الجراحَ تسيلُ من قدميهِ، تنبتُ وردةً في إثْرِ وردةْ
فلترفعيه إلى جذورِ النخلِ حيث ينام وحدَهْ
ولتضفري من سعف نخلته مخدةْ
حتى إذا ما أُغمضَتْ عيناه وانسرحتْ يداهُ
وتهدّل الأَبنوسُ فوق جبينه... كوني رؤاهُ.

*

أيوبُ في المستشفياتِ يهيمُ، تسبقه عصاهُ
بين القرى المتهيباتِ خطاهُ والمدنِ الغريبةْ
وهو المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبَهْ
أنهارُ جيكورَ التي اندثرتْ تفجّرها عصاهُ
وبيوتُها تنشَقُّ عن لَبَنٍ إذا مرّت يداهُ
عبرَ الجبينِ. . .
وأورقتْ في السرّ أغنيةٌ وآهُ.
. . . .
جيكورُ مطفأةٌ كأنَّ الليلَ عانقَ ساكنيها
لا التوتُ في الأَنهارِ يهبطُ، لا السماءُ تشفُّ فيها
والنجمُ والأَسماكُ ما عادتْ حدائقَ للمساءِ
باباً إلى وديان نجدِ
غيلانُ يصعدُ فيه نحوي من ترابِ أبي وجَدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي
. . . .
أيوبُ، في جيكورَ، ألقى عند قنطرةٍ عصاهُ
وللحظتينِ تماوجتْ في عمقِ عينيه المياهُ
والخضرةُ البيضاءُ، والصفصافُ،
وانطبقتْ على الكنزِ المبدّدِ مقلتاهُ.
❊
يا عالمَ المتوحشينَ ذوي البنادقْ

حيثُ الحديثُ عن الورودِ سدىً، وحيثُ النسلُ يُزرعَ في الحدائقْ
ونساؤه يُجهضْنَ في المستشفياتِ، وخلفَ أستارِ الفنادقْ
يا عالماً يَهَبُ الحياةَ لموتِهِ
يَهَبُ المماتَ لصوتِهِ
يا عالَمَ المتوحشينَ ذوي الخزائنْ
والجامعاتِ، وجدولِ الإحصاءِ، والفرموثِ، والحرفِ المداهنْ
حيثُ الدواءُ، دمٌ، يُباع ويُشترى، حيثُ المداخنْ
تتنفسُ الآلاتُ فيها
ويحشرجُ الإنسانُ فيها
يا عالَمَ المتوحشينَ ذوي الحوافرْ
الصِلِّ واللواطيِّ، والـ. . . ، واللصِّ، والقردِ المقامرْ
حيث الحضارةُ أُوقفتْ سنتينِ حتى ماتَ شاعرْ
. . . .
من يشتري جلدَ المسيحِ؟
إنَّا سلخناهُ، فيا دنيا استريحي.

❊

يا بيتَ جَدّي في دجى جيكورَ،
يا نخلَ العراقْ
قبري وراء التلِّ يستبقُ القيامةْ
في وحشةِ المنفى الأَخيرِ، وتستظلُّ به حمامةْ.
والبردُ يُرجفني:

عراقُ. . . عراقُ. . . ليس سوى عِراقْ

*

وأنا: العراقُ أو القيامةْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس، ٩/ ١/ ١٩٦٥

(ملحوظة: ضمنت القصيدة خمسة أبيات من شعر بدر، في أماكن متفرقة، مع شيء من التحرير).

النـهر

نهرٌ من الأَسماكِ والطّحلبِ المائيّ والخضرةْ
مسراهُ في عينيّ أمواجٌ وفي قبّعتي زهرةْ
نهرٌ من الريحانْ
والوردِ والرمّانْ
يمتدّ حتى بيتها المغلقْ
حتى جذورِ النخل في البستانْ
والقمرِ السهرانِ والأَحزانِ والزّورقْ.

❋

يا نهرُ والفضّةُ تطفو على
أمواجِكَ الخضرِ فلا تغرقْ
والفجرُ من سلّته ناثِرٌ
دفئاً وعنقودَ سنىً ندیانْ
كزهرةٍ أَوراقُها مرجانْ
يا نهرُ إن جئتَ إلى بيتها
تغسلُه، تجعلهُ شطآنْ
فاحملْ إليها هذه الزهرةْ
احملْ إليها زهرةَ المرجانْ
لعلّها تنسى بها النسيانْ

ثلاثة أصوات

سفينةٌ في المطرْ
مهجورةٌ عاريةْ
قلوعُها الباليةْ
تشربُ صوتَ المطرْ
لا تسأليني عن دروبِ الملحِ يا خشباً وماءَ
بيني وبين البحرِ أرضٌ لستِ أنتِ لها سماءَ
لا تذكري الشوقَ القديمَ فقد مللناه انتشاءَ
ماذا لديكِ عدا نبيذَكِ والنوارسَ والنساءَ
شفتايَ تنتظرانِ غيرَ صليبكِ الداجي نداءَ.

❊

معاطفٌ في المطرْ
داكنةُ الألوانْ
لكنه عريانْ
يركضُ تحتَ المطرْ.
الشارعُ النهريُّ يحرسُ بالمعاطفِ والقضاهْ
تاريخَهُ، وعلى مخازنه نوافذُ من مياهْ
وظلالُ أشياءٍ مهرّبةٍ ولمحٌ من شذاهْ

يا شارعاً في البصرةِ الزرقاءِ تلمعُ مقلتاهْ
إني هنا عُريانُ مرتجفٌ، فطوبى للحياهْ.

*

عباءةٌ في المطرْ
كقطرةٍ هائلةٍ سوداءْ
تلمعُ تحتَ المطرْ
مطرٌ على القضبانِ تشربه العيونُ خيوطَ حزنِ
وعلى العباءةِ وجهُ فاطمةٍ وليلُ أسىً ولونِ
وعلى يديكِ شموسُ فاكهةٍ وأنتِ أمام سجني
يا أختُ لا تبكي على أبوابهم...
إنّي أغنّي.

البصرة، ١٠/ ٣/ ١٩٦٢

ترتيلة للبحر

يا بحرُ من بستانِكَ الصَدَفيّ إمنحْني محارةْ
مرجانةً، شيئاً من الأَعماقِ، لوناً غير لؤلؤتي المعارةْ
يا بحرُ أغرقني، وأغرقني، وأغرقني
أكنْ للشوق شارةْ
هبني ولو لمحاً من الرؤيا
خذْ كلَّ ما أعطتنيَ الدّنيا
اجعلْه قبراً لي وأسدلْ فوقَه حُبي ستارةْ.
يا بحرُ يا أفقاً بلا دنيا
أمسِ ارتجيتُكَ أن تردَّ إلى تمرّديَ إخضرارهْ
أَن تغسلَ الأَسماءَ تمنحَها الحقيقةَ والنّضارةْ
أَن تجلوَ الرؤيا بعينيَّا
وتكونَ لي شفتين من حلٍ وكفّاً من غزارةْ
وتعيدَ لي أَعماقيَ العليا
واليومَ جئتُ إليكَ وجهي في جبينكَ وارتمائي
في صدركَ المغبِّر،
أبحثُ في مراياكَ الهشيمةِ عن سمائي.

*

يا بحرَنا الأَزليَّ إن تهنا فضيّعناكَ حينا
أن كنتَ قرباناً لآلهةِ سواكْ
إن لم نمرّغْ في عواصفِكَ الجبينا
فلأَننا ضعفاءُ أسرى
ولأَننا ضعفاءُ أسرى
ولأَن شيئاً مات فينا.

❋

يا بحرُ جئنا مرةً أُخرى فلا تكنِ الضنينا.

النجم والرماد

(١٩٦٠)

المسافر

معي كان في ٦/٥
لقد كنتُ أشربُ صوتَهْ
وأنباءَهُ واغترابي وصمتَهْ
وفي البحرِ، كان المساءْ
ندياً، وكان الفضاءْ
ندياً، وكان بعينيّ ماءْ

❊

ـ؟
ـ مضى قبل شهرين. . . في صمتهِ
وغربتهِ، وندى صوتهِ
لقد كنتُ أجهلُ أين يريد السفرْ
وقد كان يكرهْ حتى الوداعْ
يغني أغاني حزينةْ
عن النخلِ. . . عن رحلةٍ في سفينةْ
وكان بعينيه شيءٌ مضاعْ

البصرة، ١١/١٠/١٩٥٩

إلى محيسن من هور السفطة

مزقتَ قلبي. . .
صوتُكَ الدامي يمزقه كخنجركَ الصدئْ
وحشيةُ الأعماقِ فيه، وزرقةُ الأوراقِ فيهْ
مزقتَ حتى الجرحَ، حتى لفحةَ الشوقِ الجريءْ
لأكادُ أحتضنُ الترابَ، أمرّغُ الأحداقَ فيهْ
لأكادُ أحفر باليدينِ على فؤادي مقلتينْ
لأكادُ أصرخُ دونَ صوتٍ، دونَ صوتٍ، دونَ صوتْ:
يا قلبيَ الحجريَّ، يا متلصّصَ الخفقاتِ، يا زَيَفَ المقاهي
أبصرْ. . .
فوجهُ الفاقةِ العظمى كوجهِ الميتينْ
أعمى، يمصُّ الدودَ والزُهريَّ، مبحوحَ الأنينْ
أبصرْ. . .
كأنكَ أنتَ لم تولدْ لتبصرَهم جميعاً
لتصيحَ بين الناس، من أجلِ الذين يعذَّبون ويُدفَنونْ
في الصمتِ، من أجلِ الذين يجررونْ
أقدامَهم في بولِ مرضاهم، ورغمَ القيحِ والماءِ المسمَّمِ يزرعونْ
يا قلبيَ الحجريَّ. . . أبصرْ كي تراهم يبصرونْ

أبصرْ. . .

وإلا فليمرّغْكَ الحذاءُ، على الزجاجِ، على المقاعدْ
وعلى أنابيبِ المياهِ، وفوقَ أغطيةِ الموائْد
وأمامَ أبوابِ الأطباءِ الأنيقةِ، والمطاعمِ، والقضاهْ
أصرخْ بأعماقِ المدينةِ، قفْ بساحاتِ المدينةْ
أصرخْ بهم عن شعبنا المنسيِّ في صمتِ المياهْ
أتركْ من الصرخاتِ وسماً في الجباهْ
وسماً من النيرانِ، يُمحى، حين ترتعشُ الحياهْ
في شعبنا. . . المنسي
في صمتِ المياهْ

العمارة، ٨/ ١٩٥٩

بعد منتصف الليل

وحـــــــدي مــــــع الأوراقْ　　　والـــلـــيـــلِ والـــشـــبّـــاكْ
وهــــــدأةِ الأعــــمـــــاقْ
وأنـــــتِ فـــــي بـــــغـــــدادْ　　　نـــائـــمـــةٌ تـــحـــلـــمـــيـــنْ
بـــالـــبـــحـــرِ والأبـــعـــادْ
بـــــزهـــــرةٍ خـــــضـــــراءْ　　　زرقـــاءَ، كـــالـــفـــيـــروزْ
نـــاعـــمـــةِ الأضـــواءْ
وشـــعـــرُكِ الـــهـــائـــمْ　　　وددتُـــــه فـــــي يـــــدي
مـــســـتـــرســـلاً نـــائـــمْ
أحـــبُّ أن ألـــمـــسَـــهْ　　　فـــي يـــقـــظـــتـــي مَـــرةْ
يـــا فـــضـــةً مـــشـــمـــســـةْ　　　يـــا خـــجـــلَ الـــبـــصـــرةْ!

١٩٥٨/١٠/٤

كآبة

مَرَّ بها أمسِ، وكان الليلُ في الصحراءْ
نهراً من الموجِ الترابيّ، وصمتِ الريحِ، والأصداءْ
كان يرى نجماً، ولكنْ كانتِ الأضواءْ
دفينةً كالماءْ
بعيدةً كالماءْ
باردةً كالماءْ
مَرَّ بها أمسِ، وفي إطراقةِ الظلماءْ
منزلهُ المهجورُ يبكي، يسكنُ الصحراءْ
حديقةً تنهشُ حتى صمتَها الأنواءْ
يا قطرةً من ماءْ
مُرّي على منزله مرّي
ولتسألي عنها، وآهٍ. . . آهٍ لو تدري
أن الليالي بعدَها سوداءْ
أني هنا كقطرةٍ من ماءْ
في الليلِ. . . في صحراءْ

بغداد، / ٩/ ١٩٥٩

زائر

لم تأتِ لي وحدَكْ
يا حاملاً في وحشتي وَردَكْ
يا حاملاً شعبي
أغنيةً للأرضِ... للقلبِ
يا أيها المعطاءْ
يا مشرقَ العينينِ بالحبِّ
يا رائعاً حتى مع البغضاءْ...
لم تأتِ لي وحدَكْ
لم تأتِ لي وحدَكْ
....
....
الريحُ في الصحراءْ
تلتفُّ بالبردِ
والرملُ عند البابْ
يرقبني وحدي
والليلُ كالقطةْ
مكومٌ عندي

إني هنا وحدي
أحلم في البردِ
حتى الأسى مدَّ ذراعيهِ
يمنحني من دفئه الثلجيّ أسرارا
إني أرى في الليل أنهارا
أغرق فيها باسماً باسما
أغرقُ في أمواجها وحدي.
. . . .
لو لم تجئْ عندي. . .
يا أنتَ. . .
لو أبقيتَني وحدي!

نقد

كان هنا في زرقة النافذةْ
محترقاً. . .
يبحث في الأوراقْ
عن قيمةِ الأوراقْ
كان هنا يسأل في الصمتِ
عن قيمةِ الصمتِ:
أنت ترى أن قلوبَ الناسْ
لا تعرف اللؤلؤةْ
في عتمة الأعماقْ
وحينما ننظر للزهرةْ
قد نعرف البذرةْ
لكن إذا أخفيتَ حتى أحرفَ الديوانْ
هل نعرفُ البذرةْ؟
. . . .
أنصتْ:
ألم تهتزَّ للموتى. . .
للبحرِ. . للأقمارْ. . .

أَلم تفتّحْ قلبَكَ الأنهارْ
يا خائفاً حتى من الأسفار!
أنصتْ:

لقد كنتَ مع الشارعْ
كنتَ معي... كنتَ بلا أسرارْ
....
....
....
كان هنا يحلم بالأزهارْ
في زرقةِ النافذةْ
عيناه خضراوانْ

الكويت، ٢١/٢/١٩٥٨

مساء

إني أحدّقُ عبرَ نافذتي وحيدا
ما كنتُ أقدر أن أفكرَ. . .
إنني أرنو بعيدا
السحْبُ سودْ
السحْبُ تدخل عبرَ نافذتي كأنيَ في العراءْ
السحْبُ تدخل في فؤادي
والحزنُ. . .
إن الحزنَ ماءْ. . .
. . . .
عينايَ مغمضتانِ. . . ها أني أراها
أهدابَها، والنورَ، والكتبَ التي فقدتْ شذاها
إني لألمسُ صوتَها السريَّ، من نبعٍ عميقِ:
أضللت عني يا صديقي
في غيمةٍ سوداءَ. . . سوداءِ البريقِ
يا أيها النجمُ العزيزْ
سأظل أغمضُ مقلتيَّ بلا انتهاءْ

لأقولَ أغنيةً هناكْ
لأقول أغنيةً تراكْ
يا أيها النجمُ العزيزْ
يا واحةً بين البراري
ستظلُ تخفقُ مقلتاكَ كزهرتينِ على شعاري

البصرة، ١٩٥٧

رزوقي

شيءٌ من الزرقةِ في أحداقهِ، شيءٌ من العنادْ
شيءٌ من الودادْ
كان يراني أقرأُ الكتابْ
فيومضُ المكرُ بعينيهِ. . . ويطلقُ السؤالْ
إثر السؤالِ:
آهِ، هل تظنُّ ما يقالْ
عن الشيوعيين حقاً؟ هل رأى المسيحْ
دقَّ المسامير بعينيهِ؟
هل السماءْ
بعضٌ من الأرضِ؟ وكيفَ تلبسُ العباءةَ النساءْ؟
وكيفَ؟
كيفَ؟
كيفْ؟
. . . .
. . . .
. . . .
وهكذا أحببتُه، أحببتُ في عينيهْ

شيئاً من العنادِ والزرقةِ والودادْ
أحببتُ في كفّيهْ
خشونةَ الجنديِّ والفلاحْ
أحببتُ في أعماقه التساؤلَ الملحاحْ

بغداد، ١٩٥٩/٦/٢١

الأسوار

يا أزهارَ القصبِ الرمليةْ
يا أغنيةً غجريةْ
يا أزهارَ القصبِ. . . يا أزهارْ
الحبُّ يجيء مع الأمطارْ
والسعَفُ الباهتُ تشربُه الأنهارْ
وتغمغمُ في صمتي الأسفارْ
لو نعرفُ يا أزهارَ القصبِ
لو نعرفُ يا أزهارْ
أغنيةَ الأسفارْ
أغنيةً غيرَ الكتبِ
لمضينا دفءِ الأمطارْ
في دربٍ لا تحرسُها الأسوارْ
يا أزهارَ القصبِ!

بعض محرري «الصحف»

إحسانُ. . .

لا تنظرْ من الشبّاكِ

إقبلها نصيحةْ

مني، ولا تخشَ «الفضيحةْ»

أتخافُ إن قالتْ «جريدتُهم»: فلان

«ماتت أغانيه الحسانْ»،

أو: سوف لن تهواه أهدابُ الحسانْ

أتخافُ إن قالوا: يسيرُ مع الذين

لا يعرفون سوى حديثِ الجوعِ؟. . .

يا قمري الحزينْ،

لا تقرأ الصحفَ الدنيئةْ

إذهبْ إليهم، حطّمِ الأبوابَ، وابصقْ في وجوههم البذيئةْ

إحسانُ، حين ترى من الشبّاك تلقاهم رجالا

بملابسٍ سوداءَ. . .

أوراقٌ كثيرةْ

ولفائفٌ تخبو وتومضُ، مثلَ نيرانٍ صغيرةْ

فإذا اقتحمتَ عليهم الأبوابَ أبصرتَ الرجال

صُفراً كما تلقى خيالا
أوراقُهم فيها علاماتُ الفضيحةْ
ولفائفٌ للنصفِ ملقاةٌ، بها لونُ الفضيحةْ
مِن صُنعِ سيّدهم، مريحةْ
قمصانُهم بيضٌ ملطّخةٌ بأصباغِ الشفاهْ
وملابسٌ سوداءُ تنكرها الحياهْ
إحسانُ، يا رجلاً يناديه العراقْ
أنظرْ أغاني الحبِّ فوق شفاههم، طُهراً يُراقْ
كالخمرِ. . . كالخمرِ الرخيصةِ، مثلَ أنباءِ البغايا
إحسانُ. . .
هم لا يعرفون الحبَّ والمهجَ الجريحةْ
لا يعرفون الصدقَ، أغنيةَ الجماهيرِ، الصريحةْ
إحسانُ. . .
لا تخشَ «الفضيحةْ!»

البصرة، ١٩٥٥

اغتراب

وحيدٌ بمقهاكَ. . . إن ليالي الشتاءْ
بباريسَ ليست وحيدةْ. . .
وفي شقة ما بوارشو تغني فتاة
أغاني شريدةْ. . .
أغاني بعيدةْ.
وفي الصيف، في بمبلونهْ
أحبتكَ، كانت تحبُّ النبيذْ
وكانت تناديكَ في أمسياتِ المدينةْ:
Amigo
وكان زجاجُ المطارْ
ندياً. . . وفي ثغرها
ورائحةِ الليلِ. . . في شَعرِها
رأيتَ النهارْ
. . . .
. . . .
. . . .

وحدٌ بمقهاكَ، إن الليالي
هنالك. . . ليست وحيدةْ

البصرة، ١٨/ ١١/ ١٩٥٩

لمسات

١

قميصُها يهمسُ لي، صوتُها
يفرشُ صمتَ الليلِ. . . صمتَ السَهَرْ
كالمطرِ الخافتِ بعدَ المطرْ
كالعشبِ بعد المطرْ
كالدفءِ بعد المطرْ

٢

غرفتُكَ الموصدةْ
والكتبُ الرثةُ والمنضدة
وفي ثيابِ الليلِ تأتي الكلابْ
تحملها الريحُ من النافذةْ
مغمضةَ الأجفانْ

٣

يا قلقَ الإنسانْ
يا صوتَه الراجفَ في القضبانْ

هبني احتراقاً منكَ، هبني رجفةَ الإنسانْ
والدهشةَ البكرَ، أعطني شيئاً سوى الإيمانْ
يا قلقَ الإنسانْ

البصرة، ١٩٥٩/١١/٢٢

احتراق

وطني، أرهقني حبُكَ، أبكاني طويلا:
أنتَ تدري: نحن لا نعرف للحب بديلا
غير أن القلقَ المرَ عليكْ
والليالي السودَ، والأمطارَ، والخوفَ النبيلا
وأغاني يوسف الصائغ في القضبانِ... تشكوكَ إليكْ
....
وطني لو يعرف الشاعرُ للصمتُ سبيلا
لطوى أوراقَهُ في ماءِ عينيهِ، لأخفى مقلتيكْ
عن لياليه الجريحاتِ... فأغفى ثم ماتْ
غير أن الرجفةَ الثكلى وراءَ الكلماتْ
والدمَ المحضَ، وصمتَ الأمهاتْ
وأغاني يوسف الصائغ في القضبان... تدعوكَ إليكَ
....
ضائعٌ مَنْ صَمَتَ اليومَ ولم يوقظْ يديكْ!

إلى زميل موقوف

لعينيكَ إذ تومضانْ
بعيداً عن البصرةِ
كما التمعتْ نجمتانْ
ببغدادَ . . في الظلمةِ
لعينيكَ أغنيتي

* * *

حزينٌ . . حزينٌ عليكْ
على الحزنِ في مقلتيكْ
ولكنّ في غرفتي
كتاباً سأهديه يوماً إليكْ
كتاباً صغيراً يقولْ:
هو النورُ في الظلمةِ!

البصرة، ١٩٥٥

تلفيق

قدماهُ فوق الماءِ أخضرَ تعبرانْ
تترقرقُ الأوراقُ بينهما. . . ويخفقُ شذروانْ
كان النخيلُ يمدّ آلافَ الشِباكْ
ليصيدَ فيها الظلُّ آلافاً من الأسماكِ مشمسةَ الثيابْ
كانت بقايا الليل في عينيه لمحةَ أرجوانْ
وعلى خطاهُ الظلُّ والأسماكُ تومضُ، والترابْ
. . . .
. . . .
ـ كان ابنكَ الملعونُ يا عيسى يسيرُ إلى الدواسرْ
وبجيبه اختبأتْ خريطةْ
كاد ابنكَ الملعونُ ينسفُ بيتَ مختارِ الدواسرْ
. . . .
. . . .
في مركزِ العشّارِ أغنيةٌ تضوعْ
والصمتُ يبحرُ في دروبِ الليلِ. . . والمبنى سفينةْ
حجريةُ المرساةِ، باهتةٌ، تنامُ بلا قلوعْ

كان ابن عيسى العونِ يبحث عن سفينةْ
في مركزِ العشّارِ. . .
إن البحرَ تشربُه المدينةْ!

البصرة، ١٠/ ١٢/ ١٩٥٩

زيارة

في الصمتِ، كان يراكِ. . .
كانتْ مقلتاه على الوِسادْ
ومن النوافذِ تحملُ الهمساتُ صوتَكِ والسهادْ
ومن البعيدِ يراكِ. . .
شاحبةً، صغيرةْ
من لا مكانٍ تدخلينَ. . . تسلمينْ
خجلى. . .
وتقتسمينَ باسمةً سريرهْ
شفتاهُ فوق ذراعِكِ العاري وصمتِكِ والحنانْ
يا زهرةَ الدنيا ويا شفةً سريرهْ
شفتاهُ فوق ذراعِكِ العاري وصمتِكِ والحنانْ
يا زهرةَ الدنيا ويا شفةً أسيرةْ
كانت يداهُ بثوبكِ القطنيِّ ذلك. . . تُبحرانْ
تتلمّسانِ وتبسمانْ
وتذوبُ في عينيكِ غربتُه المريرةْ

البصرة، ٢٢/ ١٢/ ١٩٥٩

الأربعاء ٩ آذار

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملء زرقتها تصيحْ:
القبرُ أوسعُ منك داراً أيها القبرُ الفسيحْ!

* * *

في الدربِ، لم تكنِ الخطى تعبى. . . لقد كانوا ثلاثةْ
يمضون نحو السجنِ:
امرأةٌ، وتلميذٌ، وشيخْ
كانوا لأحمدَ يحملون. التبغَ، والشوقَ المسهَّدَ، والطعامْ
وعلى خطاهم آخرون لغيرِ أحمدَ يحملونْ
منَّ السماء، وتبغَ قريتهم، وأغنيةَ ابتسامْ
إن الظهيرةَ عند بابِ السجنِ أفجعُ ما تكونْ!

* * *

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملء زرقتها تصيحْ:
يا رايةً للشعبِ. . . ارتفعي مع الأملِ الفسيحْ!

* * *

مطرٌ رصاصيٌّ على الإسفلتِ يخترقُ الوجوهْ
مِزَقاً، ويحفرُ للدم الأبديِّ نهراً في المدينةْ
ومن الأزقةِ تصرخ الخطواتُ، تندفعُ الوجوهْ
ويمرُّ أحمدُ مرهفَ الخطواتِ. . . كان يرى المطرْ
واللمعةَ السوداءَ في الرشّاشِ، والوجهَ الحجرْ
كانت دروبُ النورِ يغلقها المطرْ

❊ ❊ ❊

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملءَ زرقتها تصيحْ. . .

البصرة، ١/ ٣/ ١٩٦٠

حكايات من البصرة

١ ـ أمرٌ بإلقاء القبض

أحببتُ يوماً صوتَهُ الصافي، ونظرتَهُ الغضيضةْ
وقميصَه المائيَّ، والكلماتِ يهمسُها خفيضةْ:
«الشعبُ يعرفُ كيفَ...»..
والنسماتُ تزهرُ في المساءْ
في ٥٤ هذا، حين كنا «أصدقاءْ»
من قبلِ أن يقضي وليلَ السجنِ أعواماً ثلاثةْ
....
ورأيتُ أمسِ قميصَهُ المائيَّ يغرقُ في الظلامْ
في شارعٍ خالٍ... وفي عينيه ضوءْ
وتغمغمُ الكلماتُ يهمسُها خفيضةْ:
«الشعبُ...»...
ثم يغيبُ وجهٌ في الظلامْ...

٢ ـ لا مواجهة

كانت أمامَ السجنِ تبكي... كانتِ امرأةً صغيرةْ
محمرةَ العينينِ، تلفحُها الظهيرةْ

وعلى عباءتها تمرُّ الريحُ ناعمة الترابْ
وتدورُ أوراقٌ على الإسفلتِ شاحبةٌ كسيرةْ

. . . .

ـ اليومَ، قلنا «لا مواجهةٌ. . . ولاهم يحزنونْ». . .

. . . .

وتظلُّ واقفةً ببابِ السجنِ تبكي. . .
كانتِ امرأةً صغيرةْ

٣ ـ التحري

أيامَ كنا في دمشقَ. . . نجوعُ، نحلمُ، نستميتْ
من أجلِ حرفٍ أنتَ تكرهُه، رأينا الفجرَ يحرسُه الرفاقْ
حتى إذا ما اهتزتِ الآفاقُ وانفجرَ العراقْ
عدنا، وكان معي كتابٌ ـ سيدي! ـ هذا الكتابْ!
لا تلمس التاريخَ، لا تجرحْ كرامتَهُ العميقةْ
لو كنتَ تعرفُ أيَّ شيءٍ فيه لم تمددْ له كفاً غريقةْ

. . . .

أتجوعُ يوماً، كي ترى عيناك حرفاً في كتابْ؟

*

البصرة، ٣٠/ ٣/ ١٩٦٠

«حادث» يومي

شارعُه يُقفرُ في العاشرةْ
والنصفِ . . .
والليمونةُ الساهرةْ
في آخرِ المنعطفْ
وحيدةٌ، غامضةُ اللونِ، لياليها بلا أوراقْ
وحينما تلمحهُ النجومُ بعدَ الساعةِ العاشرةْ
تلتمعُ الفضةُ في ليمونةٍ غامضةِ الأوراقْ
ويهمسُ الشارعُ بالخطوِ . . . وترنو قطةٌ ماكرةْ

* * *

يا سيداتي . . . سادتي . . . في نشرةِ الأخبارْ :
● مؤتمر الأقطابِ لن يُعقدَ في نيسانْ .
● يحاكَمُ غليزوسُ في اليونانْ .
● مقتلُ عشرينَ من الطلابِ في ماسانْ .
إلخ . . . إلخ . . . إلخ

* * *

يا سيداتي، يا سادتي، وكالةُ الأنباءْ
من شارعٍ في ليلِ بغدادَ تحيّيكم . . . هنا الأنباءْ :

. . . .

محمدٌ يعرفُ أنَّ الساعةَ العاشرةْ
والنصفَ . . .
تعني دربَهُ والبيتَ والليمونةَ الساهرة
والنجمَ والفضةْ
وهكذا . . .
كان على الدربِ وفي أعماقهِ أغنيةٌ غضّةْ
ناعمةٌ كالنجمِ، كالليمونِ، كالفضةْ
لكننا، يا سيداتي، سادتي، نختصرُ الأنباءْ
محمدٌ . . . ماتَ مع الظلماءْ
ممزقَ الأحشاءْ
خناجرٌ أربعةٌ كانتْ مع الظلماءْ
تنتظرُ الأنجمَ والليمونَ والفضةْ
تنتظرُ الأغنيةَ الغضةْ

* * *

معذرةً، يا سيداتي، سادتي . . . لهذه الأنباءْ!

*

بغداد، ١٨/ ٤/ ١٩٦٠

ثلاثة جنود

«في الساعات المبكرة من صباح ١٤ تموز ١٩٥٨ ، الجنود يسيرون إلى بغداد»

البنت : في شحوبِ المساءْ
تطلُّ عليّ النجومْ
مضرجةٌ بالدماءْ
ويخفتُ في الأرضِ حتى البكاءْ

الأب : هنا لا يرانا المطرْ
ولا يومضُ البرقُ بين الشجرْ
وحينَ أتانا الربيعْ
تيبَّسَ حتى احتضرْ

الحنطة : سنابلْ
سنابلْ
سنابلْ
وأنتم تموتون جوعا

الجندي الأول : سريعاً . . . سريعاً

الريح : آ . . . آ . . . آ . . . ه . . . آ . . . آآ . . . ه

* * *

الزوجة: رأيناه أمسِ قتيلا
على جدولٍ من دمِ
وفي وجههِ الأزرقِ المعتمِ
شممتُ الرصاصْ
الرفيق: لقد كنتُ أسمعِ صوتَكْ
لقد كنتُ أسمعُ صوتَكْ
الشارع: بصدري تلقيتهُ
وفي القلب قبَّلتهُ
لقد ظلَّ يهتفُ حتى المماتْ
لقد ظلَّ ينزِفُ حتى المماتْ
وحيدا
الجندي الثاني: سنمضي... سنمضي
الريح: إليـ... يـ... يـ.... ه.... إليـ... يـ...
يـ... ه.

* * *

الحبيبة: إذا رفرفَ الفجرُ في المنزلِ
بلون الهوى الأولِ
مضيتُ أدق البيوتْ
أنادي... أنادي: غسيلْ
غسيلْ...
الكتاب: أهالوا عليَّ الترابْ
وفي قبريَ الرطبِ، في زاويةْ

تموتُ الحروفْ

وتشحبُ، تشحبُ ألوانيهْ

الجندي الثالث: معاً يا رفيقَ السلاحْ

الريح: رفيقَ السلا . . . أ . . . أ . . . أحْ

بغداد، ١٩٥٩

سر

الظهرَ كنتَ أمامَ غرفتها. . .
لقد يبستْ يداكْ
في لحظةٍ، فبقيتَ عند البابِ، ثم خطوتَ خطوةْ
ودخلتَ غرفتَها:
وِسادتُها هناكْ
وكتابُها. . . وحزامُها الفضيُّ مهملْ
وبقيةٌ من عطرها، وجريدةٌ قد عانقتْها الأرضْ
إن الستائرَ لم تكنْ مخملْ
وفراشُها الثلجيُّ حتى صمتُه يسألْ
عن هُدْبها المسبلْ
فكّرتَ. . . لو كانت هنا، لو أُغمضتْ عيناكْ
في ليلةٍ معها
في صمتِ غرفتها
تغفو أناملُها هنا
ترتاحُ خصلتُها هناكْ
وتظل تحلم أنتَ بالجدولْ. . .
. . . .
يا فاضحاً أسرارَ غرفتها: ألا تخجلْ؟

بغداد، ٣٠/ ٤/ ١٩٦٠

القتلى يسيرون ليلاً

في الليلِ، يستيقظُ القتلى
عيونهمو البيضاءُ، واسعةٌ مفتوحةٌ أبدا
وفي المدينةِ حتى في أزقتها
يمشون، أكفانُهم لا تستر الجسدا
همو يسيرون، والأفواهُ مزرعةٌ
من الرصاص، تغني، والدروبُ صدى
وحين يرتجفُ الأطفالُ، نسمعُهم
صوتاً لغيرِ الأسى الوحشيّ ما وُلدا
صوتاً يدق على الأبوابِ. . . محترقاً
كطائرٍ عبر وادي الموتِ قد وردا
أيارُ مرَّ. . . وفي أمواج رايتهِ
دمٌ سيوقظ من تنويمةٍ بلدا

بغداد، ٢/٩/١٩٦٠

من «باب الشيخ»

١ ـ المساء

بيوتُ بابِ الشيخِ حين يزهر المساءْ
تخبو، كما تخبو بحيراتُ الندى في الماءْ
ويشربُ الليلُ جداولاً سوداءْ
رائحةُ الصابونِ فيها، والأسى، والداءْ
بيوتُ بابِ الشيخْ
مدينةٌ منسيةٌ، في عالمٍ وضّاءْ
سفينةٌ في الوحلْ. . .
حديقةٌ شوكيةٌ أزهارُها صفراءْ

٢ ـ التوت

كانت تحب التوتَ، تبكي حينما ينساهْ
يوماً، فلا تحمل منه سلةً كفاهْ
وعندما تلمح عيناها وراءَ البابْ
سلتَهُ الخوصَ، يغنّي جدولٌ، يهمس عصفورٌ على الأعشابْ
وتخفق القريةْ
في لحظةٍ. . . في سلةٍ بالبابْ
وبغتةً، تخضرُّ بابُ الشيخْ

٣ ـ دوندرمة

خضراءُ، أو صفراءُ، أو حمراءْ
سكّرةٌ ذائبةٌ في الثلجِ. . . برتقالةٌ في الماءْ
لو ملأ الكوبَ بها، لو ذاقها مرةْ. . .
لكنَّ «أمَّ حسينْ»
لم تعطهِ بالدَّينْ
وظلَّتِ الحمّى
تأكلهُ مشتعلَ العينينْ
كان طريحاً وحدَه تأكلُه الحمّى
وهمسةُ اللافحُ: أمّ حسين! أمّ حسين! أمّ حسينْ

بغداد، ١٢/ ٥/ ١٩٦٠

إلى عامل في الميناء

صديقَ الأغاني والبحارِ... صديقَنا
مضينا معاً، حتى عرفتَ طريقَنا
ربيعاً وإيمانا
وحباً ونيرانا
لقد وهبَ الإنسانُ للأرض موعدا
وقلتَ: سيأتيها... فصرتَ رفيقَنا

* * *

عرفناك لم تمددْ لأعدائنا يدا
وكنتَ بنا برّاً، كأغنيةِ الندى
سهرتَ ليالينا
هويتَ أغانينا
ولم ترتجفْ منك الخطى حين أظلمتْ
بحارٌ... فإنّ الأرضَ ترقبُ مولدا

* * *

محيّاكَ في ليلِ الجنوبِ ضياءُ
ومرفأُ راياتٍ به ورجاءُ
فيا بذرةً منا

يا زهرةً منا
رفاقُكَ في الميناء ألفُ حديقةٍ
فيا بؤسَ ما يستنبطُ «الأمناءُ»!

بغداد، ٣٠/ ٥/ ١٩٦٠
الساعة ١٢ ظهراً

تطلع

يا خضرةَ الليمونْ
يا مطراً أزرقَ، في الليلِ أناديهِ
أسألُه طعمَ لياليهِ
يا خضرةَ الليمونْ
عينايَ في التيهِ!

***

كفاك ما طوّفتَ. . . إن البحارْ
لم يبقَ فيها ستارْ
تزيحهُ عيناك، حتى القمرْ
يسألُ: أين القمرْ؟
يا خضرةَ الليمونْ
هَبي فؤادي قطرةً من مطرْ
أزرقَ، في الليل أناديهِ
أسألهُ سرَّ لياليهِ
يا خضرةَ الليمونْ
قلبيَ في التيهِ!

***

أمسِ سألتُ النجمَ... إن النجومْ
بعيدةٌ عني
وأنتِ يا نهراً من الليمونْ
قريبةٌ مني
أمسُ أغصانَكِ... أبكي على شيءٍ فقدناهُ
لولاهُ... لولا هذه الآهُ
لكان حتى الفجرُ لا يحمل البشرى، ولا تُزهرُ عيناهُ
يا خضرةَ الليمونْ
هَبي دمي الصدقَ، هبيني كيف أحياهُ
أكاد في الإيمان أنساهُ
وأنتِ لي يا خضرةَ الليمونْ
أواهُ... لو تدرينَ... أواهُ؟

بغداد، ٥/ ٧/ ١٩٦٠

سليمان

أكادُ أُغضي حياءً حين أنساهُ
كأنّ عينيَّ عند الصمتِ عيناهُ
هذا محيّاهُ
البحرُ أحرقهُ، والملحُ مزّقَهُ
لكنّ بسمتَهُ ما فارقتْ فاهُ
نجماً يُضيءُ بليلِ البحرِ دنياهُ
قد كنتُ ألقاهُ
والملحُ ما زال في أحداقِه مطراً
مُرّاً، وما زال في الأهدابِ مجراهُ
ولم تزلْ في القلوعِ الغبرِ أغنيةٌ
ما كان أفقرَها صوتاً، وأغناهُ
هذا الذي لم تعانقْ قلبَهُ الآهُ
هذا الذي كلُّ ما في البحر يهواهُ
يوماً، ويكرهُه يوماً... فيأباهُ
لكنّه أبداً... للبحرِ عيناهُ!

بغداد، ٢٣/ ٧/ ١٩٦٠

وطني

وطني! كأنَّ الحرفَ يهمسُ باسمكَ الغالي ويزأرْ
ما مَنْبِتَ الراياتِ، يا أفقاً على الراياتِ أخضرْ
يا موكباً أعلى وأغلى من مواكبنا وأكبرْ
مجدُ الطلائعِ أن تراكَ طليعةً وحقولَ عنبرْ

❋ ❋ ❋

وطني! ركزنا القلبَ دونَكَ أنتَ يا ماءً ووردا
يا بيتَ أحبابي ويا صحراء نلمسُها فتندى
يا قمةً خضراءَ تلبس في الثلوج البردَ بُردا
سنظلُّ نمنحكَ الوفاءَ المحضَ أغنيةً ووقدا

❋ ❋ ❋

وطني! ونهرُ الشمسِ يغسلُ كلَّ بيتٍ، كلَّ شارعْ
والشرقُ تنتفضُ الحياةُ لديه راكضةَ المنابعْ
أبداً ستبقى مجدَ أغنيةٍ مدويةِ المقاطعْ
يا مولدَ التاريخِ، يا نجماً عريقَ النورِ رائعْ

❋ ❋ ❋

وطني! إذا ما الليلُ أظلمَ، وأدلهمَّ الأفقُ يوما
فالشعبُ يعرفُ كيفَ يزهرُ في الليالي السودِ نجما

شعبي... لكَ الآفاقُ واسعةً، لك الإصرارُ شهما
راياتُنا خفقتْ... فأيةُ خفقةٍ أسنى واسمى!

❊ ❊ ❊

وطني! خضبْنا الأرضَ باسمكَ حين نادتْنا السماءُ
فعلى جباهِ الثائرينَ نجومُ صوتِكَ والفداءَ
إنا سنبقى واللواءُ الطلْقُ يقْدمه اللواءُ
فلتزدهرْ أبداً نجومُكَ... أيها الأرضُ ـ السماءُ!

بغداد، ١٤/٨/١٩٦٠

إلى عبد الرحمن خليفة

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ، أين نمضي؟ أين نمضي؟
إن لم نمدَّ إلى المضرّجِ صرخةً من كل أرضِ؟

* * *

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ، يا رفيقي
إني لأشربُ منكَ حتى الحزَّ في العنقِ الغريقِ
وأظل ألثمهُ وأصرخُ: يا حضارتَنا استفيقي
يا رايةَ الإنسانِ هبِّي
إنا وهبناكِ الوفاءَ، فهل رددتِ وفاءَ شعبي؟
يا رايةَ الإنسانِ هُبِّي. . .
إن الدمَ المسفوحَ في سجنٍ هناكَ يصيحُ: هُبِّي!

* * *

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ. . . أين صوتي؟
إن لم يبلّغْهُ الحياةَ فدعْهُ حشرجةً لموتي
إن لم يشقَّ النجمَ محترقاً فلا خَطّتْ يدايْ
حرفاً، ولا انطلقتْ لمأثرةٍ خطايْ
وليندثرْ بالعار بيتي!
أخليفةُ الملقى على الإسفلتِ في سجنٍ هناكْ

متدفقَ الدمِ، أسودَ الشفتينِ، مزرقَّ المفاصلْ:
لكأنَّ وجهَ الأرضِ أعمى
أخليفةُ الملقى على الإسفلتِ، يا شرفَ المناضلْ:
صوتي هناك مضرّجٌ أبداً، يضجُّ على السلاسلْ
عنقي هناك ممزقٌ في السجن، تحرقه المقاصلْ
فولاذُها الكابي ـ يشقّ اللحمَ ـ أعمى
لكنني أبداً أقاتلْ
والفجرُ يفتحُ مقلتيَّ... على المنازلْ
والبحرِ، والأرضِ الغريقةِ بالسنابلْ.
أخليفةُ العربيُّ، في وهرانَ تنفجرُ المشاعلْ
فليندفعْ دمُكَ النبيُّ، نذيرَ مقتولٍ لقاتلْ
ولتنفجرْ في الأرضِ أجمعِها المشاعلْ!

* * *

لكَ أنتَ وحدَكَ أن تحدثَني... فليس سوى الحياةْ
والموتِ، من لُقيا.
لكَ أنتَ وحدَكَ أن تقولْ
فلْتصمتِ الدنيا.
فلْتصمتِ الدنيا
فلْتصمتِ الدنيا.
....
....
فلْتصرخِ الدنيا!

بغداد، ١٩/٨/ ١٩٦٠

الأرض الأخرى

كنا معاً في الصمتِ. . . أهدابُنا   تغرقُ في العتمة
كنا وحيدينِ، نخافُ السماءْ   أن توقظَ النجمةْ
والأرضَ. . . أن تهمسَ في أعشابها النسمةْ

❋ ❋ ❋

يا بُحّةَ الصمتِ، ويا قُدْسَهُ   هبي لنا قطرةْ
وخبزةً منكِ، وبعضَ الذهولْ
ومِيتةً في أرضكِ الأخرى
حيث يغورُ الصوتُ مثلَ الجذورِ   ويُزهر الصمتُ
حيث يعيش الحبُّ والموتُ
وحيث تذوي في البحارِ النجومْ
وتخفقُ العتمةْ
مدينةً ما مرَّ فيها الزمانْ.
يا زهرةً للصمتِ والعنفوانْ
في عالمٍ يصخبْ
في عالمٍ متعبْ
نحن وحيدانِ. . . وأهدابُنا   تغرقُ في الحزنِ
كالليل في البحر، كخطٍّ شريدْ   في لجة اللونِ

يا زهرةً للصمتِ والحزنِ
نحن وحيدانِ أمامَ الشموسْ   نحن وحيدانِ
مَزّقَ عينينا العذابُ العظيمْ
يا زهرةً للعالم الثاني!

بغداد، ٢٥/ ٩/ ١٩٦٠

المهاجر

غصنٌ من الأحزانِ في شفتيكَ، يا طيراً مهاجرْ
كلُّ البحارِ لديكَ ملحٌ... كلُّ ما في الأرض عابرْ
يا أيها الطيرُ المهاجرْ
إنا نحبُّ البحرَ، والأرضَ النبيةَ، والغدائرْ
ونودُّ أن نمضي إلى مدنٍ غريبةْ
ثلجيةِ الطرقاتِ، مزهرةِ الأغاني والمنائرْ
أبوابُها صَدَفٌ، وعتمتُها ضفائرْ
مدنٍ من البلّورِ تجري في منازلها المعاصرْ

❊ ❊ ❊

يا أيها الطيرُ المهاجرْ
أتظنّ أن البحرَ والآفاقَ والحلمَ المغامرْ
ومدائنَ البلّورِ... يجهلُها سواكْ؟
أتظننا نحن الذين نشقّ في حُمّى الخنادقْ
درباً إلى شيرازَ، نخشى أن «نغامرْ»؟
إنا لنحلم بالأغاني والمعاصرْ
ومدائنِ البلّورِ...
لكنْ...

لن نهاجرْ!
إنا سنبقى في الخنادقْ
حرساً أمامياً... سنحلم في الخنادقْ
وعلى مَفارقنا نجومُ ظهيرةٍ، وسماءُ شاعرْ
ولتسقطِ الثوريةُ الشماءُ إن لم تشتعل خطواتِ ثائرْ!

***

سنظل في بغدادَ نُطعمها البشائرْ
وضراوةَ الإصرارِ والعملَ المثابرْ
يوماً فيوماً...
و«لتعلّقْ» أنتَ...
يا طيراً مهاجرْ!

ديوان ٥١ قصيدة

(١٩٥٩)

من أجل أن تعيش جمهورية العراق

إننا لا نرهبُ الموتَ. ولكنْ، يا جميعَ الشرفاءْ
يا جميعَ الأصدقاءْ..
ارفعوا أصواتكم من أجلِ شعبي
إننا نطلبُ من أعماقكم صيحةَ حبِ
ورصاصةْ...
إننا نصرخُ كالبحرِ بوجهِ القاهرةْ:
أيها الوجهُ الذي ينبضُ حقدا
ومحبةْ
إننا ندعوكَ من أجلِ العراقْ
إننا ندعوكَ يا قلباً لشاعرْ
وذراعاً كادحاً في مزرعةْ
وعلى الأحرفِ مجدَ المطبعةْ
إننا ندعوكَ من أجلِ العراقْ
أنتَ يا جندينا المجهولَ في ليلِ الجزائرْ
يا جميعَ الأصدقاءْ
يا جميعَ الشرفاءْ
أرفعوا أصواتكم من أجل شعبي

إن أيدي المجرمين القتلةْ
مثلَ آلافِ الأفاعي
زحفتْ تشحذُ للثورةِ حدَّ المقصلةْ
فاصرخوا بالقتلةْ
اصرخوا بالقتلةْ

القاهرة، ٢٠/ ٧/ ١٩٥٨

الوطن الصغير

وليكنْ!

إن أغانيها عنيفةْ

كلها تسعى وراء الجوع، سوداءَ، مخيفةْ

يا محمدْ!

إنها الأرضُ التي نحيا عليها

ونموتُ

والتي ما زال من أجدادنا فيها بيوتُ

أرضُنا الرطبةُ، حيث الألمُ

والجداولْ

حيث لا نأكلُ أزهارَ السنابلْ

فلمن نحن نغني؟

أعرفنا غيرَها؟

أوَلم نأكلْ جذورَ العشبِ فيها..؟

كم قطفْنا زهرَها...

وغسلْنا تمرَها...

أوَ ما كانت على وجه أبي

لمحةٌ من لونها

إنه مات وعيناه عليها
إنه مات عليها
مثلَ طيرٍ متعبٍ عاد إليها
. . . .
. . . .
وطني. . .
أيتها الأرضُ الصغيرةْ
أنتِ يا بحرَ النخيلْ
لكِ يا أرض أصلي
وأقاتلْ

البصرة، ١٩٥٦

توسل

يا موطني. . . يا مُبدعَ الإنسانْ
يا بِرْكةً ينبعُ منها الجانْ
والخبزُ. . .
هَبني البصرْ
إني سئمتُ النظرْ
إليكَ عبرَ النظرْ
يا ربِّ. . .
هَبني البصرْ
اكشفْ ليَ الينبوعْ
دعني أحسّ الجوعْ
وأكتوي بالألمْ
يا ربِّ. . . هَبني الألمْ
مستنقعاً أو قممْ
مزّقْ شفاهَ الشفاهْ
أحسّ طعمَ الحياهْ
حليبَ أمي ورذاذَ المطرْ
هل يعرف المشنوقْ

في ساحةٍ ـ في سوقْ
في لحظةٍ بين الدجى والضياءْ
هل يعرفُ الأسماءْ
اسمكَ يا موطني
اسميَ يا موطني!

شيء عن المسألة

إنني قد أحلمُ الآنَ بشبّاكٍ صغيرِ
يفضحُ الوردُ حكاياتِ عبيرِ
حولهُ. . .
حلْمٌ بشبّاكٍ صغيرِ
وبمنديلٍ حريرِ
وعل نافذةٍ يغفو قمرْ
يا صديقي. .
لا تقل: «أصبحتَ. . . !»
تهدمْ ذراعا
عن دروبِ الفجر ـ لا تطفئْ شعاعا
إنني قد أحلمُ الآن بشبّاكِ القمرْ
وبآلامكِ البشرْ
إنني قد أحلمُ الآنَ بحبي
وبشعبي
غيرَ أن المسألةْ
أن ترى من يمنح الحلمَ دما
يا صديقي. . .

يا صديق المسألةْ
إننا نمنحُ للحلم دما
ونضيءُ القمما
ولهذا دخل السجنَ «رجاءْ»
إننا نبني من الأرضِ سماءْ

البصرة، ١٩٥٧

نحن

انـنا أقوى من الموت لنا دفءُ الدماءْ
والغدُ الأحمرُ والدنيا لنا
سننادي أرضَنا
أرضَنا والسوسنا
إننا أقوى من الموت سقينا أرضَنا
وزرعناها فكانت غُصُنا
وحماماتٍ وسلْماً أخضرا
نحن من إخواننا القتلى صنعنا أفقنا
وعرفنا دربنا
فإذا ما شئتَ مزقْ صدرَنا
لن ترى إلا السنى
والمنى
والموطنا
إننا أقوى من الموت فتحنا قلبنا
لجميع الناس حتى عادتِ الأرضُ لنا
وردةً من دمنا

البصرة، ١٩٥٤

إلى شوقي بغدادي

الليلُ يزحفُ في دمشقَ، وأنتَ تُغمضُ مقلتيكْ
في غرفةٍ بالسجنِ، باردةٍ كئيبةْ
والحزنُ يلسعُ قلبَ خائفةٍ عليكْ
في غرفةٍ أخرى على بردى حبيبةْ
شوقي، مع النيران أنتَ، وما خبتْ يوماً لديكْ
شوقي... مع الشعبِ المطارَدِ أنتَ، في وهَجِ الطليعةْ
في القلب يا شوقي العزيزْ...
فلتصرخِ الضرباتُ في الليل الشتائيّ الغريقْ
وليكذبِ العملاءُ.... وليصفوك ما شاؤوا جزافا
ولتنطلقْ خطواتُهم سوداءَ معتمةَ البريقْ
وليشربوا بردى، فإنكَ أنتَ أعلمُ بالحريقْ!
شوقي... لقد غنيتَ للحب المورّدِ والحياهْ
شوقي... لقد غنيتَ من أجْلِ العراقْ
متحرراً...
لكنهم وضعوك يا شوقي هناكْ
في غرفةٍ بالسجنِ باردةٍ كئيبةْ
العارُ يا شوقي لمن سجنوكَ... يا أفقاً طليقا

يا منشداً للشعب أغنيةً، وللدنيا طريقا
أنا من هنا، من بيتيَ النائي أشدُّ على يديكْ
وأراكَ تغمض مقلتيكْ
في غرفةٍ أخرى على بردى حبيبةْ!

١٩٥٩

إرفعوا أيديكم عن سعيد حورانية

ارفعوا أيديَكمْ عنه ارفعوها
ارفعوها
هذه الأيدي المدماةَ اللئيمةْ
التي تأكل حتى في الجريمةُ
ارفعوها
إنها تغلقُ عن أحداقِهِ ضوءَ البحارِ
ويواري ظلُّها المجرمُ ألوانَ النهار
انها تسلبه خبزَ الحقيقةْ
أيها الفاشستُ، لكنَّ الحقيقةْ
أبداً تبقى على الوجه الدمشقيّ نداءا
ضارياً يصرخُ بالناس رجالاً ونساءا
فتلهبِّي يا رياحَ الصدقِ. . . هبِّي
ابذري أنشودةً في كل دربِ
واصرخي من أجله في كلِّ شعبِ
وارفعي وسطَ الأكاذيبِ لواءَ المعركةْ
ولتهبَّ العاصفةْ
انهم قد زرعوا الريحَ. . . وأنتِ العاصفةْ!

١٩٥٩

الكويت

الزيتُ في الأسواقْ
والبحرُ في الشارعْ
بحرٌ بلا أعماقْ
والناسُ قد يقرأون
لكنَّ كلَّ الناسِ لا يكتبونْ
والبحرُ في الشارعْ
يخوضُ في الأوراقْ
أمواجُه تجهلُ حتى رملَها المحتقرِ
هوادجَ الفولاذِ والمطّاطْ
أمواجُه تجهل حتى رملَها المحتضرْ
. . . .
والزيتُ في الأسواقْ
زيتٌ بلا خبزٍ ولا خمرةْ
لكننا نشرب منه قطرةً مُرةْ
وقطرةً قطرةْ
نسيلُ في الشارعْ
البحرُ في الشارعْ

البحرُ يمتصنا
يمتصُّ منا الكتابْ
يمتصُّ حقدَ الناسْ
يمتص حقدي قطرةً قطرةْ
البحرُ مثل السرابْ
ندفنُ في عتمتهِ أرضاً بلا موتى
لأن في قمصاننا القطنيةِ البيضاءْ
أوراقَنا مطبوعةً زرقاءْ:
أوراقَنا الموتى
يا حقدَنا الغالي الذي لا يموتْ
افتحْ لنا الأبوابْ
اصرخْ بكل البيوتْ
ولمنشِ في الشارعْ
ولنمشِ نحو البحرْ
في الأفق المغبرّ
لننقذَ الأرضَ التي قد تموتْ

الكويت، ١٠/١٢/١٩٥٧

أرض زهران

يا قطاراً عربيَّ الشمسِ يجتاح المدينةْ
خلّني أمضي معكْ
ولأقلْ: ما أسرعَكْ
يا قطاراً صائحاً في كل بيتْ:
إنني من أرضِ زهرانٍ أتيتْ،
إن لي في أرضِ زهران خنادقْ
وقلوباً وبنادقْ
وبقايا من محمّدْ
الإلهِ الجائعِ المدفونِ في أرض الحرائقْ
حيث لم تعبّر سفينةْ
أبداً إلا على صدرِ محمدْ
حيث يستشهدُ زهرانُ الفتى خمسينَ مرةْ
كلما مرتْ سفينةْ
انطلقْ بي يا قطارَ العربِ
نحو أرضٍ لونُها وجهُ أبي
إن آلافَ المناديلِ تناديني إليها
ومن الأعماقِ تدعوني ابتسامةْ

وأناشيدُ وصوتٌ من أبي
يا قطارَ العربِ
ألقِني في الزوبعةْ
صارخاً بين الجموعِ المفزعةْ
حاملاً قلبي المناديلَ وكفِّي البندقيةْ
ولأمتْ حين تعيشُ الأغنياتُ العربيةْ
إنني قاتلتُ من أجلِ هواها
ولقد مرّغتُ وجهي في ثراها

البصرة، ١٩٥٦

طريق إلى قسطنطينة

أنا لستُ أملكُ بندقيةْ
لكنهم لو يسمحون هنا لأسرعنا إليك
ولبعتُ أوراقي ومكتبتي وجئتُ ببندقية
ولكنتُ جندياً لديك
أمضي،
وأُقتَلُ في المدينةْ
من أجلِ أطفالِ المدينةْ
ولنسمةٍ من برشلونةْ
ولوجهكِ العربيِّ يا ضوءَ الشمالْ
قلبي يرفُّ على سفينةْ
والنخلُ تنفضُ سعفَهُ ريحُ الشمالْ
وهناك في الآفاقِ تلتمعُ المدينةْ
ويموتُ في أعماقها حبي. . .
وتُنسَفُ برشلونةْ
خذني إليها يا شمالْ
أأظلُّ بين النخلِ والأنهارِ أعمى لا أراها
وأموتُ في أرضٍ سواها؟

أعبرْ بيَ الدنيا إليها
أنا هاربٌ وحدي إليها
قلبي يدقُّ لها: تحيةْ!
وعلى ذراعي بندقيةْ

البصرة، ١٩٥٦

إلى أحد الجزائريين الخمسة

الملحُ في البحرِ
والزيتُ في الزيتونْ
والخبزُ في القمحِ
وأنتَ في قلبي
قد زرتَ بيتي هذه المرةْ
وكنتَ في الأسرةْ
حدثْتَنا عن بيتكَ المسروقْ
عن شاعرٍ في السوقْ
عن أمةٍ لا تموتْ
وعاملٍ مشنوقْ
يا زائرَ البيتِ
لا أستطيعُ اليومَ أن أتبعَكْ
لكنني أقدرُ أن أسمعَكْ
في هبّة الناسِ
خمسةَ أجراسِ
تشعل آلافَ الشعاراتِ
خمسَ رصاصاتِ

خمسةَ أبوابٍ لنا تَفتحُ
درباً إلى وهرانْ
درباً إلى ما يبدعُ الإنسانْ
للملحِ والزيتونْ
والخبزِ والحبِّ
يا طيبةَ الشعبِ
يا قسوةَ البغضاءْ
يا غُصنَ الزيتونةِ الحمراءْ
انظرْ إلى شعبي
ليمونةً يمتصُّها المخبرونْ
ملعونةً صفراءْ
لكنها تحلمُ
أحلامَكَ الخضراءْ
من أجل هذا نغلقُ الأبوابْ
لنفتحَ الأبوابْ
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
اضرابْ

١٩٥٦

إلى فريتز شولتز

معسكر أوشويتز للاعتقال

عيناكَ جامدتانِ في عينيّ. . . لا تتألقانْ
إلا برعبٍ يعتريني
إلا بومضِ الموت يسقي زهرتينِ من الفظاعةْ
عيناكَ ظامئتان حتى للوداعةْ
وكأنما الفزعُ الأليمُ بمقلتيكْ
يومَ ارتقابكَ ساعةَ الإعدامِ يجري في فؤادي
فيهزّ أعماقي إليكْ
إني لأرقبُ مقلتيك
كالرعب واسعتينِ. . . كالدنيا، فأغرق في مياه
سوداء مظلمةٍ حقيقتُها لديكْ
يا مقلتينِ بلا أسى، يا نظرتين بلا انتباهْ
أوَلم تجدْ يوماً صديقاً
فعرفتَ كيف يحبُّ إنسانٌ أخاهْ؟
اليوم إقبلْني صديقا
فلربما حدثتَني عما تحبُّ

ولربما مرتْ من الذكرى سحابةْ
فوددتَ لو حدثْتَني
عن بيتكَ المهدومِ عن كتبٍ مخبأةٍ وغابةْ
فتحتْ ذراعيها وضَمَّتْ عاشقينْ
لكنْ ستصمتُ يا صديقي
فالحبلُ لم يتركْ على شفتيكَ إلا قطعتين من الرمادْ
. . . .

. . . .
إني سأصرخ يا صديقي
عن لحمكَ المزرقِّ. . . عن حزٍّ عميقِ
في عنقكَ الملقى على ريحِ الشتاءْ
عن صوتكَ المخنوقِ والكتبِ الخبيئةْ
يا أرضَ كاتوفيسَ، يا كتباً خبيئةْ
يا غابةً أعشابُها حمراءُ، يا دنيا دفيئةْ
الشمسُ تشرق مرةً أخرى عليكْ
والنورُ يغسلُ كلَ شيءْ
حتى دروبَ الموتِ في أوشويتزَ حتى المِحرقاتْ
اليومَ ترتفع الحياةْ
كقلاعِ بولندا ملوَّحةً مدارجُها عصيبةْ
لكنها ـ كقلاع بولندا ـ حبيبةْ
أما إذا أخفيتِ عن أطفالِ فارسوفيا صديقي
أما إذا أبقيتِ في أحداقه الفزعَ الأليمْ

أما إذا صافحتِ جلاديه يوماً
تركتِ للعملاء أن يطأوا صديقي
ويمرغوه على كنائسَ من حميمْ
ويمزقوا عينيه حقدا
فلسوف أوقظهُ، سنوقظُه جميعا
سنلمُّ من بين المحارقِ والترابْ من آلافِ آلافِ العظامْ
كلماتِهِ وعظامَهُ الغضبى، ليوقدَ في الضبابْ،
في السمِّ، مشعلَهُ، ويحملَ بندقيةْ
معنا. . . مع الدنيا جميعا

دمشق، ٢٦/ ٩/ ١٩٥٧

أربع أغنيات إلى صوفيا

إني أتيتُ إليكِ يا بيتي. . . أتيتُ بلا نجومْ
إلا نجومَكِ أنتِ يا صوفيا وإلا أغنياتي
إني قطعتُ مع النجومْ
درباً حديدياً ترقرقَ في حياتي
درباً من العتماتِ والجوعِ الأليمْ
لكنه كالنور يومضُ في حياتي
إن كان يوصلني إليكْ
إن كان يتركُ قلبيَ المضنى رضيعاً في يديكْ
يا نهرُ. . . يا درباً إلى صوفيا. . . تألقْ في حياتي
بالأمس أطفأتُ الفوانيسَ العتيقةْ
ومضيتُ نحو عوالمٍ ملأى وألوانٍ صديقةْ
بالأمسِ لم أتركْ على الشبّاكِ إلا ذكرياتي
زرقاءَ مظلمةً غريقةْ
أعماقُها حقدُ السياطِ ووجهُها ألمُ الخليقةْ
بالأمس لم أحفرْ على قلبي سوى نارِ العراقْ
واليومَ جئتُ إليكِ يا صوفيا العريقةْ

نجمانِ في قلبي: هواكِ، وكلُّ نيرانِ العراقْ
الناسُ في وطني المعذَّبِ يرقدونَ بلا بيوتْ
أبوابُهم مفتوحةٌ للريحِ... للمطرِ الصَّموتْ
واليومَ أرقدُ يا صديقة
في غرفةٍ بيضاءَ ناعمةٍ أنيقةْ
الماءُ والأزهارُ فيها
والدفءُ والخشبُ الصقيلْ
يا أيها الشعبُ النبيلْ
سأظلُّ أذكرُ منكَ نافذةً وأزهاراً وحبا
سأظلُّ أذكرُ كلَّ شيءْ
لكن شعبي أيها الوطنُ النبيلْ
ملقىً على المستنقعاتْ
ملقىً على جوعِ الصحارى
عيناه من مِزَقٍ ولكنْ نحو شمسِكَ تنظرانْ
يا موطنَ العمالِ يا وشمَ الكفاحْ
يا موعداً للحبِّ...
عمالُ العراقْ
هم في انتظارك منبعاً للفجرِ واليدِ والسلاحْ
لو كنتُ أجهلُ كلَّ أغنيةٍ سواكِ لما أسفتُ
لحنٌ إلى صوفيا وبعدكِ يا صباحُ ليأتِ صمتُ
لو كنتُ أقدرُ أن أغني

كلَّ الأحبةِ في بيوتكِ في شوارعكِ الجميلةْ
لبنيتُ فوق الشمس مجدي
لكنْ ستنتظر النجومُ بقلب سعدي
يوماً تزركشُ فيه فيتوشا فتبلغ كلَّ حدِّ

صوفيا، ١٩٥٧

يوميات السفينة جروزيا

١ ـ أيها الصاري، ٢٢ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

أنا في انتظارِ مدينةٍ بيضاءَ يا صاري السفينةْ
أسرعْ . . .
ففي الآفاقِ تلتمعُ المدينةْ
والنورُ في قلبي وعينايَ انتظارْ
الريحُ تصرخ والبحارْ :
أسرعْ . . . .
وكلُّ الأغنياتْ
أسرعْ . . .
فعندي موعدٌ أنا والحياةْ

٢ ـ أغنية للبحارة السوفييت، ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

في الليلِ أضواءُ النجومْ
زرقاءُ خافتةٌ وأنتم تنشدونْ
والبحرُ أهدأُ ما يكونْ
والقلبُ أصفى ما يكونْ
يا إخوتي . . . غنوا معي شيئاً عن الأنهارْ

فالماءُ في الفولجا يلونهُ النهارْ
والماء في وطني يهيم بلا شموس أو نجوم

٣ ـ أقاصيص روسيه، ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

في يوميَ الثاني رأيتُ الأصدقاءْ
كنا معاً في البحرِ يجمعنا كتابْ
في غرفةٍ مسدودةٍ مفتوحةِ الأبوابْ
كانوا وراءَ الحرفِ ينتظرون زائرهُم طويلا
إيفان بافلوفيتش والتتريُّ والرجلُ الصغيرْ
ما أروعَ الإنسانَ يفتح قلبَهُ حرفُ الكتابْ!

٤ ـ فلاديمير إيليتش لينين، ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

كم يحلمُ العمالُ في وهجِ العراقْ
ببلادِكَ السمحاءِ مزهرةً توشّحُها السكينةْ
واليومَ أنتَ هنا على خشبِ السفينةْ
متألقُ العينينِ. . .
تعطيني يديكْ
ونسير في الريحِ الرذاذيّ الغزيرْ
جنباً إلى جنبٍ. . .
وندخلُ في المدينةْ

٥ ـ أسطنبول، ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

ماذا سأحملُ منكِ نحوَ المهرجانْ؟

يا صخرةً بُنيتْ على قلبي. . . على قلبِ العراقْ. . .
ماذا سأذكرُ يا جميلةْ
يا زهرةَ الأحزانِ عنكِ
والناسُ إن سألوا فهل بيديَّ حيلةْ!
سأقول: إنكِ يا جميلةْ
لم تعرفي دفءَ الشموسِ ولم تردي الليلَ عنكِ

٦ ـ الأناشيد، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

«يا عزةَ الشهداءِ. . .». . .

أقسمْنا نقاتلْ

من أجلِ وجهِكَ أيها الصوتُ العميقْ
من أجلِ بحّارٍ صديقْ
من أجل أغنيةٍ صغيرةْ
ولأجل موطنيَ السجينِ وبيتيَ العاري
يا أيها لاصتُ العميقْ
كنْ صيحةً للثأرِ في أعماقِ ثوارِ!

٧ ـ البحر الأسواد، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

أقبلتَ في هبّاتِ عاصفةٍ صغيرةْ
متسلقاً نحو الحواجزِ مثلَ أغنيةٍ خفيّةْ
بالموج تبعثُ لي تحيةْ
يا ناسجاً فوقَ ارتجافِ الريحِ أنهارَ النبيذْ

الفضةَ التعبى وأثوابَ النساءْ
إني أعيشُ على رجاءْ
أمواجِكَ السوداءِ يا بحرَ الضياءْ!

٨ ـ ساعات ثلاث إلى أوديسا، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

الغيمُ أمواجٌ على لمحاتِ أوديسا البعيدةْ
يُخفي دروبَ البحرِ عن عينيّ. . .
يُخفي ما أحبُّ
والموجُ غيمٌ في طريقي
يا قلبُ. . . هل دنياكَ أمواجٌ وسُحْبُ. . .
لا تكتئبْ يا قلبي المجنونَ يا طفلُ
يا كوكباً بالدمع يبتلُّ. . .
أفلا تحسُّ عوالماً تدنو حبيبةْ
ومن البعيدِ تلوح أوديسّا قريبةْ!

إلى الاشتراكية

كان الشتاءُ يلفُّ معطفَهُ
فوق الثلوجِ
وكانتِ الريحُ
مجنونةً
يهتز صَرْصَرُها
وكأنه بالبرد مجروحُ
وهناكَ
في مسرى سفينتهم
قلبي
وبطرسبرجُ
والريحُ
قلبي لوجه الشمس أفتحهُ
ولوجهكِ الأرضيِّ أفديهِ
يا بذرةً
ما هبَّ زارعُها
إلا وهبّتْ من أغانيهِ

١٩٥٨/٦/٨

موطني

موطني. . . لو نسمة من موطني
لو شراعٌ نحوهُ يحملني
لو تخفيتُ كعصفورٍ فما يعرفني
حارسٌ يغلقُ عن عيني سمائي
لو صديقْ!
لم أقلْ عزَّ الصديقْ
إن كلَّ الشرفاءِ
أصدقائي
إنما. . . آهٍ لأقمارِ الطفولةْ!
. . . .
. . . .
. . . .
عندما تنهمرُ العتمةُ في بيتي ويأتي المطرُ
وتهزُّ الريحُ شبّاكي، أراهْ
واقفاً بالبابِ مفترَّ الشفاهْ
غائماً فظّاً حبيبا
وعلى سيمائه الوحشيةِ الغبراءِ زهرٌ أخضرُ

وإخضرارٌ مزهرُ
وندىً يحملُ للبحرِ النذورْ
أمسِ في رملِ الدجى كدتُ أراهْ
لم يكنْ بالبابِ . . .
لكنْ كان مُفترَّ الشفاهْ
وعلى سيمائهِ الوحشيةِ الغبراءِ تبكي أغنيةْ
كان في الدربِ على صندوقِ صابونٍ ينامْ
كان يبكي في دموعِ الأغنيةْ :
«أريدْ أشردْ
من البصرةْ
ولا عودْ
. . . .
. . . .
وأنا في خطوةِ المحكومِ بالموتِ أسيرْ
في ظلامي . . . في ظلامٍ لا يسيرْ . . .
وأغني وأغني وأغني . . . وإلخ . . .
أغنيةْ

الكويت، ٢٣/ ٢/ ١٩٥٨

الصوت

البحرُ في عينيكَ، والأرضُ النبيةُ في جبينِكْ
ومحمدُ المحمودُ رغمَ الموتِ اسمعهُ لديكْ
متلاحقَ الأنفاسِ، محترقاً، يطلُّ بمقلتيكْ
والصوتُ من أعماقِ هذي الأرضِ، من حقدِ الجريحْ:
سلمانُ. . . إني لا أموتْ
سلمانُ. . . إني لا أموتْ
إن الرصاصةَ في أعزِّ القلبِ لكني أصيحْ
ودموعُ أمي. . .
آهِ. . .
تغرقُ في قميصي
وجبينُ أمي الشاحبُ المضنى، يسيلُ على دمائي
وشفاهُها تهتزُّ:
يا ولدي الصغيرْ. . . .
أتموتُ يا ولدي ولم تشربْ سوى ماءِ الشقاءْ؟
يا أُمُّ. . . إن الموتَ في أيامنا ما عادَ موتا
يا أمُّ. . . إني لا أموتْ

كالفأرِ في الأرضِ التي غنّيتُ فيها
ووهبتُها إيمانيَ الأرضيَ واستُشهدتْ فيها

. . . .

أمحمدُ المحمودُ. . . انكَ في دمشقَ مع الربيعْ
والصوتُ صوتُكَ أنتَ في المذياعِ، في قلبِ الجميعْ
نهراً وأغنيةً ودرباً في القمرْ
ورصاصةً غضبى وثاراً من معاركنا انفجرْ
أمحمدُ المحمودُ، صوتُكَ من دمشقَ، من المتاريسِ العريقةْ
يأتي إلى «بلد السلامةِ» مثلما تأتي الحقيقةْ
ويهزُّ حتى النخلَ في «باب الطويلْ»
ويشقُّ بين الناسِ نهراً للأناشيدِ العميقةْ
وسطَ الأكاذيبِ الدنيئةِ، وسطَ حقدِ المخبرينْ
أمحمدُ المحمودُ، صوتُكَ في القرى تمرٌ وماءْ
وذرى متاريسٍ وعزةُ بندقيةْ
إني هنا، في وحشة المنفى، بعيداً عن بلادي
عن قلبِ مكتبتي. . .
عن الميناءِ، والريحِ الخفيّةْ
تلك التي قادت خطاي إلى رصيفِ اللاذقيةْ
لكنني أدري بصوتكَ. . .
أنهم يترقبونهْ
في همسةِ المذياعِ، في أوراقِ حربٍ ما، وفي خطواتِ صحبي

وغداً إذا ما اهتزَّ شعبي
واحتزَّ بالقبضاتِ خائنَهُ، وهبّتْ برشلونةْ
دَيناً عليّ لأطلقنَّ لوجهِ صوتِكَ يا صديقْ
أولى رصاصاتي. . .

الكويت، ٥/٣/١٩٥٨

الليل في حمدان

إننا في ليلِ حمدانَ نقولُ:
نَمْ إذا نامَ النخيلُ
عندما تشرقُ في قريةِ «حمدانَ» النجومُ
تُطفأُ الأكواخُ والمسجدُ والبيتُ القديمُ
إنه النومُ الطويلُ
تحتَ همسِ السَعفِ الشاحبِ: الموتُ الطويلُ
إنها حمدانُ. . .
سلٌ نخيلُ
نحن لا نسمعُ في حمدانَ إلا ما نقولُ
ليلُنا والنخلُ والحلْفاءُ النهرُ القديمُ
حيث أوراقٌ من الليمونِ في الماء تعومُ
إنها خضراءُ كالماء كعينيكَ ـ إذا شئتَ ـ أقولُ
أنتَ يا من يُرتجى من لونِ عينيكَ الربيعُ
كيف ينساكَ صديقُ؟
إنني ألقاكَ إذ يغمرُ حمدانَ الأفولُ
حين يُلقى فوقَها ليلٌ ثقيلُ

. . . .

وسوياً نحن في أعماقِ بغدادَ نجولُ
عندما يغمرُ حمدانَ الأفولُ

البصرة، ١٩٥٥

إلحاح

يا سالمُ المرزوقُ، خذْني في السفينةِ. . . في السفينةْ
خذْ مقلتي ثمناً. . . سأعملُ ما تشاءْ
إلا «حكايات» النساءْ!
يا سالمُ المرزوقُ. . . زوجتيَ الحزينةْ
في بيتِ والدِها سجينةْ
في قريةٍ بالقربِ من «سيحانَ» جرداءِ النخيلْ
قد كان والدُها من الشكوى يموءْ
كالقطِ في عِزِّ الشتاءْ
يا سالمُ المرزوقُ. . . أعملُ ما تشاءْ
إلا «حكاياتِ» النساءْ!
يا سالمُ المرزوقُ. . . أنتَ أبو المروءةْ
إن لم أسافرْ سوفَ يخنقُها البكاءْ
ستموتُ في عِزِّ الشتاءْ
من بُخلِ والدِها ومن ليلِ الشتاءْ
يا سالمُ المرزوقُ. . .
ليستْ كالنساءْ
هي حلوةٌ يا سالمُ المرزوقُ يُذبلها البكاءْ

هي طفلةٌ ما زال يُفرحها القمرْ
وتخاف أن هطلَ المطرْ. . .
يا سالمُ المرزوقُ. . .

البصرة، ١٩٥٦

ميت في «بلد سلامة»

قد ماتَ عبدُ اللَّه. . . والأمواتُ في «بلدِ السلامةْ»
يمضونَ كالأحياءِ في صمتِ الدموعْ
والناسُ في «بلدِ السلامةْ»
ينسَونَ حتى الموتَ حين يرونَ قريتَهم تجوعْ
لكنْ سأروي كيف عبدُ اللَّه ماتْ:
كان الظلامُ يكفّنُ الضوءَ الأخيرْ
وتلوحُ أحداقُ الفوانيسِ العتيقةِ مطفآتْ
لا صوتَ. . . لا إنسانَ. . .
صمتٌ كالصلاةْ
الليلُ يلتهمُ الحياةْ
من قلبِ عبدِ اللَّه وهو يموتُ في «بلدِ السلامةْ»
ملقىً يموتُ، مهشمَ الأضلاعِ، تغمرهُ الدماءْ
والأرضُ تشربُ، والنجومْ
حمراءُ واسعةٌ، وعبدُ اللَّه ماتْ
قد متَّ وحدكَ أيها الملقى جريحاً في الضبابْ
عيناكَ غارقتان بالدمِ والترابْ
وبقيتَ طولَ الليلِ وجهاً للرياحْ

ودماً يذوقُ النملُ منه في الصباحْ
متخثراً كالتمرِ في «بلدِ السلامةْ»
يا من هوَيتَ وأنتَ تحلمُ بالمواسمْ
مثلَ المسيحِ حملتَ سعفةْ
وبقيتَ طولَ الليلِ مصلوباً تحشرجُ دون رقّةْ
أنّا سواءٌ أيها الرجلُ العظيمْ
يا ميتاً لم ننسَهُ يوماً ولن ننساه يوما
يا حاملَ الستينَ، يا رباً مدمّى

البصرة، ١٩٥٧

أغنية لا تدري إلى مهرب جريح

يا فارساً في الليلِ، بيتي هنا
بيتي على الأنهارْ
قفْ مرةً في الدارْ
واتركْ بقلبي حلُماً ليِّنا
وحدي وراءَ البابْ
والليلُ. . . ما أطولَهْ
لو عرفَ الأغرابْ
أني وراء البابْ
فلن يناجي بلبلٌ جدولَهْ. . .
مُرَّ علينا يا فتىً ليّنا
عشرونَ نهراً فُرشتْ بالماءْ
والوردِ الأحمرْ
وههنا المعبرْ
فمرُّ من دربنا
يا أملاً لينا
أسمعُ في الأعشابْ
حوافراً متعبةً خضراءْ

نديةً بالماءْ
وأنتَ. . . هل تعرفُ
أني وراء البابْ
ثوباً شفيفاً وهوىً ليّنا؟
ليلٌ بلا ظُلمةْ
كأنما عتمتُه نجمةْ
وفارسي ملطّخٌ بالتوتْ
ووجههُ نجمةْ
تضيءُ قلبي فرحاً لينا
وحدي وراءَ البابْ
وفارسي يأتي
يأتي. . .
لكنه نعسانْ
مسربلٌ بالتوتِ والصمتِ. . .
لم يلتفتْ حتى إلى بيتي

البصرة، ١٩٥٧

الخيط

إنني أحسستُ بالموتِ قريبا
قبلَ أعوامٍ. . .
وما زال كعينيَّ قريبا
أنني ألمحه اليومَ كما كنتُ أراهُ
شيّقاً كالحلمِ تدعوني خطاهُ
مثلما تدعو حبيبا. . .
نحن كنا أربعةْ
وعلى الشارع آلافُ العصافيرِ تطيرْ
من حَجرْ
كانت الدنيا مطرْ
من حَجرْ
كانت الأرضُ إناءً من رصاصٍ. . . .
وبشرْ
ذلك اليومَ رأيتُ الموتَ يدنو
فكرةً فيها عذوبةْ
وارتعاشْ

لحظةً ألمسُ في أعماقها كلَّ الحياةْ
خطوةً مملوءةً ثم أموتُ
برصاصةْ
ثم يمضي الموتُ والشارعُ عني والبيوتُ
والرصاصةْ
نحن كنا أربعةْ
ورجعنا أربعةْ
غير أني عدتُ كالنائمِ في الماء طويلا
شاحباً يأكلُني شوقٌ إلى نارِ الحريقْ
إنني دستُ على الخيطِ ولم ينقطعِ
أيها الموتُ العميقْ
أنتَ يا عمرَ البريقْ
آهِ يا أغنيةً كانت معي!
أترى لونتَ عينيه شموسا
وهززتَ الكفَّ بالمجدِ العظيمْ
وكشفتَ القلبَ في وجهِ الرصاصْ
واهباً أنبلَ ما يعطي الكريمْ؟
. . . .
. . . .
أنا ما شاهدتُه يهوي قتيلا
زاهياً كالنور لم يحملْ من الوحلِ إشارةْ

مُسْلماً عينيه للحلمِ. . . قليلاً. فقليلا.

. . . .

إنه داسَ على الخيطِ طويلا

البصرة، ١٩٥٧

حادثة في الدواسر

اهربْ. . .
لقد قدموا إليكْ
ببنادقٍ متأرجحاتْ
وعلى الطريق تدقُّ أحذيةٌ قديمةْ
سوداءُ يخفي النخلُ موطئَها كما يخفي الجريمةْ
ليلٌ بلا قمرٍ. . . وأحذيةٌ قديمةْ
كالخيلِ مسرعةٌ إليكْ
وخناجرٌ متوهجاتْ
سلمان عبد اللَّه يا قمرَ الدواسرِ. . . يتبعونكْ
ببنادقٍ متأرجحاتْ
أبداً وراءك يركضونْ
فعيونُهم تخشى عيونَكْ
لكنهم قد يقتلونكْ
لن يذكروا يا طفلَ عبدِ اللَّه، أغنيةً سخيةْ
كنا نغنيها معاً: «للناصريّةْ
تِعْطَشْ وشَرْبَكْ مايْ. . . للناصريةْ»
. . . .
. . . .

النهرَ يا سلمانُ... لا تعبرْ... هنالكَ يدركونكْ
اربضْ مع الحلفاءِ... لا تعبرْ... هنالك يقتلونكْ
لا تمضِ.... إن النهرَ أشباحٌ لئيمةْ
سوداءُ يخفي النخلُ موطئَها كما يُخفي الجريمةْ
وبنادقٌ متربصاتٌ...
....
....

البصرة، ١٩٥٥

الليل أزرق

اللّيلُ أزرقُ مثل آلافِ الخناجرْ. . .
محمودُ. . . يا تلميذُ، يا قمرَ العراقْ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
الليلُ أزرقُ والنجومُ تموتُ في طَرَفِ المدينةْ
مثلَ الفوانيسِ البعيدةِ في سفينةْ.
إن الطريقَ الموحشَ الخالي ينامُ مع السكينةْ
إلا خُطىً مثلَ الحريرِ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
فلأجْلِ مَنْ تمضي بعيدا. . .
في الشارعِ الخالي، وحيدا؟. . .
محمودُ، يا تلميذُ، يا قمرَ العراقْ
حتى جنودُ الموتِ لا يتحركون بلا عناقْ
وهناكَ أنتَ بلا أغاني
لا نورَ موسيقى. . . خطىً مثل الحريرِ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
ويلوحُ وجهُكَ في الضبابْ

خطوٌ وأوراقٌ صغيرةْ
سمراءُ . . .
تطرقُ كلَّ بابْ

البصرة، ١٩٥٥

أمر بإلقاء القبض

كان الصباحُ الرطْبُ يغسلُ في المدينة
وجهَ الشارعِ بالضبابْ
ويضيءُ أغنيةً حزينةْ
بشفاه فلاحينَ تطردهم حوانيتُ المدينة:
«يا بصرةْ لا تِبچيْن» . . .
تملؤها الضغينةْ
وأنا، وأنتَ، وأصدقائي
يا أشهلَ العينينِ، كنا كالنجومِ بلا سماءِ
وكأنّ بصرتَنا الحزينةْ
البصرةَ الخجلى تنام على وسائدَ من سكينةْ
تُخفي دمَ العمالِ.
قال صديقُنا: اثنان جاءا
بملابسٍ خضراءَ، جاءا مسرعينِ بلا عيونْ
إن الخطى تهتزُّ متقنةً على بحرٍ ترابيٍّ طويلْ
كانا أمامكَ عندَ منعطفِ الطريقِ
الجسرخ فالدّكانُ . . . فالمقهى، وتُمسَكُ يا صديقي

يا أشهلَ العينينِ. . .

قلتَ لنا: وداعا

عيناكَ تلتمعان بالحقد التماعا

ودلفتَ مختفياً تؤجّجكُ الضغينةْ

يا أشهلَ العينينِ، يا شمسَ المدينةْ!

البصرة، ١٩٥٤

الهارب الليلي

كل شيءٍ ينهضُ الآنَ من الماضي الغريقِ
هذه الليلةَ من مايو . . .
بفانوسٍ . . . وريحِ
وكتابينِ وسروالٍ عتيقِ
هكذا . . .
إنه الفانوسُ يهتزّ ضئيلا
وظلالُ النخلِ خضراءُ . . . وفي النهر سفينةْ
إنها تدنو من الأرض قليلاً . . . فقليلا
هكذا . . .
كانت الأنجمُ زرقاءَ البريقِ
مثل عينيكَ حزينةْ
إنها الثورةُ في الحزنِ العميقِ
هذه الليلةَ من مايو . . . ستمضي يا صديقي
بكتابين وسروالٍ عتيقِ
أترى ترجعْ يوماً بالسلامةْ . . .

وعلى صدركَ تهتزُّ حمامةْ؟

. . . .
. . . .
. . . .
كلُّ شيءٍ ينهضُ الآنَ من الماضي الغريقِ
إن هذا عامُه الثاني ولم يرجعْ إلينا
سوف يلقي الطفلُ يوماً ما ذراعيه علينا
سوف يأتي بكتابين وسروالٍ. . .
جديدِ
إنه يرجعُ دوماً بالسلامةْ!

البصرة، ١٩٥٦

شعار

إني سمعتُكَ يا صديقي
إني سمعتُكَ هائجَ الصيحاتِ بالحبِّ العميقِ:
يا إخوتي، لا تذهبوا. لا تتركوهم يُنزلونْ
هذا الشعارْ.
والنارُ، والمتظاهرونْ
يهرولونَ ويصرخونْ:
«لا حربَ، لا فاشستَ»...
كانوا عن شعاركَ يهربونْ.
كنْ يا صديقي من تكونْ
كنْ عاملاً ألقاه «تيسو» منذُ عامْ
للجوعِ، للدمِ، للظلامْ
كنت أنتَ فلاحاً يريد بكردلانْ
الخبزَ والغدَ والحنانْ
كنْ طالباً يطوي كتاباً للسلامْ
بيدٍ...
وفي الأخرى الشعارْ
كن يا صديقي من تكونْ

إني دعوتُكَ يا صديقي
فلقد سمعتُكَ هائجَ الصيحاتِ بالحبِّ العميقِ

يا من رأيتكَ بعد حينْ
تطوي الشعارَ ووجهُكَ الزاهي حزينْ:
أنّا معاً. . .
وغداً نعودُ مع الرجالِ العائدينْ.

البصرة، ١٩٥٤

تحت أيديهم

وعندما تُلقى من الغرفةِ
مهشمَ الأضلاعِ مذهولا
أزرقَ كالميّتِ
في ليلةٍ سوداءَ،
مقتولا
فكّرْ مع البصرةِ
فكرْ بما نهوى
وما نغنّيهِ من القلبِ
بالشمسِ والخبزةِ والحبِّ
. . . .
فكّرْ مع البصرةِ

البصرة، ١٩٥٦

الاستشهاد

رمحٌ من الفولاذِ في أحشاءِ عيسى
رمحٌ يمزقهُ ويسحبهُ طويلا
زهراً قماشياً تشرَّبَ بالدماءْ
والموتُ يتركُ خلفَ عيسى
قمراً من الدمِ والمساءْ
متعثراً قذراً طويلا
والرمحُ يحفرُ في طريّ اللحمِ دربا
ويدقُّ بالفولاذ قلبا
متصلباً في قلب عيسى
وهنا تدحرجَ رأسهُ المقطوعْ
وبعنقهِ تسعونَ سكّينا
. . . .
. . . .
المخبرونَ يهرولونْ
متعثرينَ برأسِ عيسى
وعلى المطابع تشربُ الصحفُ الحقيرةْ
بين السعال دماءَهُ
سوداءَ حاقدةً غزيرةْ

البصرة، ١٩٥٧

لقاء مع رجل ما

بعيداً في ضبابِ مدينتي الخجلى
لقيتُكَ أنتَ والعرباتِ والليلا
حزينٌ أن أراكَ هنا
سعيدٌ أن أراكَ هنا
وفي عينيكَ ألقى وجهَكَ الطفلا
نقياً كطيورِ البحرِ في أمسيةٍ جذلى
لقد علمتَني البغضاءَ والحبا
لقد علمتَني أن أعبدَ الشعبا
. . . .
. . . .
ومرتْ نسمةٌ. . . ومضيتَ والعرباتِ والليلا
ـ وداعاً. . .
والخطى تنأى. . . وتلقي دوننا ظلا
بعيداً في ضبابِ مدينتي الخجلى

البصرة ـ شتاء ١٩٥٥

رفض

أنا في انتظارِ يديكَ يا رباً يسيرُ على الرمالْ
إن الذي قد سار فوق الماء ماتْ
وبقيتَ أنتَ:
بلا صفاتْ
لكنّ قلبي في انتظاركْ
فالبحرُ مزّقهُ نبيٌّ بالحذاءِ.
وبالبخارِ
ألقيتَهُ يبكي على قدميّ، مهتوكَ الإزارِ...
وبقيتَ أنتَ...
الهيَ الرمليّ، مجهولَ الصفاتِ
إلا من الألمِ، المقدسِ في انتظاري
وأنا أشقُّ الرملَ لكنني أغوصْ
في الصِفرِ...
أحصي اللانهايةَ في النهايةْ
كتبيك الممنوعِ ـ صلباً ـ عن طواطمهمْ
متألماً حتى الشهادةْ
لكن سعدي لن يموتْ

في الرملِ . . . في شيرازَ . . . من أجل الشهادةْ
متمسكاً بالصفرِ . . .
يُحصي اللانهايةَ في النهايةْ . . .

الكويت، ٢٢/ ٤/ ١٩٥٨

رجاء

يا رجاءْ
إن بي شوقاً إليكْ
أنا أهوى لو تلمستُ يديكْ
لو تحدثنا قليلا
أوَ ما زلتَ خجولا
يا قوياً كالرجاءْ
يا رفيقاً كالرجاءْ
لستُ أدري كيف ألقاكَ فلن تأتي إلينا
لن ترانا بعدُ في صمتِ المساءْ
ونسيمُ البحرِ يغفو. . .
والسمرْ
والقمرْ
وحكاياتٌ أُخَرْ. . .
غير أنْ النورَ أقوى. . .
يا رجاءْ
سيعود الغرباءْ
سنرى عينيكَ في وهجِ اللقاءْ

أنت يا من طرقوا البابَ عليكْ
ليسدوا شفتيكْ
ليشدوا معصميكْ
أنهم جاؤوا على صمت المساءْ
ـ هكذا قيل ـ
ولكن، اختفى عنهم رجاءْ

البصرة، ١٩٥٤

اغتيال محمد بن عبد الحسين

١٤ ذئباً بقتلكَ يفخرونْ
وعلى أزقةِ قريتي يتقدمونْ
بملابسٍ مخضرةٍ شوهاءْ
وبنادقٍ سوداءْ
كانوا بقتلكَ يحلمونْ
بالليلِ والعجلاتِ في نارِ الكمينْ
برجالِكَ المترفعينْ
نحن الذين نموت في قلبٍ تمزقُهُ البنادقْ
ونظل نرجفُ ثم نحتضنُ الترابْ
مترفعين بمقلتيكْ
يا جثةً بين الذئابْ
وهمُ الذين يثرثرون عن الجريمةْ
عن ميّتٍ داست حوافرُهم جبينَهْ
عن خاتمٍ حرموه إصبعكَ اليمينْ
ليظلَّ حتى القبرِ يصرخُ: يا أمينةْ!
هم يزحفون على المدينةْ
هم يذبحون الوردَ والذكرى وأوراقَ الكتابْ

هم يقتلونكَ مرةً أخرى بأحشاءِ المدينةْ
أما الذين يحاربون بلا وجوهْ
أما الذين يقاتلونَ بلا بنادقْ
كالريحِ . . .
كالأمواجْ
فهم الذين سيبعثونك حين تنتفضُ المدينةْ

البصرة، ١٩٥٧

أنطونيو بيريز من غواتيمالا

إنه أنطونيو بيريز، وقد كان الرفاقْ
أبداً يَلقَون أنطونيو العزيزْ
بالتحايا والعناقْ. . .
كان أنطونيو قويا
لامعَ العينين، تغفو أغنيةْ
من أغاني الأوديةْ
أبداً في شفتيهِ
كان عند الأمسيةْ
يلتقي في الحزبِ بالعمالِ. . .
أنّا يا رفاقْ. . .
ويضيء الشوقُ عينيه ويغشاه انطلاقْ
كان أنطونيو نبيا
كالذينْ
لوّنوا تبريزَ في الفجرِ الحزينْ
كان أنطونيو نبياً دون دينْ
كان أنطونيو مع الدرب المضاءْ
مثل آلافِ الرفاقْ

في بلادي . . . في العراقْ
إنه أنطونيو بيريز . . . لقد كان جميلا
مثل بحارٍ صغيرْ
أسمرِ الخدّينِ من شمسِ الجنوبْ
إنه مات قتيلا
أنت يا أنطونيو بيريز العزيزْ
أنت يا من مزقوكْ
قرب مبنى الحزبِ . . .
إن غواتيمالا
والهوى، والرايةَ الحمراءَ، منا تعالى

١٩٥٤

إلى عبد الوهاب البياتي

الريحُ من منفاكَ تأتي نحو بصرتنا القديمةْ
الريحُ تحمل كلَّ شيءٍ نحو بصرتنا القديمةْ
حتى المكاياتِ الأليمةْ
حتى أغانيكَ العظيمةْ

* * *

البصرةُ الزرقاءُ. . آلافُ الجداولِ والنجومْ
النهرُ والبحرُ الحنونْ
وسفائنُ ترسو وملاحونَ يا عبدَ الوهابْ
البصرةُ الزرقاءُ أغنيةٌ حنونْ
للبحرِ ناعمةٌ حنونْ
لكنّ ملاحي السفينةْ
ألمجهدين يزمجرونْ
أغنيةً للبحرِ، داميةً حزينةْ
للخبزِ والريحِ المزمجرِ والسفينةْ
للخبزِ يا عبد الوهابْ. .

* * *

والبصرةُ الخضراءُ يا عبدَ الوهابْ
لو زرتَها يوماً لغنّيتَ المدينةْ
والبحرَ والعمالَ والنارَ الدفينةْ
لرأيتَ أعماقَ الجنوبْ
حيثُ العيونُ الدامياتُ تشعُّ نيرانَ الضغينةْ
حيث النخيلُ يموت يا عبدَ الوهابْ
حيث النساءُ الجائعاتْ
يُقتَلن في بؤرِ المدينةْ

* * *

أترى ستومض في ندى عينيكَ بصرتُنا القديمة
وهجاً وأغنيةً عظيمةْ

١٩٥٥

مرة أخرى أيها الفرنسيون

حيثُ تُلقي ظلَّها الأصفرَ غاباتُ البنادقْ
لا ترِفُّ الرقصاتْ
وعلى القضبانِ لا تنمو الزهورْ.
وعلى صمتِ القبورْ
لا نرى وجهَ الحدائقْ.
أيها الشعبُ الفرنسي
حيث تقتاتُ من الحقدِ الحرائقْ
لا تحبُّ الفتياتْ.
والنبيذُ الحلوُ لا يُشربُ ممزوجاً...
بدمْ
أيها الشعبُ الفرنسيُّ، لقد أبصرتَ أنيابَ الجريمةْ
أنها لم تُنشبِ السمَّ بعمالِ الجزائرْ
لو قطعتَ الرأسَ في ساحاتِ تموزَ القديمةْ
أنها تأكلُ من عمالِ باريسَ وعمالِ الجزائرْ.
أيها الشعبُ الفرنسيُّ... ندائي
كلُّهُ حزنٌ عليكْ...
إن آلافَ الخياناتِ مدلاةٌ عليكْ

أيها الشعبُ، ولكنْ. . . أين حَدُّ المقصلةْ؟
أين حدُّ المقصلةْ؟
أنها تقطع في سجنٍ بأعماقِ الجزائرْ
عنقي
أنها تسأل عن عنقِ جميلةْ
ويقول السادةُ الضباطُ: لن تحيا جميلةْ
وعلى أكتافهم تشحبُ كورسيكا العتيقةْ
مثلَ أعصابِ المظليينَ في ليلِ الجزائرْ.
أيها الشعبُ الفرنسي
أيها العمالُ في الأرصفةِ الليلِ: اسمعوني
أيها الطلابُ: إن المسألةْ
لم تعدْ في الأسئلةْ. . .
لم تعدْ محتملةْ. . .
هل يموت الشعبُ من أجلِ الخيانةْ
ولأجل القتلةْ؟
يا فرنسا الثورةِ
يا فرنسا الجبهةِ الشعبيةِ
إن حدَّ المقصلةْ
في أكفِّ القتلةْ. . .
فاصرخي بالقتلةْ. . .
اصرخي بالقتلةْ

الكويت، ١٩/٣/١٩٥٨

عبد السلام

سأظلُّ أبحثُ عنكَ في الأعماقْ
في جنةٍ أثمارُها أزهارْ
في عتمةٍ ملتفةِ الأوراقْ
سأظل أسألُ عنكَ أهلَ الدارْ
يا طارقاً قلبي. . .
يا طائراً أضناهْ طولُ السفرْ
قلبي هنا. . . في المطرْ
يرقبُ من تأتي به الأسفارْ.
واليومَ أنتَ تجيءُ، تسألُ عن صديقِكْ
أني عرفتُ الاسمَ يا عبدَ السلامْ
لكنني أنسى
فالخبزُ والسنواتُ يا عبدَ السلامْ
تركتْ غضوناً في صديقِكْ
والناسُ مثل النخلِ يا عبد السلامْ
الناسُ مثل النخلِ يا عبد السلامْ
قد يُقطَعُ السعفُ القديمْ
لكنه يُبقي جذورَهْ

. . . .
إني لأبحثُ عنكَ يا عبد السلامْ
في قريةٍ مغبرةِ الأكواخِ خضراءِ المياهْ
أطفالُها يتهامسونْ
بحثاً عن الأعشاشِ. . .
أو يتراكضونْ
للنهرِ في جمرِ الظهيرةْ.
والنارُ تشعلُ ثم تطفئُ في المساءْ
وجهاً على التنورِ يختلسُ العجينْ
ليكونَ للأسماكِ طعماً في الصباحْ
أيكونُ وجهَكَ يا صديقي
أتكون أنتَ مدربَ القططِ الصغيرةْ؟
أم أنتَ أشهرُ سارقٍ للبرتقالْ؟
أم أنتَ مَن يهوى السلاحفْ؟
أم أنتَ. . . أمْ. . . أمْ. . .
آهِ يا عبد السلامْ

الكوي، ١٤/ ١٢/ ١٩٥٧

شوق

خجلانَ، أسألُ عنكِ يا أمي، لكي أهديكِ زهرةْ
إن الزهورَ هنا تموتْ
لكنّ في قلبي من الأشواق زهرةْ
ممبتلةٌ بالدمعِ، قانيةً صموتْ.
أرسلتُ يا أَمي رسالةْ
لكِ من دمشقَ، وكنتِ فيها
تتألقينَ على الحروفْ
إني لأعرفُ عنكِ يا أماهُ أنك تجهلينْ
ماذا كتبتُ، وتسألينْ. . .
لكنني لو طفتُ بصرتَنا لما عرف الجميعْ
الاكِ يا أماه حرفي.
واليومَ يا أماه لم أرسلْ رسالةْ
فلربما لن تقرأيها
ولربما طرقوا عليكِ البابَ في الليلِ الغريقْ
متسائلينَ عن الرسالةْ
أماهُ، يا أماهُ، يا أماهُ. . .
إن لديّ زهرةْ!

الكويت، ٢٨/ ١٠/ ١٩٥٧

أبيات بسيطة

الساعةُ العاشرةْ
وفي القرى تخبو المصابيحُ
النخلُ والريحُ
وفي فؤادي نجمةٌ ساهرةْ
والساعةُ العاشرةْ
الليلُ يمضي متعَبا . . . متعَبا
وفي طريقِ النهرِ يغفو الضبابْ
رطباً . . .
وفي قلبي نداءٌ إليكْ
شوقٌ إلى مَن لديكْ
يا نجمتي الساهرةْ
الساعةُ العاشرةْ
وفي شفاهي أغنياتٌ بِعادْ
هادئةٌ عن بلادْ
تلوِّنُ الليلَ بأضوائها . . .
يعرفها السندبادْ

هناكَ شمسٌ قبلَنا تُشرقُ
هناك ينمو الثلجُ والزنبقُ
والنجمةُ الساهرةْ

البصرة ـ نهاية ١٩٥٥

في درب ريفي

الليلُ في القريةْ
صافٍ. . . وأغنيةٌ خريفيةْ
تتأوهْ النسماتُ فيها
تهتزّ في قلبي وتحملني إليكِ مع النجومْ
وحدي أسيرُ إليكِ ليلا
أنا والأغاني والنجوم وخطوتي الخجلى
سأظل أسألُ عنكِ حتى لو تغوّرتِ النجومْ
فالليلُ في القريةْ
أيكون محتملاً. . . وأنتِ هناكَ نائمةٌ وحيدةْ
وأنا هنا وحدي؟. . .
. . . . . اني أكادُ أراكِ يا حُبي. . . بعيدةْ
مهجورةَ الشفتينِ، طعمُ الياسمينْ
طعمُ الندى والبحرِ. . . باقٍ في شفاهِكْ
وعلى شفاهي الملحُ. . .
أن البحرَ، أن الياسمينْ
أن الندى يغفو بعيدا
والليلُ في القريةْ

صافٍ، وأغنيةٌ خريفيةْ
تتأوه النسماتُ فيها
وعلى ارتعاش النخل والأنهار ترتجفُ النجومْ
وتغورُ في قلبي. . .
ويأتلقُ الدجى شيئاً فشيئا

البصرة، ٣/ ١٠/ ١٩٥٨

إحساس

مساءٌ. . .

وقلبي يحسُّ المياهْ

كأعمقِ شيءٍ يراهْ

كعمقِ السماءِ الخريفيةِ الباردةْ

وفي النهرِ تمضي الحياهْ

مياهْ. . .

وفكرتُ في أن أموتْ

مساءٌ. . .

وريحُ الخريفْ

لها في فؤادي حفيفْ

وفي الشارعِ

مطرْ

وفي الشارعِ

يبلل قلبي المطرْ

وفي الشارعِ

تمر فتاةٌ وحيدةْ

وأمضي بعيداً. . .

بعيدا. . .

بعيدا. . .

البصرة، ١٩٥٧

إلى بعيدة

كزهرةٍ في الرملِ. . . أنتِ، كالفرحْ
في موطني الصامتِ. . . يا هادئةَ العيونْ
الكلُّ في الدروبِ يرقصونْ
في المطرِ الناعمِ. . . في المرحْ
الكلُّ، إلا أنتِ يا ناعمةَ العيونْ
الكلُّ يرقصونْ
وحينما أجبتُ كالذاهل: من بغدادْ. . .
ضحكتِ في صمتٍ، وكان الأصدقاءُ يرقصونْ
والكلُّ يرقصونْ
وقلتِ: هلْ؟
ـ لكنني لا أعرفُ الكثيرْ
وربما سحقتُ خُفَّكِ الصغيرْ،
ضحكتِ يا آنستي. . . والكلُّ يرقصونْ
وعندما سألتُ عن اسمكِ كنتِ تبسمينْ
وعندما أجبتُ عن اسميَ كنتِ تبسمينْ
وددتُ لو بقيتِ تسألينْ!
وهكذا. . .

. . . .

لم يبقَ إلا بعضُ راقصينْ
في الشارعِ اللامعِ. . .
والشجرْ
يُنصتُ للمطرْ. . .
كان الرذاذُ يحملُ العبيرْ
إلى فؤادينا وكنا وحدَنا نسيرْ

الكويت، ٩/ ١١/ ١٩٥٧

الفأر

ها أنتَ وحدَكَ مرةً أخرى كأنكَ لم تسافرْ
يوماً إلى أرضِ الجميعْ
ها أنتَ وحدكَ مثلُ طائرْ
ألقتْ به ريحُ الشمالِ على الكويتْ
أوَ هكذا أحببتَ؟
أن تبقى وحيدا
متلفتَ العينينِ تنتظرُ البريدا
وكأنّ في ورقِ الرسالةْ
موجاً سيحمل قلبكَ المضنى بعيدا
شيئاً فشيئاً في ظلامِ البحرِ. . .
ثم ترى يديها
بين الزهورِ تلوّحانْ
والنورُ يغمرُ مقلتيها
عدْ. . . عدْ لنفسكَ أيها الأفّاقُ، يا رجلاً يطوّفُ دونَ بيتْ
أرجعْ لنفسكَ، واصفع «الشعراءَ». . . إنكَ في الكويتْ
كالفأرِ تبحثُ عن وظيفَةْ
عن جبنةٍ بيضاءَ تأكلُها. . . فدعْ تلكَ الفتاةْ
وإذا شبعتَ غداً فأرسلْ ألفَ أغنيةٍ إليها

الكويت، ١/ ١٠/ ١٩٥٧

المدينة

آهِ لو نمضي مع المدِّ إليها
في ضبابِ الفجرِ نأتيها سراعا
بالأناشيدِ. . .
شراعاً
فشراعا
يهبطُ النخلُ علينا
مظلمَ الخضرةِ يدعونا إليها
آهِ لو نمضي إليها!
نتركُ القاربَ في همسِ المياهْ
وعلى ومضٍ من النجمِ هداه
انه يعرفُ شبّاكاً صغيراً
أخضرَ النورِ وخبزاً وفتاةْ. . .
اننا نرسو لديها
حيث يبقى القمرُ
في البحيراتِ. . . وينمو الزهرُ
حيث لا تغربُ شمسُ
والحياةْ. . .

. . . .

يا أعزَّ الأصدقاءْ

اتبعونا بالأناشيدِ إليها

البصرة، ١٩٥٦

عشرون أغنية عن الأنهار

عشرونَ أغنيةٍ عن الأنهارِ؟ . . .
أنصتْ يا فؤادي
كم حلوةٌ تلك الأغاني
بيضاءُ قادمةٌ من الدنيا لتجري في بلادي
الدفءُ والأزهارُ فيها
والنورُ والأملُ العميمْ
يا أيها النهرُ العظيمْ
احفرْ إلى وطني طريقَكْ
حرّرْ من البلوى صديقَكْ
نهراً سيخرجُ من قرى وطني إلى الدنيا الكبيرةْ

البصرة، ١٩٥٥

حسون الذي يعمل أشياء كثيرة

حسناً. !

هذا فتىً ثانٍ إذا كنتَ تلحُّ

هو من قريتنا أيضاً، له وجهٌ صغيرْ

إن هدبيه طويلانِ. . .

وفي عينيه صبحُ

ويقولونَ على أضلاعهِ جرحٌ قديمْ

كلُّنا نعرفهُ، كان كريما

رائعاً يدخلُ في كلِّ البيوتِ

مسرعاً كالطفلِ:

أماهُ، تعالي. . .

ـ مَن؟ عيوني أنتَ، يا وردَ الشمالِ!

أين ألْفُ البرتقالِ؟

. . . .

. . . .

إنه يعرفُ كلَّ الناسِ في «بابِ الطويلِ»

من لصوصِ التمرِ حتى المخفرِ الرابضِ في صمتِ النخيلِ

إنه يعملُ أشياءَ كثيرةْ

ويبيعُ الطِيبَ والخمرَ. . . وأشياءَ كثيرةْ
. . . . قال لي يوماً وملءُ الليلِ أزهارٌ صغيرةْ
وعلى كيسٍ من الليمونِ قد نامت يداهْ:
آهِ لو يحترق المخفرُ. . . آهْ!. .

البصرة، ١٩٥٦

سؤال

ماذا بعينيكِ؟ شيءٌ كم هفوتُ لَهُ
دوماً لأغرقَ في أمواجهِ مَرّةْ
سكرانُ بالحلم أمضي دونَ أشرعةٍ
في زرقةِ البحرِ، في الآفاقِ، في الخضرةْ
إني ألاحقُ شيئاً كدتُ أدركهُ
يوماً وأقطفُ من أسرارهِ زهرةْ
أُغضي وأغمضُ عيني علَّ شاردةً
من سرِ عينيكِ تأتيني مع السكرةْ
مع الدروبِ التي مرَّ الضبابُ بها
مضنىً فألقى على أوضاعها ستره
أنا الوحيدُ بها، أسري ومنطلَقي
آفاقُ عينيكِ يا مشبوبةَ السُمرةْ!

١٩٥٩

السبب

أنا لا أرحلُ خوفاً من . . .
فإنّ الأصدقاءْ
يعرفونَ المسألةْ
كلَّها حتى الزوايا المهملةْ
في بلادي يفتحُ الأعمى عيونهْ
ويموتُ الشعراءْ
في سراديبَ من الجوعِ إلى حرفِ مجلةْ
وسراديب مذَلّةْ
انني أفقأ عينيّ أمامَ البؤساءْ
بالطباشيرِ . . .
ويبقى الزنبقُ
بائساً في الماء، ملقى الزهِراتْ
مهملاً يسرقُه من يسرقُ
فانفضي يا زنبقاتْ
انفضي أزهارَكِ البيضَ فقد جاءَ الخريفْ
انفضي يا زنبقاتْ
واغمري بالقمرِ الميّتِ درعَ السلحفاةْ

. . . .

آه يا آنستي. . . يا أصدقائي
انني أنشبتُ أسناني بأرضي
وعبدتُ العشبَ والنملَ وحتى الأغبياءْ
انني غنيتُ من أجلِ النساءْ
عندما يخبزنَ أقذارَ البهائمْ
انني غنيتُ للنهر المغشّى بالجرائمْ
ولكلِ الأصدقاءْ
انني سوف أغنّي
عندما أكشفُ عن حبي وبغضي
عندما أنوعُ عن ثوبي القذارةْ
والرياءْ
حين لا أبصر غلماناً بغايا
عندما أفتحُ قلبي للسماءْ
وبلا كأسٍ من السمِّ أرى وجهَ القمرْ
واغنّي في المطرْ
في بلادٍ، لا تقولي، أجنبيةْ
آهِ لو تدرينَ معنى المسألةْ. . .
أنا لا أرحل خوفاً من. . .
فإن الأصدقاءْ. . .

البصرة، ١٩٥٧

أغنيات ليست للآخرين

(١٩٥٥)

يداً بيد

أنا من يلمُّ صعيدَ النجومْ
ويجمعُ من ثمرِ الفرقدِ
ومن يلمسُ البدرَ في أفقهِ
ومن يرتدي أنجمَ السرمدِ
ونهرُ المجرةِ ألهو بهِ
وأسبحُ في لُجّهِ المزْبدِ
فإمّا أردتِ بلوغَ السماءْ
فهاتي يداً للهوى في يدي

التي من عمان

سلّمتِ! يا أهلاً بجارتنا		يا مرحباً بفتاةِ غسّانِ
بالموج في الأردنّ يدفعهُ		من صدركِ الملفوفِ نهدانِ
من أيّ أشذاءٍ أتيتِ لنا		فغمرتِ بالأشذاءِ أحزاني؟
من ضيعةٍ في السَّلْطِ نائيةٍ		أم قريةٍ في سفحِ شيحانِ
أغلقتُ بابَ الحانِ، ليس لنا		بعدَ العيونِ الخضرِ من حانِ
لا أربدُ الخضراءُ ناعمةً		بالأبيضِ الزحليّ تلقاني
جذلى، ولا شفةٌ تطوفُ على		كأسٍ ولا همساتُ ندمانِ
نام السقاةُ فليس يوقظهم		إلا ندىً وشذىً وعينانِ
واليومَ جئتِ لنا مورّدةً		بيضاءَ من زيتونِ عمّانِ
أعيونُكِ الخضراءُ في وطني؟		أفدي لها أهلي وإخواني!
أنتِ الشمالةُ تجتلي أبداً		أشباحَ أعرابِ ورومان
عرباتِهمْ وخيولِ قائدِهم		وجنودِهم والفاتحِ الجاني
ونبيذُ روما لاثمٌ شفةً		يا أختَنا بالأحمرِ القاني
لكنْ أكادُ أرى بحُمرتها		لونَ الدماءِ بفجرِ أوطاني

١٦/ ١٠/ ١٩٥٣

اسم

وفي القلبِ إن شُرِّدا		ندى اسمِكِ قطْرُ الندى
ترفرفُ منهُ الشفاهُ		وينهلُّ منه الصدى
كأنَّ ارتعاشَ الحروفِ		سما فارتدى فرقدا
على موجتيهِ ابتهالُ		العصافيرِ كم غرّدا
وفي مقطعيهِ نداءٌ		لعينيكِ كم أُنشدا
أكادُ أرى في الحروفِ		شذى الحبِّ والموعدا
ومنديلَها والتحايا		وهمستَها والغدا
أكادُ أرى مقلتيها		إذا ما اسمُها رُددا
وأرقبُ شمسَ الهوى		وأرعى لها مولدا
رأيتُ اسمكِ الأسعدا		توهّج ملءَ المدى
وفي القلب إن شُرّدا		ندى اسمكِ قطرُ الندى

أبو الخصيب، ٧/٦/١٩٥١

غضب حزين

لا تعودي
غضِبَ البحرُ وجرحي
والرياحُ
نثرتْ للموتِ آلافَ الورودِ
السماءُ البضةُ الزرقاءُ لم تتركْ مكانا
لسوانا
فاقتحمتِ النارَ وأنهارَ جناحُ
لهوانا
واحتوانا
أمسُكِ المجنونُ والسرُّ الصفيقُ:
كان ريحُ الليل يغفو
والضبابُ الأشهبُ الباردُ كالليلِ ثقيلُ
كان يهفو
كلُّ شيءٍ كان يهفو
والمصابيحُ سكارى، والطريقُ
رطِبٌ، والضوءُ وسنانُ ضئيلُ
وعلى الضفّةِ أبصرتُ مكانا

لسوانا
أنتِ، والأبعدُ، ما كان، فكانا
واحتواني المعبرُ المظلمُ، والنهرُ البخيلُ
شاحبُ الأمواجِ. . . ألحانُ مضاءُ
ثم أغمضتُ عيوني
والرذاذ. . .

البصرة، ١٥/ ١/ ١٩٥٣

صغير على الخمر

سكرتَ. . .

لـيـتَ الـنـدامـى مـا سَـقـوكَ بـهـا　　إنـي لأألـمـحُ في خـديـكَ نـيـرانـا
وأُبصرُ الكأس وسناناً على شفةٍ　　كم رتّلتْ في صلاةِ الليلِ قرآنا
وألمحُ المقلةَ الخجلى يراودها　　طـيـفٌ يـراوده الـمـصـبـاحُ ألـوانـا
أنت الصغير. . . فهل ترضى مرارتها　　إذا اتّـبـعْـنـا نـبـيـاً مـن نـدامـانـا

١٩٥٢

الورد والعصافير والصغيرة

تلك العصافيرُ على بابي	تمرُّ أسراباً من الغابِ
والفجرُ تُضفي نورَهُ بِركةٌ	شرقيةٌ في حُمْرِ أهدابِ
وأنتِ في وثبكِ عصفورةٌ	تنفّضتْ من عشٍّ أطيابِ
يقرُّ في الغابةِ مستخفياً	سكرانَ محفوفاً بأعنابِ
دفءُ الدروبِ الخضرِ من دفئهِ	وهمسُهُ همسةُ أحبابِ
صغيرةُ النهدين في داري	طفلةُ أشواقٍ وأسرارِ
قالوا لنا: قد صبغتْ خدَّها	بالأمس من حُمرةِ أزهارِ
لو أكثروا الأقوالَ في حسنها	مزقتُ خدَّ الوردِ من ثاري
حبيبتي سمراءُ غنّى لها	كأسي وندماني وسُمّاري
لو باحَ يوماً باسمها بلبلٌ	خبّأتهُ في صدرها العاري
حبيبتي تهوى أغانينا	والشعرَ والوردَ ووادينا
تُلونُ القريةَ من صوتها	إن قلتُ: يا حلوةُ غنّينا
ربيعُنا جُنَّ... يُدَنّي لها	آساً وقد أوصتْهُ نسرينا
فتّقَ ما تهوى ولم يُرضها	فزركشَ الآفاقَ تلوينا
حبيبتي كافرةٌ... إنها	لم تتخذْ غيرَ الهوى دينا

بغداد، ٢٢/ ٣/ ١٩٥٣

أغنية ليست هادئة

الصيفُ طوّقنا فالكرْمُ أسوارُ تحفُّ بيتيَ والينبوعُ هدّارُ
وعندَ أحراشِ «بوبافا» مصفقةٌ من الكؤوسِ وتفاحٌ وأبكارُ
وبنتُ «سلمانَ» تسقينا معتقةً حمراءَ في كأَسِها شهبٌ وأقمارُ
سكرٌ ينام على سكرٍ، وعربدةٌ تهفو لعربدةٍ، والليلُ خمّارُ
والنارُ تجتاح صدري دونَ مُطفئةٍ وبنتُ جارتنا تجتاحُها النارُ
جاراتُنا جبلياتٌ فلا صلةٌ فالثلجُ في القمةِ البيضاءِ غدّارُ
واللوزُ كادت أكفُّ الحبِّ تبلغهُ لكنه من رفيقِ اللمسِ ينهارُ
فقلْ لسكرينَ قد جُنتْ جوانحُنا ظمأى، وكلُّ السفوحِ الفيحِ أنهارُ
ما كانَ سلمانُ ممراحاً ينادمُنا لو لم يكنْ من رحيقِ النهدِ يشتارُ
لهفَ المآزر ما نامتْ وما هدأتْ أكلُّ ليلتها نارٌ وإعصارُ!
يا بنتَ سولافَ، ما عاد الهوى أملاً أكلُّ حظيَ من واديكِ تذكارُ
لنا على السفحِ من سولافَ أغنيةٌ وفي الينابيعِ من سكرينَ سُمّارُ

٢٠/ ٧/ ١٩٥٣

شيء قديم

حُلمَ الفوارسِ والقبابِ، وزهوةَ البطلِ الأشدِّ
المرتبي الأفقَ المدلَّ كما ارتبتْ هبواتُ «نجدِ»
قلْ للخيولِ الهائجاتِ: مغارُ أهلكِ دونَ حدِّ
هم روّعوا الدنيا وما وثبوا لنازلةٍ بغمدِ
الأوجهُ السمرُ المخضّبةُ استباحتْ كلَّ مجدِ
جَرَحَ الحجازُ لأجلها خدّاً وروّى جَهْمَ خدِّ
وروتْ تِهامةُ للنجوم حكايةً عن خيرِ وُلْدِ
ألمشعلينَ ذرى الجبالِ، المُصعدينَ بكلِّ نجدِ
الرائعينَ الروعَ والماضينَ جنداً إثْرَ جندِ
يا رائدَ الأملِ المدلَّلِ ما ارتوى ظمأٌ بوعدِ
أحرقْ جبالَ الثلجِ أحرقْها وزلْزلْها برعدِ
وانفضْ عن الفرسِ الجَموحِ نثيرَها واهزأْ بِصَلدِ
واركزْ رماحَكَ في الثلوجِ تحدّياً يدعو التحدي

*

يا عائداتِ الفتحِ في الذكرى: عبدتُكِ من مَرَدِّ

بغداد، ١٩٥٢

من أجل كل شيء

لكِ عندنا كأسٌ وبعضُ شذىً		مـن وردِنـا وحـديـثُ أشـواقِ
ومُـطـرَّزٌ نـسـجـتْـهُ والـدتـي		ووسـادةٌ نُـقـشـتْ بـأوراقِ
أضـنـتْ بـهـا أختـي أنـاملَـهـا		وشـيـاً، ووشّـتْ أمـيَ الـبـاقـي
وجـدلـتُ من أغـصـانِ غـابـتـنـا		لكِ مـخـدعـاً في حضـنِ دفّاقِ
وبـنـيـتُ كـوخـاً نـسـتـريـحُ بـه		ويـنـامُ تـحـتَ غـصـونـهِ الـسـاقـي
زركـشـتُـهُ ورداً وجـئـتُ لـه		بـالـنـورِ مـن أعـمـاقِ أحـداقـي

*

نذلٌ. . .
وأوغادٌ. . .
قُـتـلـتِ؟ فـدىً		لـنضـالِـنـا. . . لـطريـقِ إشـراقِ
مـن أجـلِ قـريـتـنـا وقـمـتِـنـا		ومـكـبّـلِ نـاءٍ وأفّـاقِ
إمّـا قُـتـلـتِ فـمـا تـزال يـدٌ		غـضـبى تـهـزٌّ إلـيـكِ أعـمـاقـي
يا من أردتِ. . . وما مررتِ بنا:		لـك سـلـةٌ مـن وردِ آفـاقِ

البصرة، ٢٧/ ١٠/ ١٩٥٣

أريد

سألثمُ هِلاّسَ في الوجنتينِ وأصحبُ باخوسَ في سُكْرهِ
سأمضي على عرباتِ الجنودِ لنيرونَ أسألُ عن خمرهِ
وأخلقُ روما من الياسمينِ تصلّي فجوراً على طهرهِ
لأنسجَ منه قميصَ العذارى وأغمسَ رأسيَ في عطرهِ
وأنزعَه عن صدورِ الصبايا وأسطو على النهدِ من نهرهِ
فأسرقَ من كنزهِ حبّتينِ فدىً لهما المجدُ في كِبْرِهِ
سأشربُ حتى تملَّ الكؤوسُ شبابي وتنهدَّ من شرّهِ
فإن أذبلَ العجزُ مني الشبابَ وأُغلقتِ الحانُ عن شِعرهِ
سأرقدُ في زحَماتِ السحابِ وأعصرُ خمريَ من قَطْرِهِ

بغداد، ١٩٥٢

على الطريق القديم إلى أصفهان

أتينا وقد سكرَ الساقيانْ وقافلتي أثقلتْها الدِنانْ
نخوّضُ في لُجَّةٍ من نجومٍ ونغرقُ في موجةٍ من أغانْ
إذا أُغمضَتْ مقلتا عازفٍ أفاقَ على لحنهِ عازفانْ
هو الليلُ. . .
والرملُ. . .
والمنشدون أغانيهمُ يرتديها الزمانْ
بها من فمِ الحبِّ أغرودةٌ ومن شفةِ الكأسِ أغرودتانْ
تمرُّ بها الريحُ عبر البراري ويهمسُها الوردُ والأرجوانْ
هو الليلُ. . .
والهودجُ المستريحُ وسِترٌ بدتْ خلفَهُ مقلتانْ
تحنّانِ للحبِّ والراقصينَ وللنورِ والأهلِ تستشرفانْ
هنالكَ حيثُ يسيلُ العبيرُ جداولَ ينشرُها الأقحوانْ
وتسبحُ فوقَ البيوتِ النجومْ هنا. . .
تُلمَسُ الشهْبُ والفرقدانْ
وحيثُ شذى الوردِ فوقَ الجبالِ وملءِ المدينةِ. . . كانتْ فكانْ
هنالكَ من كل سترٍ أغانْ ومن كلِّ نافذةٍ ناهدانْ
هنالك بيتي ومِن حولهِ قِبابٌ. . . وشِعرٌ. . . وخمّارتانْ

هو الليلُ . . .

يُـفـتَـقُ عــنــه الـصـبــاحُ نـقـيـاً، فـيـسـتـيـقـظُ الـسـاقـيـانْ

. . . .

دعِ الهودجَ البضَّ يطوي الطريقَ قليلاً . . . فقد ظهرتْ أصفهانْ!

بغداد، ١/ ٣/ ١٩٥٣

لم أكن مثلهم

أنا ما عبدتُكِ مثلما عبدوا ... عبثاً، ولم أنطقْ بما قالوا
لم أستبحْ من ناهديكِ حمىً ... بضَّ التدفقِ سترُهُ شالُ
لكنْ على شفتيّ أغنيةٌ ... ظمأى، وبين يديَّ آمالُ
وعلى فؤادي موجةٌ خفقتْ ... طُهراً وزهريْ بَعدُ أشتالُ
يا من زرعتِ الوردَ عابثةً: ... يسقيهِ من عينيَّ هطّالُ!

*

واليومَ عاد غرامُنا حلُماً ... تطويه عن عينيَّ أليالُ
والزهرُ أثمرَ وازدهى غضباً ... مُرّاً تطوفُ عليه أوشالُ
والدمعُ ذاب بنورِ طافحةٍ ... والقلبُ لم يغررْ به آلُ
والحانُ جُنَّ وماجَ من فرحٍ ... وهوى على الصَبَواتِ ضُلاّلُ
اليومَ أعبدُ مثلما عبدوا ... عبثاً وأنطقُ بالذي قالوا!

بغداد، ١٩٥٢

موسيقى عن بغداد القديمة

وترٌ يبوحُ بلوعةِ الوجدِ		فيطوفُ فوقَ مرابعِ الخلُدِ
ويُسلسلُ الألحانَ مُصْعدةً		زرقاءَ نحوَ عوالمٍ مُلْدِ
فيها الربيعُ يظلُّ مختلجاً		والزهرُ أينعُ من صَبا نجدِ
وكأنها إذ طافَ طائفُها		سيكاهُ ترقصُ في النهاوندِ
أو طائرٌ عَصَفَ الشمالُ به		فهوى بهندِ الشرقِ والسندِ

*

وترٌ يموجُ بلوعةِ الوجدِ		موجَ البحارِ بمركبِ الوردِ
بغدادُ في رقصاتهِ انتفضتْ		حاناً وأستاراً من النِّدِّ
تحنو الحسانُ على ملاعبها		بالخمرةِ الحسناءِ تستهدي
فعلى فم الأبكارِ أغنيةٌ		هبّتْ ترفرفُ في سنى الخدِّ
وعلى القلوبِ تموّجٌ فرِحٌ		أسرى فكانَ ترجرجَ النهدِ

*

غنِّ الصِبا... ودع الهوى حلُماً		رغداً يهفُّ بموعدٍ رغْدِ
بكفيكَ مجداً أن يظلَّ فمُ العذراءِ يهتفُ: أنتَ لي مجدي!

أبو الخصيب، ٢٥/٧/١٩٥١

ثنائي

أتــــهـــوانـــي وتـــرتـــجـــفُ　　وثـــغـــرُكَ حـــائـــرٌ وَجِـــفُ
أأنـــي الـــحـــلـــوةُ الـــســـمـــراءُ　　والأشـــــذاءُ والـــــتـــــرفُ
ومـــن غـــنّـــى لـــهـــا الـــعـــصـــفـــورُ　　مـــا تـــشـــدو ومـــا تـــصـــفُ
ومـــن هـــامـــوا بـــسُـــمـــرتـــهـــا　　ومـــن لـــجـــمـــالـــهـــا هـــتـــفـــوا
بـــريـــقُ الـــشـــوقِ فـــي عـــيـــنـــيـــكَ بـــالأشـــواقِ يـــعـــتـــرفُ
لـــقـــد أســـرفـــتَ مـــرتـــقـــبـــاً　　فـــفـــيـــم الـــحـــزنُ والـــسَّـــرَفُ
إذ لـــم تـــأتِ غـــرفـــتَـــنـــا　　فـــلا الـــديـــبـــاجُ والـــغـــرفُ
ولـــكـــنْ يـــا قـــلـــيـــلَ الـــديـــنِ　　قـــد يـــتـــكـــسّـــرُ الـــخَـــزَفُ!

بغداد، ١٩٥٢

عالياً... حيث أسمع صوتك

صوتُكِ يا بيضاءُ في خاطري　　ينبضُ في عمقِ الشذى الساحرِ
أُوقظُه ليلاً إذا ما دجا　　قلبٌ وباحَ النجمُ للعابرِ
صوتُكِ . . .
ثم استيقظتْ زهرةٌ　　وماجَ كأسٌ بهوىً غابرِ
صوتُكِ . . .
غنّتْ ليَ عصفورةٌ　　ورنّ نايٌ في يدِ السامرِ
أُغمضُ عينيّ على وحدتي　　أرتوي من حلُم غامرِ
وارتبي أفقاً بعيدَ المدى　　وفوقَ دنيا مطلبٍ عابرِ
فأجتلي صوتاً وأغفو على　　صوتٍ . . . وأهفو لهوىً غائرِ
يلمسُ قلبي مثلما لامسَ الماءَ جناحٌ رفَّ من طائرِ

❊

صوتُكِ يا بيضاءُ في خاطري　　ينبضُ في عمقِ الشذى السّاحرِ

أبو الخصيب، ٢/٦/١٩٥١

نافذتان ونهر وأغنية

النـافـذاتُ الـبـيـضُ والـبـابُ فـتّـحـتِـهـا فـتـرنّـحَ الـغـابُ
ومضتْ زهـورُكِ في حديقتـهـا من شـوقـكِ الـمجنـونِ ترتـابُ
قـولـي لـزهـركِ قـول حـالـمـةٍ: الـحـبُّ جـاءَ وأهـلُـنـا غـابـوا
قولي... فزهرُكِ لن يبوحَ به فـالـزهـرُ والأحـبـابُ أحـبـابُ

*

النـافـذاتُ الـبـيـضُ والـبـابُ والنهرُ يفصلُنا... وينسابُ
أَوَكـلـمـا فـتّـحـتِ نـافـذةً رفّتْ على القضبانِ أهدابُ
ونظرتِ لهفى من جوانبها ورنـا لـعـبـرِ الـنـهـرِ هـيّـابُ!
يا ليتَ هذا النهرَ يجمعُنا رغـمَ الـرفـاقِ إذا هـمُ عـابـوا

*

يا نـهـرُ! إن ألـوى بـنـا سببٌ فـالـعـاطـفـاتُ الـشـقـرُ أسبـابُ
أبـديـتَ إيـلامـاً وتـفـرقـةً فـكـأنـنـا يـا نـهـرُ أغـرابُ
إن كنتَ تأبى أن تكونَ لنا جسراً فيعبرَ منكَ أحبابُ
فالنخلُ منتحبٌ بنافذتي والـزهـرُ والـعـصـفـورُ والـغـابُ

أبو الخصيب، ١٩/ ٢/ ١٩٥٢

قريتي قبل اليوم

كانت ليالينا تضيءُ القمرْ وتُطلعُ الأزهارَ قبلَ الشجرْ
كنا كطيرينِ إذا رفرفا هلّتْ سماءٌ وتهادى سَحَرْ
فوق رُبانا همساتُ الهوى تزجي لنا الشوقَ تحايا غُرَرْ
وحولَنا لم ينفتحْ برعمٌ لو لم نفتّحْهُ لنجني الزهَرْ
وقريتي كانت ربيعاً حَبا مَرَّ ليرعانا فعافَ السفرْ
ونامتِ الأنهارُ في حضنهِ مزهوةً بالسهلِ والمنحدَرْ
والموجُ حتى الموجُ يدري بنا فعادَ للهدأةِ لمّا هَدَرْ
والنخلُ حتى النخلُ ترنيمةٌ وسنانةٌ فوق ليالي السمرْ
يستسلمُ الصفصافُ في ظلها خميلةً للأسمرِ المنتظَرْ
وكعبةً أسرى إليها الصِبا ونامَ فيها الطيرُ لمّا عبرْ

*

يا قريتي... يا قريةً من شذىً يا لؤلؤاً غاصتْ إليه الدررْ
إن تذكري عهداً رفيقاً مضى فعهدُنا أزهى وأبهى ذِكَرْ
قولي: رأيتُ الحبَّ في حانهِ يعبُّ خمراً فإذا ما سكرْ
بدا لعينيَّ يرشُّ الضحى لعاشقينِ استلقيا في نهَرْ

أبو الخصيب، ٢٢/ ٢/ ١٩٥٢

صلاة جدية تقريباً

نهاوندُ كانت لنا   وكان لنا مُلكُنا
وغرناطةُ الفاتحينَ   وبغدادُ والمنحنى
ولبنانُ طلُ الشراعِ   ونجدٌ وكلُّ الدنى
وكانت بلادي مُنى   نوشّحُها سوسنا
وكان لنا في السماءِ   إلهٌ رحيمٌ بنا
وفي الأرضِ كان بنيٌّ   أبيٌّ ومن أهلنا
يعزّ عليه ضنانا   فيمسحُ عنا الضنى
ويدفعُ عنّا أذانا   ويسبحُ في حبنا
وكان يدنّي النجومَ   ويُضفي علينا السنى
ويبذلُ من قلبهِ   ليغمرَنا بالهنا
وكانا إذا الخيلُ جالت   تنادتْ لها خيلُنا
جعلْنا السما خيمةً   دعائمُها من قنا
تعاليتَ يا ربّنا   لقد كنتَ بَرّاً بنا

بغداد، ١٩٥٢

الصيف جاء...

شُدِّي من الثوبِ ففي عُنقِهِ   وضيقهِ المجنونِ ما تشتهينْ
وأقسي على الصدر ولا ترحمي   نهدينِ ما مالا على العاشقينْ
إن الطيورَ البيضَ تهوى الذرى   فما لهذا النهدِ يبقى سجينْ؟
وإن أحالَ الصيفُ فيك المنى   ناراً فزيديها بما تفعلينْ
لا تعبأي بالثوب إمّا اعتلى   يكشفُ بالرفلةِ صدراً ضنينْ
أو يفضحُ الطِيبَ مضاعاً على   ساقينِ كانا أمسِ سراً دفينْ
ولا تهابي نظراتِ الهوى   تساقطتْ ظمأى لِما تحملينْ
فالصيفُ قد أنضجَ أثمارَهُ   ومرَّ بالشوقِ على الحالمينْ
وطافَ يسقي كلَّ خدٍ سنىً   وكلَّ ثغرٍ خفقاتِ الحنينْ
وزهرُنا يفضحُ أسرارَهُ   فما يضيرُ الناسَ لو تفضحينْ؟

بغداد، ١٩٥٢

موعدٌ في مكان ما

تــقــولــيــنَ إن لــنــا مــوعــدا نــلــمُّ بــأضــوائــهِ الــفــرقــدا
ونـغـرقُ فـي مـوجـةٍ مـن شـذىً تــهــلُّ عــلــيــنــا وراءَ الــمــدى
شـريـديـنِ إلا مـن الأمـنـيـاتِ الـفـسـاحِ تـنـاجـي الـفـسـيـحَ الـغـدا
تقولينَ نحن اعتناقُ النجومِ تــحــطّــمُ قــيــداً لــهــا أســودا
وإنّــا جــنــاحــا إلــهٍ رفــيــقٍ يـشـقُّ الـمـدى بـهـمـا أصـيـدا

*

أقول!

حنانيكِ. . . ماذا أقولُ؟ وكُـلِّـيَ مـن شـفـتـيـكِ الـصـدى
إذا فــتّــحَ الــزهــرُ أوراقَــهُ حـنـانـاً، فـمـاذا يـقـولُ الـنـدى
ومـاذا تـقـولُ غـصـونُ الـورودِ إذا بــلــبــلٌ فــوقــهــا غــرّدا؟
وماذا يقولُ الربيعُ الخجولُ إذا الـربُّ زحـزحَ عـنـه الـردى؟
فديتكِ. . .

إنــي عــبــدتُ الــجــمــالَ وغــيــرَ جــمــالــكِ لــن أعــبــدا
فإنكِ فوقَ جمالِ الجمالِ. . . وإن هــواهــنّ أضــحــى ســدى

١٩٥١/٩/٤

بوح خجول

وفي لجةِ الحلمِ في عالمٍ بعيدٍ غريقٍ بأعماقيهْ
لمحتُكِ غامضةً كالضبابِ وكالنورِ في الأنجمِ النائيهْ
أصلّي لعينيكِ إمّا ابتعدتِ وأُخفيكِ إن جئتِ أَصحابيهْ
وبي خجلٌ منكِ، بي لهفةٌ وشوقٌ يمزقُ إيمانيهْ
كأنيَ أحملُ وِزْرَ الزُناةِ إذا ما ذكرتُكِ يا غاليهْ
أخافُ عليكِ فؤادي الرفيقَ وحبي العميقَ وأشواقيهْ
أحبكِ شمساً بصبحِ السجينِ ودفئاً بليلتِه الشاتيهْ
وأختاً تلوّنُ فجرَ الإخاءِ وتصبغُ بالحب أوطانيهْ
وهفهفةً من جناحِ الحمامِ ومن همسةِ الوردِ للساقيهْ
أحبكِ. . .

ليتَ الهوى لا يقالُ ولكنها مُهجةٌ داميهْ!

بغداد، ١٨/ ١١/ ١٩٥٣

أغنية جبلية

يا ليت ريحَ الشتاءْ   عن أرضنا تخبو
فيستفيقَ المساءْ   وتومضَ الشهبُ
وكيف يمضي الشقاءْ   إن لم يكن حبُّ
دومي وصُدرتَكِ الحمراءَ إن يداً   من ثلجِ كانونَ للنهدين تجتاحُ
والسابحُ الأبيضُ الملفوفُ خفقتُهُ   ملءُ الشراعينِ لا يرعاه ملاّحُ
أخفيتِ نهديكِ عنا؟ إن ثائرةً   حمراءَ فوقهما للوجدِ مصباحُ
مُري علينا إذا ما شئتِ مختبأً   فكلُّ ضيعتنا وردٌ وتفّاحُ
مري تمرُّ النجومْ   ويشملِ الفرقدُ
وفوقَ بيضِ الغيومْ   مسندُنا الأرغدُ
والحبُّ ظلٌّ يحومْ   يحنو عليه الغدُ
والنورُ يَخْضبُ في أحناءِ ضيعتنا   كرْمَ السفوحِ إذا ما هلَّ إصباحُ
وكوخُنا الأبيضُ الثلجيُّ يغمرهُ   وردٌ على النافذاتِ البيضِ فوّاحُ
جفناكِ والطيبُ مفضوحاً وطفلتُنا   ما نرتجيه وليلُ الوجدِ والرّاحُ
كم تفرحينَ إذا مرَّ الربيعُ بنا   ورفَّ في غابةِ الصفصافِ صدّاحُ
هناك تغفو الزهورْ   على شذى حبنا
وتستكنُّ الطيورْ   لكوخنا والجنى
نلوّنُ الفجرَ نورْ   ونزرعُ السوسنا

ومعبرٌ يهبطُ الوادي لقريتنا		كأنه من جديلِ الوردِ ألواحُ
يأتيكِ بالخمرِ من شيرازَ إن ظمئتْ		له الشفاهُ وغاضتْ منه أقداحُ
فتسكرينَ إلى أن يمّحي أُفُقٌ		وتهبطَ الأرضَ أشباحٌ وأشباحُ
نيرانُ فارسَ في الكأسينِ مُوقَدةٌ		والحبُّ في وجهكِ الممراحِ ممراحُ
لــو تــتــبــعــيــن هــوانــا		كــانــت لــنــا إصــفــهــانْ
وكـــان فـــوقَ رُبـــانـــا		مــا يــشــتــهــي عــاشــقــانْ
لاتــســرعــي عــن صِــبــانــا		لــقــد خــلــقْــنــا الــزمــانْ

بغداد، ١٠/ ٢/ ١٩٥٣

دعوة

إنــي وهــبــتُــكِ دفءَ آفــاقــي
والـنـورَ مـن أعـمـاقِ أعـمـاقـي
والـصـدقَ والـحـبَّ الـنـبـيَّ ولـم
يُـظـهـرْكِ حـتـى لـونُ أحـداقـي
حـتـى رفـاقـي لـم أقـلْ لـهـمـو
حـرفـاً ولـم أهـمـسْ بـأشـواقـي
خـوفـاً عـلـيـكِ، وكـلُّ مـا كـتـبـتْ
كـفّـي خـبـيءٌ بـيـن أوراقـي

*

لـسـنـا مـعـاً، أفـلا نـكـونُ مـعـاً
عند الغدِ الضاحي. . ألا نمضي
في الليلِ، في صمتِ البحارِ، على
سـفـنٍ تـهـيـمُ سـدىً بـلا أرضِ
حيث الـمـرافـئُ كـالـنـجـومِ نـرى
أضـواءَهـا مـبـهـورةَ الـومـضِ
حيث الـجـزائـرُ تـسـتـفـيـقُ عـلـى
ريحِ الجنوبِ وطيبه المغضي

*

إنــي أراكِ هــنــاكَ لامــعــةَ
العينينِ بالأضواءِ. . . بالبحرِ
بـالـغـابِ، بـالـحـبِّ الـعـمـيـقِ،
وبالنجمِ الصديقِ، وخفقةِ النهرِ
تـسـتـقـبـلـيـنَ الـبـحـرَ ضـاحـكـةً
مـحـلـولـةَ الأزرارِ والـشَـعـرِ
والـثـوبُ تـرفـعـه الـريـاحُ بـلا
خجلٍ، كأن الريحَ لا تدري!

*

يا أنتِ. . . حلْمي هل تمزقُه
كلماتُكِ الخجلى؟

فلا الغابُ

عندي، ولا ريحُ الجنوبِ، ولا
صـــمـــتُ الـــبـــحـــارِ. . .
ويـــوصَـــدُ الـــبـــابُ

خـلـفـي، وأمـضـي دونَ أغـنـيـةٍ
ويهشمُ الغاباتِ حطّابُ؟

يـا إخـوتـي الـغـربـاءَ. . . إن لـنـا
وطنَ اللظى. . .

فـلـيـوصَـدِ الـبـابُ!

بغداد، ١٩٥٤

ما كنت قاسية

ها... قد مررتِ وغبتِ عني
أينامِ بعدَ الحلمِ جَفني؟
أنا لَم أزلْ أهفو إليكِ
وإن رددتِ الطرْفَ عني
إني سأبقى بانتظاركِ
في الطريقِ فلا تضنّي
لو زرتِ... أفرشُ أرضَنا
ورداً، وأُسرعُ بالمغنّي!

البصرة، ١٩٥٤

لست أسير وحدي

ما هكذا تمضينَ... لا تذهبي
يا بعضَ أمي، يا بقايا أبي
يا عالماً تخفقُ ألوانُهُ
في لفتةِ الطفلِ وشوقِ الصبي
بعيدةٌ أنتِ، ويا طالما
كنّا سوياً في شذى المغربِ
لا تذهبي، إني ضللتُ التقى
لو جئتِ لم أشربْ ولم أذهبِ
مستنقعُ اللاهينَ يطغى على
روحي ويلقيني مع المسربِ
يا بعضَ أمي...
لا تردي يدي
إني أخافُ السيرَ في غيهبِ!

البصرة، ٢٣/ ١٢/ ١٩٥٤

المدينة التي أردت أن أسير إليها

تلك المدينةُ يا حبيبةُ والمنازلُ بانتظاري
تتوشحُ الياقوتَ ثوباً والزمرّدَ والدراري
تلك النوافذُ تستفيقُ مزركشاتٍ باخضرارِ
الوردُ يهمسُ فوقَها والطبيبُ يغمرُ كلَّ دارِ
تسقيه أهدابُ النجومِ قرارةَ الوجدِ المثارِ
تلكَ السفائنُ والقلوعُ أتتْكِ من زرقِ البحارِ
وقوافلُ الأعرابِ جاءتْ من تِهامةَ بالعرارِ
إن البحارَ السبعةَ الزرقاءَ ملكُكِ والصحاري
تلك المدينةُ. . .
للهوى بُنيت، وغابتْ عن نهارِ
طافتْ بأنفاسِ المحبِّ ومزّقتْ سرَّ المدارِ
تبريزُ في حاناتها الشقراءِ عاريةُ الإزارِ
وهفتْ لها بغدادُ بالخمرِ المخضَّبِ والجواري
والأغنياتُ بها كأعمقِ ما بدجلةَ من قرارِ
تلك المدينةُ. . .
دونَها جرحُ الهوى وعذابُ نارِ
إنا إنْ وصلتُ فدربُها وارٍ بما ألقى ودارِ

بغداد، ٢١/ ٢/ ١٩٥٣

صديقةٌ تحبّ البحر

يـا أخـتَـنـا إنّـا بـلا وطـنٍ   نـهـواهُ، إنْ صـدقـاً وإن كـذِبـا
الـرمـلُ أطـفـأَ دونَ أعـيـنـنـا   لـونَ الـبـحـارِ ومـزّقَ الـكـتـبـا
حـتـى رأيـنـا مـن ضـلالـتـنـا   رُشـداً ومـن أكـواخِـنـا قِـبـبـا
والـمـجـدُ أغـنـيـةٌ مـلـطَّـخـةٌ   نـلـهـو بـهـا ديـنـاً ومـنـتـسَـبـا
والـشِـعـرُ... ضِـلّـيـلٌ يـتـيـهُ بـه   ظُـلـمـاً، ونـابـغـةٌ إذا ربـهـا
قومي؟

ومَـن قـومـي إذا عـبـدوا   دونَ الشموسِ الصخرَ والخشبا؟

*

وتـلـفـتـتْ عـيـنـانِ نـورُهـمـا   نـورُ الـسـمـاءِ عـذوبـةً وصِـبـا
قالت: هناكَ البحرُ... أمنيتي   يسقي الصخورَ ويقطفُ الشهُبا
أتحبّ لونَ البحرِ؟

ـ آنـسـتـي!   إنـي أحـبُّ الـبـحـرَ إن غَـضِـبـا

البصرة، ١٩٥٤

تخطيطٌ أوليّ عن حصار غرناطة

تلك الممراتُ النديةُ بالدماءِ وبالضبابْ
حمراءُ تلهثُ وهي تصعدُ للقلاعْ
تهوي الصخورُ على الصخورْ
فيها وتِجهشُ باللهيبِ وبالدخانْ
وبصرخةِ الحربِ الثقيلةِ، والفوارسِ والجنودْ
والقلعةُ العربيةُ الحمراءُ تقتربُ الخيولْ
من سورِها والبرجِ هائجةً... وتنطلقُ السهامْ
باسم العذارى والعيونِ الخائفاتْ
رمياً! فلم تزلِ البنودْ
خفاقةً حمراءَ يقْدمها المغيرْ
رمياً! وتنطلقُ السهامْ
رمياً! ويسقطُ قائدُ الأعداءِ تسحقُه الخيولْ
هذا الصليبْ
صلبوا عليه الناصريَّ ـ ولم يتوبوا ـ من جديدْ

❋

والفجرُ يبسمُ للضبابْ
ومزارعُ الزيتونِ توقظُها الدوالي والسلال

وغداً. . . يطوفُ الفجرُ بالحاناتِ مغلقةً وينتفضُ الرجالْ
للسيفِ والدمِ والبنودْ
حمراءَ تلهثُ وهي تصعدُ للقلاعْ

بغداد، ١٩٥٣

إلى شاعرٍ فارسيّ

نهاوندُ والعودُ والمنشدُ وشيرازُ والوترُ الأرغدُ
وما رفَّ في شفتَي عاشقٍ تراءى بأحلامِهِ الموعدُ
فداءٌ لثغركَ، والأغنياتُ له ضائعاتُ الشذى تسجدُ

❊

تعاليتَ والأملُ المقبلُ يموجُ بأثوابِهِ السلسلُ
وبغدادُ ترويكَ أسطورةً وكأساً إذا ما نأى منهلُ
بها من أغانيكَ أغرودةٌ يرددها صادحٌ عَنْدَلُ

❊

خيالاتُ فارسَ والأربُعُ يهدهدُها مجمرٌ مترعُ
حساناً عليهنّ ثوبُ السماءِ ودنّاً يداعبُه أروعُ
وأنتَ ترفرفُ عبرَ المدى نبيّاً له كأسُه مرتعُ

❊

نبياً يريدُ ترابَ البشرْ سماءً تموتُ عليها الغِبَرْ
ملاعبُها من نقاءِ الكرومِ وألوانُها من ضياءِ السَحَرْ
وأنجمُها من بريقِ الشفاهِ وهدأتُها من ليالي السَمَرْ

أغنيةٌ فارسيةٌ قديمة

«في ذكرى نعيم. ص. الوادي»

لــنــا الــغــابُ والــجــدولُ   ومــلــعــبُــنــا الأولُ
ولــيــلُ الــنــدى والــنــدامــى   ومــا يــهــمــسُ الــبــلــبــلُ
وأبــيــضُ بــضٌّ الــكــؤوسِ   مــن الــسُــكــر لا يُــســكــرُ
بأعماقِهِ عبقرُ
تدورُ عليه الشموسْ
ســقــى ســاعــةً ثــم نــامــا   فــهــا... جَــفــنُــه مُــسْــبَــلُ

*

وعــنــدَ الــمــراقــي الــفــســاحْ   يــضــمُّ الــجــنــاحُ الــجــنــاحْ
هــنــالــك تــزهــو الأغــانــي   وتُــلــقــي الــنــهــودُ الــوشــاحْ
هــنــالــك بــالــيــاســمــيــنْ   نــلــوّنُــهــا والــنــدى
بفارسَ يجثو المدى
على نغمِ الراقصينْ
وفــي هــمــســاتِ الــغــوانــي   هــنــالــك لَــونٌ وراحْ

بغداد، ١٩٥٢

أرادوا أن أتحدث عن الفن

طـيـبٌ وغـابـاتٌ وأرديـةٌ
ورنـيـنُ إزمـيـلٍ وقـيـثـارِ
ومـعـابـدٌ بـيـضـاءُ مـرَّ بـهـا
دفءُ الـشـروقِ وورد آذارِ
ومـرافـئٌ كـالـوهـمِ نـائـيـةٌ
تـدنـو بـأشـرعـةٍ وبـحّـارِ
ونـبـيـذُ شـيـرازٍ وأغـنـيـةٌ
لـلـخـمرِ ما عَرضتْ لـخـمّارِ

*

واهـاً! تـهـاوتْ كـلُّـهـا ومـضـتْ
لا غـابُـهـا بـاقٍ ولا الـوردُ
شيـرازُ مـاتـتْ والـكـؤوسُ هـوتْ
وتـهـدّمـتْ ظـمـأً نـهـاونـدُ
حـتـى الـبـحـارُ الـزرقُ لـوّثـهـا
وغـدٌ وكـدّر لـونـهـا حـقـدُ. .
لكـن. . صديقي! ما تزال لنا
شـفـة الـهـوى والـخـدّ والـنـهـدُ

*

يا عالمَ الفنّانِ... هل خلَقتْ
دنـــيـــاكَ ألـــحـــانٌ وألـــوانُ
أسرى بها الوجدُ الجريحُ إلى
قـمـمٍ بـهـنّ الـفـنُّ نـيـرانُ؟
هي من دماءِ القلبِ منبعُها
كالخمرِ يُهرقُ كأسَها ألحانُ؟
أم من قلوبِ الناسِ قد نبعتْ
وأضـاءَهـا بـالـفـنِ فـنـانُ؟

*

هـي حـانـةٌ حـمـراءُ خـضَّـبَـهـا
بـالأحـمـرِ الـوضّـاءِ مـصـبـاحُ؟
كـأسٌ عـلـى كـفٍ وأغـنـيـةٌ
خـرقـاءُ صـاخـبـةٌ وأشـبـاحُ؟
أم زهـرةٌ بـيـضـاءُ أيـقـظَـهـا
من خدرها المغسول صدّاحُ؟
سبحَ الندى فيها ودغدغَها
بـالـنـور والأشـذاء إصـبـاحُ؟

*

يـا عـالـمَ الـفـنـانِ كـن ألـقـاً
يـهـدي الـرفـاقَ لـعـالـمٍ ثـانِ
من بـسـمـةِ الـعـشـاقِ بـسـمـتـهُ
ومـن الـسـلامِ ربـيـعُـهُ ألـحـانـي
حـيـث الـبـحـارُ تـنـامُ حـالـمـةً

والأرضُ تـثمـلُ بـالـنـدى الـداني
وطنٌ حلمتُ به فيا أملَ الفنانِ
كـــــنْ آمـــــالَ أوطـــــانـــــي

*

إنـي وهـبـتُ دمـي لـمـشـرقـهِ
وفـديـتُـه بـسـوادِ أحـداقـي
يـا كـم سـهـرتُ الـلـيـلَ أرقـبـهُ
نـجـماً يـضـيءُ بـلـيـلِ أعـمـاقـي
وطـنـي هـو الـدنـيـا. . مـلـوّحـةً
بـهـوىً، مـلـوّنـةً بـإشـراقِ
هـو حـلْـمُ رومـا حـيـن أيـقـظَـهـا
صـوتُ الـمسـيـحِ ومزّقَ الـسـاقـي

*

لـم يـبـقَ مـن لألاءِ مـرمـرهِ
إلا بـقـايـا لُـطـخـتْ بـدمِ
فـنٌ تـمـزقُ وجـهَـهُ مِـزَقـا
كـفُ الـطـغـاةِ وبُـحّـةُ الـعـدَمِ
فـنُ الـسـكـارى إن ألـمَّ بـهـم
في الـموبـقـاتِ خـيـالُ مـجـترمِ
يـا مـوبـقـاتِ الـفـنِ. . لـسـتِ لـنـا
فـتـمرغي في الطينِ وانـهـدمي!

بغداد، ١٧/ ١٢/ ١٩٥٣

القرصان

أيها البحرُ، أيها الصاخبُ الهدّارُ، يا صولةَ الردى والسوافي
أيها الشامخُ الذرى، أيها المنهدُّ موجاً على صخورِ الضفافِ
هدأةً للغريبِ، يا موجُ صمتاً، يا رياحُ أخمدي، ويا شمسُ وافي
آهِ لو تعلمينَ مَن يركبُ البحرَ هَزوءاً بموجهِ العزّافِ
يرقبُ البرَّ من سفينتهِ شوقاً فيفترُّ ثغرهُ بارتجافِ
باسماً للرذاذِ تقذفُه الريحُ على الوجهِ كالرحيقِ الصافي

* * *

هدأَ النورُ، واستكانَ له البحرُ، وأرختْ ذُكاءُ منها ذيولا
سحبتْها على خدودِ الموجاتِ فأدمتْ خدودَها تقبيلا
فكأنَّ الشراعَ تدفعهُ الريحُ قليلاً وترتجيه وصولا
تلمسُ المركبَ الصغيرَ كما تلمسُ عذراءُ ثوبَها المهدولا
رفرفَ الطيرُ فوقَه يتلقّاه جناحاً على الصواري بليلا
أيها الطيرُ. . . قد بلغتَ به البرَّ، فهل يحفظُ الشراعُ الجميلا؟

* * *

القلوعُ البيضاءُ تلمعُ في البصرةِ والبحرُ مستكينٌ لديها
يحملُ النازحينَ والخمرَ والأطيابَ والمالَ نعمةً في يديها
والجواري من كل طرفٍ سحيقِ البعدِ يمسحْنَ بالشذى قدميها

حفلتْ بالسفائنِ الحمرِ آلافا أتتْ تنثرُ الثراءَ عليها
من ضفافِ الأسرارِ في الهندِ والصينِ ومَن يستطيعُ درباً إليها
إنها مرفأُ الشذى، بصرةُ الجندِ، يفيضُ الشروقُ من عينيها

* * *

أيها المؤمنونَ، يا أصدقاءَ البحرِ! هل تعلمونَ ما في السفينةْ!
إن فيها الحريرَ والخزَّ والعنبرَ والمسكَ والخمورَ الثمينةْ. .
إن فيها لأربعاً من جواري التركِ، فيهن فتنةٌ مجنونةْ
هنّ عند القصيدِ مجنونكم قيسٌ ويُخجلنَ مَعْبداً ولحونَهْ. . .
أيها القادمونَ، يا فتيةَ البصرةِ، صفحاً لمن يبثُّ شجونَهْ
قد جلبتُ الأموالَ من خلفِ سورِ الصينِ من ألفِ قريةٍ ومدينةْ
أفلا تشترونَها؟ والجواري؟ أين من يشتري الغوالي الأمينةْ؟

* * *

فجرى الناسُ للسفينةِ والصبحُ على البحرِ مُطْرفٌ من حريرِ
لونتهُ الشمسُ الغريرةُ لوناً من نبيذٍ معتقٍ مسحورِ
والطيورُ البيضاءُ تخفقُ فوقَ الناسِ ريشاً من الشذى والنورِ
لم تدُرْ دورةً على السوقِ حتى سمعَ الناسُ وقعَ خيلِ الأميرِ
إنه قادمٌ ففي المركبِ الراسي جَوارٍ لقصرهِ المشهورِ
أيهذا الربانُ، أين جواريك؟ أما زلتَ غارقاً في الخمورِ؟

* * *

فأطلَّ الربانُ وسنانَ سكرانَ وألقى بسوطهِ في الفضاءِ
قال: حُييتَ يا فتى! أيها البحّارُ. . . إرفعْ لهم ستارَ النساءِ
قل لهم: إن بينهنّ عروساً خُطفتْ عندَ ليلةٍ ظلماءِ. . .

حين كان الزفافُ حلماً قريباً بعد يومين من هوىً وغناءِ
خطفوها من قصرِها حيث كانت ترتدي للزفاف أزهى رداءِ
قل لهم: واسمُها (جنانُ) فلا يبخلْ عليها أميرُنا بالعطاءِ

❊ ❊ ❊

رُفعَ السترُ للأمير ففاح الطِيبُ من خلفِه وضَوَّعَ خمرُ
وشدا بلبلٌ وهفهفَ ثوبٌ، وعلتْ همسةٌ ورفرفَ سترُ
برهةً ثم هَمٍّ قال له البحّارُ يا سيدي أمامك خِدْرُ
إنني فاتحٌ ولكنْ تمهّلْ يا أميري ففي فؤاديَ سرُّ
ثم أفضى له بسرٍ عميقٍ قاله للأمير وهو يمرُّ:
يدخلُ البيتَ من يريهن أن الحبَّ يا سيدي عناقٌ وثغرُ
إن بيتَ النساءِ بيتٌ من الشِعر رقيقٌ عند الدخول ووعرُ
والمحبُّ الفنانُ كالشاعرِ الفنانِ لا يعتريه عَيٌّ وحَصْرُ

❊ ❊ ❊

فأجابَ الأميرُ: حُييتَ يا بحّارُ ارفعْ لنا الستارَ الثاني
ففؤادي يرفّ في الصدر شوقاً إن دون الهوى جراحَ الأماني
نسمةٌ أوغلتْ، ، فرفرفَ سترٌ من حرير بدتْ لديه الغواني
كنّ يضحكنَ للصباح ويخلعنَ ثياباً شفيفةَ الألوانِ
عرضتْ للنسيم صدراً جريئاً فاشتكى لذعَ لمسه الناهدانِ
ومشى الشوقُ رجفةً فتلوينَ اشتهاءً تلويَ الثعبانِ
ثم أسرعن للفراشِ عذارى ثائراتٍ يحلمنَ بالأحضانِ
ليس يعلمنَ أن من هزّ أستارَ حماهنَّ لحظةً رجلانِ
كن يحسبن أنهن بعيداتٌ عن الواغلين غير (جنانِ)

فلقد راقبتْهما فأمالتْ صدرَها وانثنتْ ببعضِ الأغاني
عن ليالي غرامها وفراشٍ للهوى لم ينمْ به عاشقانِ

***

فاشتراها الأمير كالزهرةِ الظمأى تروّي بعطرها كلَّ نفسِ
وسرى موكبُ الجواري وقد حلّتْ جنانٌ محفةً من دمقسِ
يزدهي حولها الفوارسُ ألواناً فمن صُقلُبٍ وعُرْبٍ وفُرسِ
وإذا صيحةٌ يرددها الدربُ فأصغى لوقعها ألفُ حسِ
وإذا بالفتى ينادي وراءَ الخيلِ يسعى إلى الأمير بلمسِ
يا أميرَ الندى ويا سيدَ البحرِ وآفاقه ويا خيرَ غرسي
إنني لا أريدُ عَوداً إلى البحرِ وأمواجهِ وطولِ التأسي
فاحمِني أيها الأميرُ من الربانِ والبحرِ فهو تعسي ورمسي

***

كان ثغرُ الصباحِ يبسمُ للبصرةِ نوراً مغلغِلاً في الخمائلْ
ماسحاً بالندى ظِلالَ الليالي ناشراً فوقهنّ حُمْرَ جدائلْ
في دروبِ الربيعِ والنخلِ والبحرِ وأمواجهِ وفوقَ المنازلْ
فيحيلُ الندى على قممِ الوردِ نبيذاً على شفاهٍ نواهلْ
يُذْكرُ الشمس بالجواري وبالكأسِ وندمانهِ وسحرِ الأصائلْ
حين يحلو الهوى إلى سكرةٍ فيها تنامُ الكؤوسُ تحتَ الأناملْ

***

الندى مالئٌ بُرودَ الندامى والجوى مالئٌ نهودَ الجواري
هكذا العازفونَ جاءوا إلى البحرِ سكارى على شفاهِ النهارِ
يملأون الطريقَ بُرداً رقيقاً تتصبّاه رِفلةٌ من إزارِ

فأطلَّ الربانُ يعبثُ بالسوطِ ويرنو لشاهقاتِ الصواري
فإذا بالفتى يردُّ الندامى ملقياً عودَهُ بلا أوتارِ. . .
هاتفاً للقلوعِ: قد عدتُ فاسري موكباً ترتمي عليه الدراري
أنا لا أستريحُ يا سيدي الربانَ إلا مطوّفاً في البحارِ

❋ ❋ ❋

فدعاه الربانُ حباً وألقى سوطه وانتحى به غضبانا. . .
قال يا أيها الفتى، أيها المجنونُ، هل كنتَ عندهم سكرانا؟
كيف تسعى إلى الأميرِ لتبقى عنده خادماً ذليلا جبانا
أنت يا من ضربتَ في البحرِ حتى كاد يلقي على يديك الجمانا
أنتَ يا من ضربتَ بالسيفِ حتى ألِفَ الغِمدُ أن يظلَّ مهانا؟
إن هذي سفينةُ المجدِ تأبى ذلّةً أو يسدَّها قتلانا!
صرخةُ الحربِ لن تكلَّ نداءً يُرغمُ البحرَ أن يُحلَّ خطانا

❋ ❋ ❋

ليس يسعى إلى الأمير ذليلاً من جثتْ تحت اخمصيه الخطوبُ
أنت أدرى بنا إذا هدرَ الموجُ وجاشتْ غواربٌ ولَهوبُ
وإذا ما أطلقتَها صرخةَ الحربِ وعزَّ الكميُّ من يستجيبُ؟
كما أملْنا على العدو العوالي خُفّضاً وهو أخرسٌ لا يجيبُ
ورددْنا عن النساءِ المواضي ذُهَّلاً هدّها النجيعُ الصبيبُ
أَوَلم اختطفْ جناناً من القصرِ وبحرُ السهامِ طام رهيبُ
حينَ جالَ الرجالُ واستنجَدُ الجندُ فلم تنفعِ الحريبَ الحروبُ

❋ ❋ ❋

أنت أذكرتَني جناناً فمهلاً يا فتى البحرِ يا أميرَ الندامى!

قد دجا الحبُّ في السفينةِ لما فقدتْ سربَها فباتت ظلاما
ومضى عرسُها فقد هدأَ الراقصُ واستمهلَ المغني وناما. . .
لم تكنْ هكذا الليالي قَتاما حين كانت جنان نجلو الغراما
وتشدُّ السهامَ في القلب لكنْ تنثني بعدها فتنضو السهاما
نزعتْ أسهمَ الهيامِ ولكنّ فؤادي ما زال يشكو الهياما
فأجاب الفتى: لقد كنتُ في القصر وأبلغتُها الهوى والسلاما
قلتُ: ما زال سيدي يرقبُ الأفقَ ليلقاكِ في النجوم ابتساما

❊ ❊ ❊

إستفاقَ النخيلُ طَلْقَ المحيّا يرقبُ البدرَ في الأعالي وضيّا
فإذا سعفُه الثقيلُ أيادٍ مشرعات تنوءُ شيئاً فشيّا
قبّلَ البدرُ بالضياءِ أعاليها وأبقى السعفَ الخفيضَ خليا
قبلةَ النورِ يسكبُ البدرُ فيها روحَه فالدُّنى من السحر رؤيا
وسرى النهر لاثماً قدمَ النخلِ مُجيلا بين الخمائل ريّا
وإذ الليلُ تطعنُ الصمتَ فيه صرخةٌ تملأُ السفينَ دويّا:

❊ ❊ ❊

أيها الأصدقاءُ لُفّوا المراسي وارقبِ البرَّ يا فتى والقصورا
يا كشيفَ الذراعِ أسرعْ إلى الدفّةِ واحذرْ هنيهةً لندورا
أيها العازفُ الصغيرُ حناناً قل لمن يجذفون: عرّوا الصدورا
أيها المبحرونَ! أين الهدايا؟ والتحايا. . فقد نزور الأميرا!
افتحوا مخزنَ السلاحِ، إلى الحربِ! فقد أسدلَ الظلامُ الستورا
يا نسيمَ القتالِ والبحرِ هذي رايةُ الحربِ فانتفضْ مسعورا!

❊ ❊ ❊

هكذا سارتِ السفينةُ يرعاها ظلامٌ داجٍ وموجٌ مُعْنَى
وكأنّ النجومَ أرهبَها الروعُ فنامتْ عن التألق وَهْنا
وجثا البحرُ وارتمى مستذَلاً شدَّ أنفاسَهُ هواناً وحزنا
بغتةً دمدمَ الفتى: يا رفاقَ البحرِ صمتاً وهدأةً قد وصلنا
ذاك قصرُ الأميرِ يا سيدي الربانَ هل تُنزلُ المراسيَ عنا؟
فعلا صوتُه المزمجرُ، هيا!.. قَرُبَ الفوزُ يا رجالُ وفزنا.
اسبحوا يا رفاق! قد هدأ الجندُ ونامَ العدوُّ سمعاً وعينا

* * *

حارسٌ ساهرٌ يطوفُ أمامَ القصرِ واهي الخُطى غريباً وحيدا
يرسلُ الطرفَ واهناً وهو يخطو خطوةً ثم ينثني مكدودا
فكأنّ النخيلَ ألقى عليه رُقيةً أيقظتْ خيالاً شريدا
من لياليه في نهاوندَ... والخمرِ... وحانٍ يضمُّ حباً بعيدا
من رفاقِ الشقيقِ والجبلِ الأبيضِ والزهرِ والربيعِ جديدا
وأرادَ الغناءَ لكنّ سهماً أخرسَ القلبَ والغناءَ الوليدا

* * *

سيدي.. سيدي.. لقد هدأَ السامرُ في القصر فلنزرْ زهرتيهِ
ها هنا غرفةٌ.. وثمةَ أخرى.. خلْفها سلّمٌ.. فأسرعْ إليهِ
فنضا سيفَهُ وإذْ بجنانٍ فاحتواها الربانُ في ساعديهِ
لَغِبَ الصدرِ ودَّ لو حَطَّمَ الصدرَ ومصَّ الرحيقَ من ناهديهِ
فعرتْ رعشةٌ جناناً ومالتْ وفراشُ الهوى وثيرٌ لديهِ
وهمتْ دمعةٌ فمال عليها ليروّي من خمرها شفتيهِ
غير أنّ الدموعَ أوفتْ بينبوعِ الهوى لعنةً على ناهليهِ

إذ تـراخـتْ جـنـان واشـتـدّ صـبٌّ نـبـضـاتُ الـجـحـيـمِ فـي أصـغـريـهِ
عــجــزَ الــثــوبُ أن يــضــمَّ كــنــوزاً عــجــزتْ أن تــردَ فُــســقَ يــديــهِ

* * *

يا نبيَّ السهامِ لم يطشِ السهمُ ولم تخطئِ اليدانِ مجالا . . .
قد ثوى الحارسُ الغريبُ قتيلاً دونَ أن يعرفَ الضنى والقتالا
فامضِ للبابِ مسرعاً . . ستَرى الربانَ يخفي عند النخيل الرجالا
هـكـذا أنـبـأَ الـفـتـى مُـرسَـلٌ مـرَّ عـلـيـه هـنـيـهـةً ثـم . . مـالا
هامساً: قد خلا الأميرُ بجيشٍ «يطلبُ الكرَّ ناعماً والنزالا»
سنري جيشهنَّ كيفَ العناقُ العذبُ حتى يتهنَ منا دلالا

* * *

سيدي . . قد مضى الرجالُ إلى المركبِ والبحرُ ناعمٌ بالهجوعِ
وتركنا الأميرَ في المخدعِ البضِّ سجيناً بلا مُجيبٍ سميعِ
وأسـرْنـا الـجـنـودَ والـنـاعـمـاتِ الـحـورَ بـيـضـاً مـرقـوقـاتِ الـدمـوعِ
ونـهـبـنـا الأمـيـرَ حـتـى دنـانَ الـخـمـرِ سَـحْـبـاً إلـى أمـيـرِ الـقـلـوعِ
سيدي . . سيدي . . لقد لألأ الفجرُ فأسرعْ عن الندى المفجوعِ
إن صـوتـاً مـن الـسـفـيـنـةِ يـدعـوك إلـى الـمـعـقـلِ الـمـريـعِ الـمـنـيـعِ

* * *

يا فتى . . ! من أتى؟ أتسمعُ خيلاً؟ إنني أسمعُ الخيولَ تجولُ
ليت خيلَ الأميرِ تنكصُ سلْماً قبل أن يغتلي عليها السبيلُ
يا فتى! يا جنانُ! يا سيفُ! عادتْ ضربةُ السيفِ والنزالُ الجليلُ
ويكَ! للبحرِ . . للرجالِ . . اتبقى ذاهلاً حين يستحرُّ الذهولُ؟
أيـعـيـدُ الأمـيـرُ بـالـسـيـفِ عـاراً مَـدَّهُ أمـسِ سـوطُـنـا الـمـفـتـولُ

إن درعَ الشراعِ والبحرِ منا غُرَرُ الحربِ بَرْزةً والحجولُ

* * *

ضربةً يا حسامُ حتى يثوبوا رميةً يا سهامُ حتى يتوبوا

جولةً يا رجالُ حتى تكلَّ الخيلُ وهْناً ويستكينَ الوثوبُ

كَرّةً يا رجالُ حتى يلاقي السيفُ سيفاً ويستبدَّ الغريبُ

هجمةً يا رفاقُ! ولينحنِ المجدُ فبقياه بحرُنا والحروبُ

لن يهابَ السهامَ إلا مُصابٌ أو يحبَّ السهامَ إلا مُصيبُ!

* * *

يا حبيباً أمالَ طَرْفَ الوشاحِ رافلاً في شبابهِ والمِراحِ

يا حبيباً «بفارس» ليت أنّا نزرعُ الوردَ في الربى والبطاحِ

بسمةٌ منكَ تملأُ البحرَ خمراً وتُجيلُ النسيمَ بين الرياحِ

يا حبيبي ثوى العراقُ ونجدٌ ونهاوندُ في يد الملاّحِ

هَبْ نجومَ المساءِ شعتْ ضياءً أتراها تُزري بنجمِ الصباحِ؟

إن في «فارسِ» الكؤوسِ حبيباً سوف يُذكي الهوى ويُطفي جراحي

* * *

هكذا طافَ بالشفاهِ غناءُ المبحرينَ البِعادِ يطوي البعادا

وكأنَّ الرياحَ ألقتْ على البحر وشاحاً من نسجها يتهادى

كلُّ ثغرٍ على السفينة يشدو بالنزال الجليل ذِكْراً مُعادا

قد أنال الفتى الأميرَ حساماً ماضياً فرَّ من شَباهُ ارتدادا

وأنالَ الربانُ قائدَهُ المجنونَ سهماً أصماهُ قتلاً وجادا

ومضى الجندُ يُغمدونَ سيوفاً لم تنلْ في اللقاء إلا ارتعادا

* * *

وإلى غرفةٍ تطلُّ على الموجِ تهادت جنانُ والربانُ
وسرى العازفون حولهما يروون أسطورةً رواها الزمانُ
عن شذى الحبِ والعناقِ وقصرٍ صاغ جدرانَهُ الصِبا والحنانُ
هم يقولون: قد ظفرتِ بصيدٍ لم ينالوه فاسعدي يا جنانُ
إن ربانَنا الجميلَ أميرٌ ملكُهُ الخمرُ والقنا والحسانُ

***

أيها العازفونَ.. يا أصدقائي! اعزفوا عند جندنا... يا رفاقُ!
واتركوني مع الحبيبةِ فالقلبُ ضرامٌ وكلُّ ثغري اشتياقُ
أيها العَازفونَ.. سوف تلوحُ الهندُ في بُرهةٍ ويحلو العناقُ
فمضوا للجنودِ حتى إذا راحوا بدا فوق مقلتيه انطباقُ
قال: ما كنتُ يا حبيبةُ وغداً دأبهُ السيفُ والنجيعُ المراقُ
إنما كنتُ يا جنانُ أميراً باركَ الشامُ مجدَهُ والعراقُ

***

كنت أهوى الفنونَ والكأسَ والشِعرَ ويهفو لقصري الشعراءُ
وأواسي عليلَهم إن جفاهُ الدهرُ حتى يموجَ منه الغناءُ
كنت أمضي إلى الخليفةِ والجندُ أمامٌ بموكبي ووراءُ
أدفعُ الظلمَ عن صدورِ المساكينِ وآبى أن يبطشَ الأغنياءُ
غير أنَّ السماءَ شقّتْ رداءً وهبتنيه عن رضاها السماءُ
فرماني الأميرُ والقائدُ المجنونُ بالكفرِ واجتواني البقاءُ
يا جنانَ الهوى... لقد أبعدوني! أبعدَ اللّه مجدَهم والعفاءُ!

***

هكذا... وانطوى بساطُ الأماني غير أن الشباب فيه الشبابُ

قد جمعتُ الرجالَ والصحبَ جُنداً عرفَ السيفُ بأسَهم والعبابُ
كنت أرجو الحياةَ حتى يحينَ العَودُ في هدأةٍ ويدنو العقابُ
كنت وغداً أجولُ في العالمِ المجنونِ والأفقُ عتمةٌ وضبابُ
لستُ أرضى إلا انتقاماً رهيباً كم جلاه لمقلتيّ السرابُ
وأنا اليومَ. . في عيونكِ مجدي وصلاتي ومأملي والمتابُ

* * *

سيدي. . إنني أرى مركباً يسري رفيقاً على العبابِ حنونا
انزَلوا قارباً صغيراً إلينا!. . . إنه جاءَ!. . إنهم وصلونا!. .
سيدي. . . سيدي. . . يقولون!. . ـ إن في قولهم شجيً وشجونا
ـ يا فتى! أصعِدِ الرجالَ إلى المركبِ واحذرْ في بغتةٍ أن تهونا. .

* * *

قد عفا عنكَ ـ يا أميري ـ أميرُ المؤمنينَ العظيمُ والمؤمنونا
قال «في البحر يا رجالي ابنُ عمٍّ يذرعُ الأفقَ شارداً موهونا
قد عفونا عن الأمير فلا يحذرْ عقاباً وليأتِ بيتي أمينا!»

* * *

أطرقَ القائدُ المخضّبُ واستأنى قليلاً ومال عنهم قليلا
ومضى للرفاقِ يحدو بقايا من أمانٍ تحدو فؤاداً كليلا
ومضتْ مقلتاهُ في الأوجهِ السمرِ تباعاً تحدّقان طويلا
يا رجالَ القلوعِ! قد جاءنا العفوُ فهل نستجيبُ عفواً جميلا؟
فأجابَ الفتى: اميريَ! هذا السيفُ لن يستكينَ غِمداً ذليلا!
لن تكلَّ السواعدُ السمرُ حتى تلهبَ البحرَ من شَباها صليلا
يا رفاقَ العبابِ لن يهجرَ البحرُ رفاقاً له وسيفاً صقيلا

* * *

هل تهزُّ الأنواءُ منا الذراعا حين نجفو القنا ونطوي الشراعا؟
نحن لن نشهدَ الضبابَ يغطّي بسمةَ الشمسِ والربى والقلاعا
لن ترانا الأمواجُ والعاصفاتُ الهوجُ رَوعاً تفرُّ عنه ارتياعا
لن نرى البحرَ والليالِيَ والشُّهْبَ تذرّي على الشراع الشعاعا
سنرى بسمةَ الذليلِ وسيفاً في يدِ المستبدِ يزهو التماعا

***

يا رسولَ الأميرِ! من يُنزلُ النسرَ عن القمّةِ الموشّاةِ ثلجا؟
يا رسولَ الأميرِ! إن على البحر لمأوى من الظلوم ومَنجى
أرأيتَ الكريمَ يدهمهُ الهولُ فلا يستبيحُ أمناً مرجّى؟
ليت أرضَ العراقِ والبصرةِ الخضراءِ تطغى على الضلالةِ موجا
غضبةُ البحرِ يا رسولَ العوادي ستدكُّ القلاعَ برجاً فبرجا

***

أيها البحرُ.. أيها الصاخبُ الهدّارُ.. يا صولةَ الردى والسوافي
أيها الشامخُ الذي أيها المنهدُّ موجاً على صخورِ الضفافِ
هدأةً للغريبِ.. يا موجُ صمتاً، يا رياحُ اخمدي، ويا شمسُ وافي
آه لو تعلمينَ مَن يركبُ البحرَ هزوءاً بموجهِ العزّافِ
يرقبُ البرَّ من سفينتهِ شوقاً فيفترّ ثغرهُ بارتجافِ
باسماً للرذاذِ تقذفُه الريحُ على الوجهِ كالرحيقِ الصافي

١١/ ١٠/ ١٩٥٢
بغداد ـ الوزيرية

المحتويات